الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصرى

كتاب

الاستقصا

لاخبار دول المغرب الأقصى

الدولة العلوية

الجزء السابع

تحقيق وتعليق ولدى المؤلف :

الاستاذ جعفر الناصرى — والاستاذ محمد الناصرى

* * *



الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصري

كتاب

الاستقصا

لأخبار دول المغرب الاقصى

الدولة العلوية

الجزء السابع

تحقيق وتعليق ولدي المؤلف :

الاستاذ جعفر الناصري — والاستاذ محمد الناصري

دار الكتاب

الدار البيضاء

١٩٥٦

الدولة العلوية

الخبر عن دولة الاشراف السجلماسيين من آل علي الشريف وذكر نسبهم واوليتهم

اعلم ان نسب هذه الدولة الشريفة العلوية من أصرح الانساب ، وسببها المتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم من أمتن الاسباب ، واول ملوكها كما سيأتي هو المولى محمد بن الشريف بن علي الشريف المراكشي ابن محمد بن علي بن يوسف بن علي الشريف السجلماسي ابن الحسن بن محمد بن حسن الداخل ابن قاسم بن محمد بن أبي القاسم ابن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي محمد بن عرفة ابن الحسن بن أبي بكر بن علي بن الحسن بن احمد بن اسمعيل بن قاسم بن محمد النفس الزكية ابن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هكذا ذكر هذا النسب ، الذي هو حقيق بأن يسمى سلسلة الذهب ، جماعة من العلماء كالشيخ أبي العباس أحمد بن أبي القاسم الصومعي ، والشيخ أبي عبد الله محمد العربي بن يوسف الفاسي ، والعلامة الشريف أبي محمد عبد السلام القادري في كتابه : «الدر السني فيما بفاس من النسب الحسني» وغيرهم .

وقد تقدم في اخبار السعديين أن الصواب أن يزاد في عمود هذا النسب الشريف بعد قاسم الآخر ما نصه : ابن الحسن بن محمد بن عبد الله الاشتر ابن محمد النفس الزكية الى آخر ما مر .

قال ابو عبد الله الفاسي في المرآة : «ان الشرفاء الذين لا يشك في

شرفهم بالمغرب كثيرون كالجوطيين من الحسنيين الادريسيين ، وكشرفاء تافيلالت من الحسنيين أيضا المحمديين ، وكالصقليين والعراقيين وكلاهما من الحسينيين بالياء الساكنة بين السين والنون ، فان شرف جميعهم لا يختلف فيه اثنان من اهل بلادهم ومن يعرفهم من غيرهم» اه

وعن شيخ الجماعة الامام أبي محمد عبد القادر الفاسي رحمه الله أنه قسم شرفاء المغرب بحسب القوة والضعف الى خمسة أقسام ومثل للقسم الاول المتفق على صحته باصناف منهم هؤلاء السادة السجلماسيون ، وقال الشيخ أبو علي اليوسي رحمه الله : «شرف السادة السجلماسيين مقطوع بصحته كالشمس الضاحية في رابعة النهار .» وعن الشيخ أبي العباس أحمد ابن عبد الله بن معن الاندلسي أنه كان يقول : «ما ولى المغرب بعد الادارسة أصح نسبا من شرفاء تافيلالت .

وبالجملة فان شرف هؤلاء السادة السجلماسيين مما لا نزاع في صراحته ، ولا خلاف في صحته عند أهل المغرب قاطبة بحيث جاوز حد التواتر سرا نفعني الله عنهم ونفعنا بهم وبأسلافهم آمين .

دخول المولى حسن بن قاسم الى المغرب واستيطانه بسجلماسة والسبب في ذلك

قالوا : ان أصل سلف هؤلاء السادة رضي الله عنهم من ينبع النخل من أرض الحجاز . قالوا : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقطع جدهم علي بن أبي طالب أرض ينبع فاستقرت ذريته بها وتناسلت الى هذا العهد ، وكان اول من دخل منهم المغرب المولى حسن بن قاسم ، ويحكى عن الفقيه العالم أبي عبد الله محمد بن سعيد المرغيتي صاحب الرجز المسمى : بالمقنع قال ، أخبرني الشيخ الامام المولى أبو محمد عبد الله بن

علي بن طاهر الحسني أن جده الداخل الى المغرب هو المولى حسن بن قاسم قال : « وكان دخوله اليه في أواخر المائة السابعة وكان يومئذ من أبناء الستين ونحو ذلك وتوفي رحمه الله قبل انقضاء المائة المذكورة » اه

وخبر ابن طاهر هذا هو أصح ما يقل في كيفية الدخول ووقته . وذكر بعضهم عنه أن دخوله كان سنة أربع وستين وستمائة ، وقال الشيخ أبو اسحق ابراهيم بن هلال : ان دخوله كان في أوائل الدولة المرينية ، ذكر ذلك في منسكه فعلى هذا يكون دخوله في دولة السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني ، وقد أشرنا الى ذلك في محله فيما سلف . وقال العلامة أبو سالم العياشي في رحلته : «ان المولى حسن بن قاسم دخل المغرب في المائة السابعة وكان سكناه من ينبع النخل بمدشر يعرف بمدشر بني ابراهيم» فهؤلاء كلهم اتفقوا على ان الدخول كان في المائة السابعة وهو الصحيح الصواب ان شاء الله . وزعم بعضهم أن ذلك كان في المائة السادسة وهو بعيد.

واختلفوا في السبب الداعي الى دخول هذا السيد الى المغرب ، فذكر صاحب كتاب ، «الانوار السنية فيما بسجلماسة من النسبة الحسنية» أن سبب دخوله أن ركب الحاج المغربي كان يتوارد على الاشراف هنالك وكان شيخ الركب في بعض القدمات رجلا من أهل سجلماسة يظن أنه السيد أبو ابراهيم ، فلما حج اجتمع بالموسم بالسيد حسن المذكور ، وكانت سجلماسة وأعمالها يومئذ شاغرة من سكنى الاشراف فلم يزل أبو ابراهيم يحسن للمولى حسن موطن المغرب والسكنى بسجلماسة حتى استماله فاجمع السير مع الركب ، وقدم به أبو ابراهيم فاستوطن بلدهم سجلماسة . وقال حافده المولى أبو محمد عبد الله بن علي بن طاهر فيما قيد عنه : « وكان الذي أتوا به من أهل سجلماسة أولاد الشبير وأولاد المزاري وأولاد المعتصم وأولاد ابن عاقلة وصاهره منهم أولاد المزاري » اه

وذكر صاحب الارجوزة : أن الشيخ أبا ابراهيم الذي جاء به من ذرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وقال بعضهم : ان أهل سجلماسة لم تكن تصلح الثمار ببلدهم فذهبوا الى الحجاز بقصد أن يأتوا برجل من أهل البيت

تبركا به فأتوا بالمولى حسن المذكور فحقق الله رجاءهم وأصلح ثمارهم حتى عادت بلادهم هي مجر المغرب . وقال غيره : ان سبب اتيانهم به أن الاشراف من آل ادريس رضى الله عنه كانوا قد تفرقوا ببلاد المغرب وانتثر نظامهم واستولى عليهم القتل والصغار من أمراء مكناسة وغيرهم فقل الشرف بالمغرب وأنكره كثير من أهله حقنا لدمائهم ، فلما طلع نجم الدولة المرينية بالمغرب أكبروا الاشراف ورفعوا أقدارهم واحترموهم ، ولم يكن ببلد سجلماسة أحد من آل البيت الكريم فاجمع رأى كبرائهم وأعيانهم أن يأتوا بمن يتبركون به من أهل ذلك النسب الشريف فقيل : ان الذهب يجلب من معدنه ، والياقوت يجلب من موطنه ، أن بلاد الحجاز هي مقر الاشراف ، ولذلك الجوهر النفيس من أجل الاصداف ، فقدموا الى الحجاز وجاءوا بالمولى حسن على ما ذكرنا فأشرقت شمس البيت النبوي على سجلماسة وأضاءت أرجاؤها ، وظللتها من الشجرة الطيبة ظلالها وأفياؤها ، حتى قيل : ان مقبرة أهل سجلماسة هي بقيع المغرب وكفاها هذا شرفا وفخرا ومزية وذخرا ، وذكر بعضهم : أن أهل سجلماسة لما طلبوا من المولى قاسم بن محمد أن يبعث معهم أحد أولاده وكان يومئذ أكبر شرفاء الحجاز ديانة ووجاهة اختبر من أولاده من يصلح لذلك ، وكان له على ما قيل ثمانية من الولد ، فكان يسأل الواحد منهم بعد الواحد ويقول له : «من فعل معك الخير فما تفعل معه أنت ؟» فيقول : «الخير» «ومن فعل معك الشر ؟» فيقول : «الشر» فيقول : «اجلس» الى أن انتهى الى المولى حسن الداخل فقال له كما قال لاخوته فقال : «من فعل معى الشر أفعل معه الخير» قال : «فيعود ذلك بالشر» قال : «فأعود له بالخير الى أن يغلب خيرى على شره» فاستنار وجه المولى قاسم وداخله أريحية هاشمية ودعا له بالبركة فيه وفي عقبه فأجاب الله دعوته .

وكان المولى حسن الداخل رجلا صالحا ناسكا له مشاركة في العلوم خصوصا علم البيان فانه كانت له فيه اليد الطولى ، ولما استقر بسجلماسة واطمأنت به الدار زوجه الشيخ أبو ابراهيم ابنته وسكن على ما قيل بموضع يقال له : المصلح ، ولما توفي تنازع أهل سجلماسة في موضع دفنه حتى

كادت نار الحرب تشب بينهم فأجمع رأيهم أن يدفنوه بمحل وسط هم فيه سواء ، فمسحوا أرض سجلماسة بالحبال وقسموها أرباعا ودفنوه بمكان سوى يتوسط جميع النواحي ، ولم يحفظ تاريخ وفاته ، وما استبطه اليفرني في ذلك فمبتنى على غير أساس . والله تعالى أعلم .

ذكر ذرية المولى حسن بن قاسم وتناسلها بالمغرب والالمام بشيء من مناقب المولى علي الشريف

لما توفي المولى حسن بن قاسم رحمه الله لم يخلف الا ولدا واحدا ، وهو المولى محمد ، ثم خلف المولى محمد هذا ولدا واحدا أيضا ، وهو المولى الحسن . يسمى باسم جده ، وهو المدفون حول المدينة الكبرى بإزاء الشيخ أبي عبد الله الخراز من أرض سجلماسة ، وخلف المولى الحسن المذكور ولدين . أحدهما : المولى عبد الرحمن المكنى بابي البركات ، وهو أكبرهما ، ومن ذريته أولاد أبي حميد بالتصغير القاطنون بوادي الرتب بالقصر الجديد على مرحلة من سجلماسة . ومنهم أيضا الشرفاء النازلون بني زروال ، وثانيهما : المولى علي المعروف بالشريف ومنه تفرعت فروع المحمديين وتكاثرت وكان رحمه الله رجلا صالحا مجاب الدعوة كثير الاوقاف والصدقات حاجا مجاهدا ذا همة سنية وأحوال مرضية .

رحل في بعض الاوقات الى فاس واستوطنها مدة طويلة . وكان سكناه منها بالحومة المعروفة بجزاء ابن عامر من عدوة القرويين ، وترك هنالك دارا ثم أقام مدة بقرية صفرو خلف بها عقارا وآثارا هي بها الى الآن ، وأقام مدة أخرى ببلد جرس التي على مرحلتين وتصف من سجلماسة ، وترك بها مثل ذلك . ودخل عدوة الاندلس برسم الجهاد مرارا وأقام بها مدة طويلة ثم عاد الى سجلماسة ، فكاتبه أهل الاندلس يطلبون منه العود اليهم ويحضونه

على الاعتناء بأمور الجهاد ، ويشكون اليه ضعف أهل الاندلس عن مقاومة العدو ، وأنها شاغرة ممن تجتمع عليه القلوب ، وقد كانوا راودوه ، وهو مقيم عندهم ، على أن يبايعوه ويملكوه عليهم والتزموا له الطاعة والنصرة فرغب عن ذلك ورعا وزهدا وعزوفا عن الدنيا وزهراتها ، قال الفرتني رحمه الله : وقد وقفت على رسائل عديدة بعث بها اليه علماء غرناطة يحضونه على الجواز اليهم واستنفار المجاهدين الى حماية بيضهم ويذكرون له ان كافة أهل غرناطة من علمائها وصلحائها ورؤسائها قد وظفوا على أنفسهم من خالص أموالهم دون توظيف سلطان عليهم أموالا كثيرة برسم الغزاة الذين يردون معه من المغرب ، وحلوه في بعض تلك الرسائل بما نصه : «الى الهمام الضرغام قطب دائرة فرسان الاسلام الشجاع المقدام ، الهصور الفاتك ، الوقور الناسك ، طليعة جيش الجهاد ، وعين أعيان الانجاد ، المؤيد بالفتح في هذه البلاد ، المسارع الى مرضات رب العباد ، مولانا أبي الحسن على الشريف » اه نص التحلية . وكتبوا مع ذلك الى علماء فاس يلتمسون منهم ان يحضوا المولى عليا على العبور الى العدوة فكتب اليه أعلام فاس بمثل ذلك وحضوه على المسارعة الى اغاثتهم ، وذكروا له فضل الجهاد وانه من أفضل اعمال البر ، وكان من موجبات تخلفه عن اغاثة أهل غرناطة انه كان قد عزم على الذهاب الى الحج فقالوا له في بعض تلك الرسائل : وعوضوا هذه الوجهة الحجية التي أجمع رأيكم عليها ، وتوفر عزمكم لديها بالعود الى الجهاد فان الجهاد ، أصلحكم الله في حق أهل المغرب ، أفضل من الحج كما أفتى به الامام ابن رشد رحمه الله حين سئل عن ذلك ، وقد بسط الكلام عنه في أجوبته ووجه ما ذهب اليه من ذلك اه . وكان ممن كتب اليه من علماء غرناطة جماعة منهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن سراج شيخ المواق وقاضي الجماعة بها . ومن شيوخ فاس الذين كتبوا اليه الفقيه أبو عبد الله القوري شيخ شيوخ الامام ابن غازي ، وأبو العباس أحمد بن محمد بن ماواس ، وابو زيد عبد الرحمن الرقعي صاحب الرجز المشهور وغيرهم .

ومما ضمنه أهل الاندلس في رسائلهم القصيدة الآتية في مدح المولى علي وصاحبه الفاضل أبي عبد الله محمد بن ابراهيم العمري وحثهما على اجابتهم وهي من انشاء الفقيه أبي فارس بن الربيع الغرناطي يقول فيها :

أياراكبا يطوي المفاوز والقفرا رشدت ولقيت السلامة والخيرا
ترحل وجد السير يوما وليلة وسافر تجدها في مطالعها زهرا
تحمل رعاك الله مني الى الحما تحية مشتاق تهيجه الذكرا
وأم ديار الحي من سجلماسة فتلك ديار تجمع العز والفخرا
وسلم على تلك الديار وأهلها سلام محب لم يطق عنهم صبرا
فعندي لهم حب جرى في مفاصلي ومازج مني العظم والدم والشعرا
فتلك بقاع الدين والخير والهدى فكم من تقي في سماها سما بدرا
هم القوم لا يشقى بهم جلساؤهم يضوع عبير الزهر من بينهم نشرا
وقل يأهيل القبلة السادة الاولى اذا مادعوا في حادث أسرعوا النفرا
وخص سليل الهاشمي ابن صهره علي الذي يعلو على زحل قدرا
أبا الحسن المولى الشريف الذي به على الغرب شمس النصر طبقت الصحرا
ولاحت بآفاق القلوب عجائب بها سلب الالباب تحسبها سحرا
هو الصقر مهما اهتز كل مجلجل هزبر اذا ما اشتب الناب والظفرا
هو الغوث ان دارت رحى الحرب للقا وغيث اذا ما المزن ما أرسلت قطرا
أغار على الاعلاج فاجتاح جمعهم وجد لهم قتلا وشددهم أسرا
بطنجة قد طاب الممات لزمرة بنصرتها ترجو من الملك الاجرا
دعاها باقصى السوس قوم فأسرجوا من الصافنات الجرد لم يأخذوا الحذرا
فهبت ركاب القوم والشمس أشرقت وأرهق جيش الله أعداءه خسرا
ولا عجب ان الالى هو منهم ليوث الشرى قد أوسعوا مرحا شرا
أجر جارك اللهفان من غمراته أبا حسن وانصر جزيرتك الخضرا
وناد أبا عبد الاله خليلكم به تجلب السراء في حادث الضرا
سليل أبي اسحق أكرم به أبا لقد خلف الفرع الزكي الرضى البرا
أليس الذي لبى نداء أهل طنجة وجمع أهل الغرب من حينه طرا

وأوقـــع بالكفـــار أي وقيعـــة ... فمن لم يمت بالسيف مات له ذعرا
وأصبح ثغر الدين أشنب باسمـــا ... وأرهق وجه الكفر من حزن قترا
ونال مـــن الله السعادة والرضـى ... وجنات عدن في المعاد لـه ذخـرا
وقل أيها العدل الذى اتخذ التقى ... شعارا وسامى فـتى منازلها الشعرا
أرى كل ما فى الغرب أصبح قانطا ... لاندلس يرجـــو بطلعتكم نصرا
وغرناطة الغـراء نادتكما اهـــلا ... وبالراية البيضاء كى تنصر الحمرا
فساكنها وقـف عليكـــم رجاؤه ... كبيرهم والطفل والكاعب العـذرا
فجئنا بمن فى أرضكم حاميا لهـــم ... رجـــالا وفرسانا عطارفة غـــرا
حماة أباة الضيم من كـــل ماجد ... كريم يبارى الغيث والسيل والبحرا
فدونكما الكفــــار تبغى طغاتهـــا ... وتشبع من قتلاهم الوحش والقبرا
لقد طمع الكفار ملـــك رقابنـــا ... واهلاكهم فى ارضنا الحرث والثمرا
منازلنا مـــن كل حصن وقريـــة ... تناديكما غوثـــا لخطب أتى أمـــرا
فكم من ضعيف لا حراك بجسمه ... وشيخ بها أربى على مائـــة عشرا
وبيض وسمر من اوانس كالدمـــى ... وصبية مهد لا تـع النفـع والضرا
ومنبر جمـــع للخطابة والدعـــا ... ومسجد ديـــن للصـــلاة وللاقرا
وكـرسى علـــم مقعـــد لمهذب ... تصدر يملى ما يضىء لنـــا الصدرا
وأجداث أبنـــاء الصحابة فوقهـــا ... وكـــل ولى أشعث لابس طمـــرا
تناديكما غوثا مـــن الله سرعـــة ... فقد كاد أن يستأصل الكفر ذا الثرا
فحثوا لنـــا بالسير بعدا وقربـــة ... أجيراننا من كيد من أضمر الجوزا
وعزما بأخرى مثل تلك التى مضت ... ليبصر هذا القنش مثلكم كســـرا
وانتم بحمد الله تدرون مـــا أتى ... عن المصطفى فى الغزو من خبر خبرا
فلله مـــا أسنى وددت لو أننـــى ... قتلت فأحيى ثـم اقتل مذ مـــرا
وما فى كتـــاب الله من آيـــة أتت ... كشمس الضحى فى الصحو سافرة غرا
خذاها بحمد الله عـــذرا جبينهـــا ... يضوع شذى تهدى لمغناكما عطـــرا
وتبلـــغ عنـــى للكـرام تحيـــة ... من أندلس للغرب قدعبروا البحرا
فعونـــا رجال الله عونـــا لعدوة ... أحاطت بها البأساء واشتدت الضرا

فأنتم لنـــا الجند القـوى ونحوكم تشوفنا فاستعجلوا نحونـــا السيرا
ونثنى على خير البرية ذى الهدى محمد المبعـــوث بالملـــة اليسرا
وآل وصحب ثـــم تال لنهجهـــم ومن لذوى الاسلام قد قصد النصرا

وبهذه الرسائل العذبة الالفاظ المستوفقة الالحاظ يعـلم أن المولى علياً الشريف رحمه الله كان مشهوراً في عصره ، متقدما على كافة أهل مصره، وانه كان ملحوظا بالاجلال عندهم والاكبار ، وان هذه الدار العالية البنـــاء والاسوار معظمة من لدن قديم ، مشهود لها بالخير والتقديم ، وأظـــن أن وقعة طنجة المشار اليها فـي هذه القصيدة هي وقعة سنة احـــدى وأربعين وثمانمائة ، وقد تقدمت الاشارة اليها في محلها .

وقد كان للمولى علي المذكور جهاد في ناحية آكدج من بلاد السودان ورزق الظفر والفتح كما ذكره مبسوطا في «النزهة» فلينظر هناك .

وذكر صاحب كتاب الانوار النبيـــة ان المولى عليا مكث أربع عشرة سنة لا يولد له ثم ولد له بعد ذلك ولدان : أحدهما المولى محمد بفتـــح الميم ، والثانى أبو المحاسن يوسف وهو أصغرهما ، أما المولى محمد فخلـف أربعة أولاد وهم : السيد الحسن والسيد عبد الله والسيد علي والسيد قاسم وهم على هذا الترتيب في السن ، ويقال لسائرهم : أولاد محمد نسبـة الى هذا الجد وفروعهم كثيرة يطول تتبعهـــا . وأما المولى يوسف فانـــه ولى زاوية أبيه وأجمع الناس على انه المتأهل لها دون غيره لرزانته ووفور عقله فتولاها بعد نزاع ورسم توليته لها لم يزل موجودا عند بعض حفدتـــه . وكان ذلك كله في دولة بني مرين .

وقال صاحب كتاب الانوار : وقد قيل انه لم يكن له ولد حتى بلـــغ ثمانين سنة فولد له تسعة من الولد خمسة منهم اشقاء ، وامهم حليمة مـــن ذرية بعض المرابطين بسجلماسة ، وهم السيد علي وهو جد الملوك أبقـــى اللهفضلهم ، والسيد أحمد ، والسيد عبد الواحد ، والسيد الطيب ، والسيـد عبد الواحد المكنى : بأبي الغيث جد الاشراف البلغيثيين ، وانما كنى بذلـك لكثرة ما نزل من الغيث عند ولادته ، وكان الناس قبله في جدب شديد .

وهم على هذا بالترتيب في السن . وأربعة أشقاء أمهم طاهرة من ذرية بعض المرابطين أيضا وهم : السيد الحسن بالتكبير والسيد الحسين بالتصغير والسيد عبد الرحمن والسيد محمد ، ومن منازل هؤلاء الاشقاء اليوم الموضع المعروف بأخنوس .

وتفصيل انساب هؤلاء الاولاد الثمانية يطول فنقتصر على ذكر المولى على الشريف لانه الغرض المقصود فنقول : ولد للمولى علي المذكور ثلاثة من الولد وهم : السيد محمد والسيد محرز والسيد هاشم جد الاشراف المراتيين أهل زاوية المراتي . وكلهم قد عقبوا فاما المولى محمد فولد له المولى على الشريف المراكشي وهو امثل مع عدة اولاد سواد ، والمولى على هو جد الملوك أيضا وتوفي بمراكش وبنى عليه حافده أمير المؤمنين المولى الرشيد قبة بديعة تلقاء ضريح القاضي عياض رحمه الله . وولد للمولى على الشريف المذكور تسعة من الولد المولى الشريف اسما وكانت ولادته سنة سبع وتسعين وتسعمائة وهو جد الملوك . والمولى الحفيد ، والمولى حجاج والمولى محرز والمولى حرون والمولى فضيل والمولى أبو زكرياء والمولى مبارك والمولى سعيد ، فهؤلاء هم أولاد المولى على الشريف ، وكان المولى الشريف أفضلهم وأشرفهم وله رحمة الله عدة أولاد كلهم نجوم زاهرة ذوو همم باهرة ، منهم المولى محمد بفتح الميم وهو أكبرهم والمولى الرشيد والمولى اسمعيل ، وهؤلاء الثلاثة ولوا الامر بالمغرب على هذا الترتيب ومنهم المولى الحران وسيأتي ، والمولى محرز والمولى يوسف والمولى أحمد والمولى الكبير والمولى حمادة والمولى عباس والمولى سعيد والمولى هاشم والمولى علي والمولى مهدي وهو شقيق اسمعيل من بينهم . هذا ما تيسر ذكره من نسب هذه الدولة الشريفة ، ذات الظلال الوريفة ، وبالله التوفيق .

الخبر عن رياسة المولى الشريف بن علي وما دار بينه وبين أبي حسون السملالي المعروف بأبي دميعة

قد قدمنا أن ظهور أبي حسون السملالي كان في أيام السلطان زيدان ابن المنصور السعدي وانه استولى على القطر السوسي أولا ثم تناول درعه وسجلماسة ثانيا ، قالوا : وكان استيلاؤه على سجلماسة سنة احدى وأربعين وألف باستدعاء المولى الشريف بن علي له واستصراخه اياه على بني الزبير أهل حصن تابوعصامت أعدائه ، كذا في البستان ، فقدمها أبو حسون واستولى عليها وولى عليها عاملا من قبله ورجع الى مقره من أرض السوس .

وقال اليفرني في «النزهة» كان أبو الاملاك المولى الشريف بن علي وجيها عند أهل سجلماسة وسائر العرب يقصدونه في المهمات ويستشفعون به في الازمات ، ويهرعون اليه فيما جل وقل ، قال : وكان قد مر ذات يوم وهو صبي ، على الامام المولى أبي محمد عبد الله بن علي بن طاهر الحسني فسأل عنه اذ لم يكن يعرفه قبل ذلك ، فقيل له : هو ابن المولى علي الشريف ففرح به أبو محمد ومسح على ظهره وقال : ماذا يخرج من هذا الظهر من الملوك والسلاطين ، فعلم الناس أن ذلك كائن لا محالة لما يعلمون من صحة كشف أبي محمد وصدق فراسته ، فكان المولى الشريف بعد أن كبر وولد له الاولاد يشيع أن هذا الامر لابد أن يصير الى بنيه ويكون لهم شأن عظيم اعتمادا على فراسة أبي محمد بن طاهر رحمه الله .

ثم كان بين المولى الشريف المذكور وبين أهل تابوعصامت ، وهي حصن منيع من حصون سجلماسة ، عداوة تامة ، فاستصرخ عليهم أبا حسون السملالي صاحب السوس لصداقة كانت بينهما ، واستصرخ أهل تابوعصامت أهل زاوية الدلاء ، فأغاث كل منهما من استصرخه ، والتقى العسكران معا بسجلماسة لكنهما انفصلا على غير قتال حقنا لدماء المسلمين ، وكان ذلك سنة

ثلاث وأربعين وألف ، ولما رأى أهل تابوعصامت ما بين المولى الشريف وأبى حسون من الصداقة والوصلة مالوا بكليتهم الى أبى حسون وخدموه بأنفسهم وأولادهم وأظهروا له النصح وصدق المحبة طمعا فى استفساده على المولى الشريف اذ كان ظاهرا عليهم به ، فلم يزالوا يسعون فى ذلك الى أن أظلم الجو بينهما واستحكمت العداوة وتوفرت دواعيها ، ولما رأى ابنه المولى محمد بن الشريف ذلك اهتبل الغرة فى أهل تابوعصامت ، وخرج ليلا فى نحو مائتين من الخيل مظهرا أنه قاصد لبعض النواحي ثم كبسهم على حين غفلة وتسور عليهم حصنهم فما راع أهل تابوعصامت الا المولى محمد فى جماعة قد وضعوا السيف فيهم وحكموه فى رقابهم ، فلم يكن عندهم دفاع ، واستمكن منهم واستولى على ذخائرهم ، وشفى صدر أبيه مما كان يجده عليهم . ولما انتهى الخبر بذلك الى أبى حسون حمى أنفه واشتد غضبه ، وكتب الى عامله بسجلماسة ، واسمه أبو بكر ، يأمره أن يحتال على المولى الشريف حتى يقبض عليه ويبعث اليه به جيئا ، فامتثل أمره وتقبض على المولى الشريف غدرا بأن تمارض ثم استدعاه لعيادته والتبرك به ، ثم قبض عليه وبعث به الى السوس فاعتقله أبو حسون فى قلعة هنالك مدة الى أن افتكه ولده المولى محمد بمال جزيل ، وعاد المولى الشريف الى سجلماسة فى خبر طويل وكان ذلك كله فى حدود سنة سبع وأربعين وألف .

قال فى البستان : وأعطى أبو حسون المولى الشريف وهو معتقل عنده جارية مولدة من سبى المغافرة كانت تخدمه قال : «وهى أم المولى اسمعيل وأخيه المولى مهدى» اه

ولست أدري ما مراده بهذا ، فان كانت الجارية تسبية فى المغافرة فهى حرة فيكون المولى الشريف قد وطئها بعقد النكاح وهذا هو الذى يغلب على الظن بدليل أن السلطان الاعظم المولى اسمعيل رحمه الله لما عزم على جمع جيش الودايا قال لهم : «أنتم أخوالى» اشارة الى هذا الصهر كما سيأتى . وان كانت مملوكة لهم ثم صارت الى أبى حسون فالوطء حينئذ كان بملك اليمين . والله تعالى أعلم . وصاحب «البستان» كثيرا ما يجازف

في النقل ويتساهل فيه فلا ينبغي أن يعتمد على ما ينفرد به من ذلك وبالله التوفيق

الخبر عن امارة المولى محمد بن الشريف وبيعته بسجلماسة والسبب في ذلك

لما قبض أبو حسون على المولى الشريف وسجنه عنده كان ولده المولى محمد «بفتح الميم» مجمعا على اهلاك من بقى من أهل تابوعصامت واستئصال شأفتهم، وكان قد تقوى عضده بعض الشيء بما أخذ من أموالهم في الوقعة السالفة فاتخذ بعد تغريب أبيه الى السوس جيشا لا بأس به ، وانضم اليه جمع من أهل سجلماسة وأعمالها ، وذلك سنة خمس وأربعين وألف . وكان أصحاب أبي حسون قد أساءوا السيرة بسجلماسة ونصبوا حبالة الطمع في الناس حتى ملتهم القلوب وزرعوا بغض الملكة السوسية في قلوب الخاصة والعامة ، ومن عسفهم أنهم كانوا قد ضربوا الخراج بسجلماسة وأعمالها على كل شيء حتى على من يجدونه في الشمس زمن الشتاء ! وفي الظل زمن الصيف ! وضيقوا على الناس حتى ازدرتهم العيون وملتهم النفوس ، فلما قام المولى محمد واجتمع عليه من ذكرناه آنفا دعاهم الى الايقاع باهل السوس فأجابوه، ووجد فيهم داعية لذلك ، فاعصوصبوا عليه وصرفوا عزمهم الى محو دعوة أبي حسون من بلادهم ، فثاروا بعماله للحين وأخرجوهم عنها صاغرين بعد قتال شديد ، ثم أجمع رأيهم على بيعة المولى محمد فبايعوه سنة خمسين وألف في حياة أبيه ووافق على بيعته أهل الحل والعقد بسجلماسة فاستتب أمره واستحكمت بيعته ووافقه القدر، وساعده السعد وافتتح من ملك المغرب بابه ، واذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه .

استيلاء المولى محمد بن الشريف على درعة وطرده ابا حسون السملالي عنها

لما تمت البيعة للمولى محمد بن الشريف وجمع الله سبحانه شمله بأبيه كما مر شمر لمضايقة أبي حسون السملالي وأهل السوس ببلاد درعة اذ كانت تحت ولايته كما قلنا فنهض اليه في جمع كثيف ، ووقعت بينهما حروب فظيعة يشيب لها الوليد ، ثم انقشع سحاب تلك الفتنة عن انتصار المولى محمد وانهزام أبي حسون وفراره الى مسقط رأسه من أرض السوس فاستولى المولى محمد على درعة وأعمالها ، واتسعت ايالته وتوفرت جموعه وعظمت جبايته وطار في بلاد المغرب صيته وكان من أمره ما نذكره .

وقعة القاعة بين المولى محمد بن الشريف واهل زاوية الدلاء وما نشأ عنها

لما صفا للمولى محمد بن الشريف قطر سجلماسة ودرعة حدثته نفسه بالاستيلاء على المغرب اذ هو يومئذ مقر الرياسة ومثوا الخلافة فما دام لم يحصل عليه استيلاء فالملك عرضة للزوال ، وصاحبه ناسج على غير منوال وكان الرئيس أبو عبد الله محمد الحاج الدلائي يومئذ مستوليا على فاس ومكناسة وأعمالهما وامتدت ولايته بعد مهلك أبي عبد الله العياشي الى سلا وأعمالها ، فلما ظهر المولى محمد بالصحراء واستفحل أمره وقويت شوكته خاف محمد الحاج منه الوثوب على فاس فعاجله بالحرب وعبر اليه نهر ملوية وكان الدلائي أشد قوة من الشريف وأكثر جمعا ، فضايقه باقليم الصحراء وقصد سجلماسة مرارا ، وكانت بينهما أثناء ذلك وقعة القاعة ضحى يوم السبت الثاني عشر من ربيع النبوي سنة ست وخمسين وألف، فكانت الهزيمة

نوا على الشريف ، وتقدم الدلائي الى سجلماسة فافتحها ، واستولى عليها، وفعلت البربر فيها الافاعيل العظيمة .

ثم انبرم الصلح بينهما على أن ما حازت الصحراء الى جبل بني عياش فهو للمولى محمد ، وما دون ذلك الى ناحيـة الغرب فهو لاهل الـدلاء ، ثم استثنى أهل الـدلاء خمسة مواضع أخر كانت في ايالـة المولى محمد ضمانوها لهم وهي : الشيخ مغفر في أولاد عيسى ، والسيد الطيب في قصر السوق ، وأحمد بن علي في قصر بني عثمـان ، وقصر حليمـة في وطـن غريس ، وآ سرير في فركلة ، فهذه الاماكن الخمسة شرطوا على المولى محمد أن لا يحرك لهم منها ساكنا .

وانبرم الصلح على ذلك ورجع أهل الدلاء في جموعهم فما كان غـير بعيد حتى اطلع المولى محمد على ما أوجب الفتك بالشيخ مغفر وبعض مـن شرطوا عليه بقاءه ففتك بهم واصطلم نعمتهم ، فبلغ ذلك أهل الدلاء فجمعوا جموعهم ونهضوا الى سجلماسة عازمين على استئصال المولى محمد وشيعته ، وأن لا يدعوا له قليلا ولا كثيرا . وكتبوا اليه كتابا يتهددونه فيه . ورموه بالغدر ، وأنه ناكث ومقسم حانث ، وأغلظوا لـــه في الكـلام ، وأفحشـوا عليـه في الملام .

فأجابهم المولى محمد برسالة يقول فيها : «الى السيد محمد الملقب بالحاج ابن السيد محمد بن أبي بكر بن سيرى الوجادي الزموري ومن شمله رداء الديوان ، من الابناء والاخوان ، سلام على جلهم سلام استحباب وسنة ، فقد كتبتم الينا من سجلماسة ، كتب الله لنا من شركم أنفع التمائم ، وألبسها من الظفر بكم أرفع العمائـم ، وبعد السلام ، فـان نيران هذه الفتن التـي أضرمتموها بعد خمودها لسنا لها بأهل اذ لم يعرفكم أهل المغرب الا باطعام قصاع العصائد ، وهجو بعضكم لبعض بما لا يسمع من بشيع القصائد ، أمـا الملوك فقد أقررنا لكم فيها انصافا بالتسليم ، لو قصدتم بهـا العمل وأجـر التعليم ، وأيم الله لئن نظم فينا الديان ، يوما من الدهر شمـل الديوان ، لتعاينن أنت أو بنوك ما يجبه لنا البنون والاخوان ، ولقد حدث السادة أهل

البصيرة، أن ستدور عليكم من الدائرة المبيرة، أتطمعون في النجاة بعد ترويعكم الشرفاء والشريفات والعابدين والعابدات ؟ فتسروا ان شئتم عن ساعد الجد للصلح ، واغتنموا السلم ما دام بساعدكم وتن النجح ، فان الحرب نار ، والتخلف عنها بعد ايقادها شنار ، والله يعلم أن هذه المراودة ليست بجزع ولا وجل منكم ، وما تشبيهكم عند الهراش الا بما يطيش حول المصابيح من الفراش ، بل المراد الاكيد نشر رداء التبرى لئلا تجأرون عنى أنشب فيكم مخالب التجرى ، وما قذفتم به أعراضا من خسة القدر ، واننا قسة لانصغى لقبول العذر ، فأنتم تنهون عن الفحشاء ، وقد ملأتم منها الاحشاء ، وان زجرتم عنها قلتم : كلا وحاشا لكن من تنح نسلا نسب اليه ، ومن خاف من شيء يسلط عليه وأما ما احتوى عليه بساط القرب ما بين بربر وعرب فقد طمعنا من الله كونه في القبضة، عند ما تمكن اليه النهضة، ان لم أكه بالذات والديوان فبالابناء والاخوان ، كعوائد الدول ، يشيد الاخير منها ما أسسه الاول ، وانظر ما يكون لخاطركم به اطمئنان فساعدكم عليه الآن ، فلله دره من دغوغى أشاع عارك بابيات أنشدناها مولاى محمد بن مبارك :

واعلم بأنك من دجاجل مغرب	فعيسى صولــة نصره ستموت
أنتم عكاكز خلفتكم عاهـر	وأبو ينير جدكـم جالــوت
شبانكم مرد وكل كهولكـم	فرنان صنعة شيخكم دبوث
ضجرت لدولتكم سموات العلى	واستثقلتها الارض والبهمـوت

وما أنت في الحقيقة الا قرد من القرود ، والقراد اللاصق في كل كلب مجزود ، وما صرحتم به من الصلح بين الملوك مكيدة فقد سبقكم بها السلطان أبو حمو رحمه الله وحتى الآن رغبتم في الخير فهو مطلبي ومغناطيس طبي ، وان عشقتم الغير فجوابي لكم قول المتنبي

ولا كتب الا المشرفيــة والقنا   ولا رسل الا الخميس العرمرم

استيلاء المولى محمد بن الشريف على فاس ثم رجوعه عنها

كان محمد الحاج الدلائي مستوليا على فاس بعد سيدي محمد العياشي كما قلنا ، وكان أهل فاس يمرضون في طاعته تارة ويستقيمون أخرى ، فولى عليهم قائده أبا بكر التاملي وأنزله بدار الامارة من فاس الجديد ، فاتفق أن وقعت بينه وبين أهل فاس القديم حرب فحاصرهم وقطع عنهم الماء ، فكتب أهل فاس الى المولى محمد بن الشريف يستصرخونه ويضمنون لـه الطاعة والنصرة بما شاء من عدد وعدة متى قدم عليهم واحتل بين أظهرهم ، ووافقهم على ذلك عرب الغرب من الخلط وغيرهم ، فاغتنمها المولى محمد منهم وأقبل مسرعا حتى اقتحم دار الامارة بفاس الجديد منسلخ جمادى الثانية سنة ستين وألف ، وقبض على أبي بكر التاملي فسجنه وبايعه أهل البلدين فاس القديم وفاس الجديد معا ، واتفقوا على نصرته والقيام بأمره ، وكتبت له البيعة بفاس سابع رجب فأقام عندهم نحو أربعين يوما .

واتصل الخبر بمحمد الحاج فجهز اليه جيشا كثيفا فبرز اليهم المولى محمد وداقعهم يوما أو بعض يوم فضعف عنهم وانهزم بظهر الرمكة خارج فاس يوم الثلاثاء عاشر شعبان سنة ستين وألف ، فاسلم فاسا وانكفأ راجعا الى سجلماسة ، ودخل أهل فاس الذين كانوا معه مدينتهم فأغلقوها عليهـم .

وحاصرهم التاملي وأصحابه وقطع عنهم الماء وجرت خطوب هلك فيها جماعة من أعيان فاس ، منهم عبد الكريم اللابريني الاندلسي ، ومحمد بن سليمان وغيرهما ، وكان ذلك أواخر صفر سنة احدى وستين وألف . ثم راجعوا طاعة أهل الدلاء فولى عليهم محمد الحاج ولده أحمد ، ولما استقر بفاس طالب أهلها باخراج الجناة ورؤوس الفتنة من ضريح المولى ادريس رضي الله عنه ، فتعصب لهم الشريف أبو الحسن علي بن ادريس الجوطي وقام دونهم ثم عجز واختفى ، حتى اخرج بالامان الى زاويـة أهل الدلاء

ومنها خرج عن فاس بالكلية ، وسكنت الفتنة . وكان ذلك في رمضان سنة احدى وستين والف .

واستمر احمد الدلائي أميرا على فاس الى ان توفي في عشرين من ربيع الاول سنة اربع وستين والف ، وخلفه أخوه محمد ومات سنة سبعين وألف . رحم الله الجميع ثم وثب على فاس الجديد أبو عبد الله الدريدي فاستولى عليه .

استيلاء المولى محمد الشريف على وجدة وشنه الغارات على تلمسان وأعمالها وما نشأ عن ذلك

لما أيس المولى محمد بن الشريف من فاس والمغرب صرف عزمه لتمهيد عمائر الصحراء وبلاد الشرق ، فسار يتقرى الحلل والمداشر والقرى الى أن بلغ بسيط آنكاد ، فبايعته الاحلاف وهم العمارنة والمنبات من عرب معقل ، وبايعته سقونة منهم أيضا ، فسار بهم الى بني يزناسن ، وكانوا يومئذ في ولاية الترك فأغار عليهم وانتهب أموالهم وامتلأت أيدي العرب من مواشيهم ، ثم انثنى الى وجدة وكان أهلها يومئذ حزبين بعضهم قائم بدعوة الترك ، وبعضهم خارج عنها ، فانحاز الخارجون الى المولى محمد فأغزاهم بشيعة الترك فانتهبوهم وشردوهم عن البلد ، وصفت وجدة له فاستولى عليها ، وكان ذلك أعوام الستين وألف . ثم دلته العرب على أولاد زكري واولاد علي وبني سنوس المجاورين لهم فشن عليهم الغارات وانتهبهم فدخلوا في طاعته ، ثم سار الى ناحية ندرومة فشن الغارة على مضغرة وقديمة وطرارة وولهاصة ورجع الى وجدة فأقام بها مدة ثم توجه الى تلمسان فأغار على سرحها وسرح القرى المجاورة لها واكتسح بسائطها ، فبرز اليه أهلها ومعهم عسكر الترك الذي كان بالقصبة فأوقع بهم وقتل منهم عددا كبيرا ،

ورجع عوده على بدئه الى وجدة فشتى بها .

ولما انصرم فصل الشتاء خرج على طريق الصحراء فأغار على الجعاقرة وانتهب أموالهم ، وقدم عليه هنالك محمود شيخ حميان من بني يزيد بن زغبة ، وهم اليوم في عداد بني عامر بن زغبة ، فقدم عليه محمود المذكور في قبيله مبايعا له ومتمسكا بطاعته ، وقدمت عليه أيضا دخيسة ففرح بهم وأكرمهم ودلوه على الأعواط وعين ماضي والغاسول فنهب تلك القرى واستولى على أموالها ، وفرت أمامه عرب الحارث وسويد وحصين من بني مالك بن زغبة فنزلوا بجبل راشد متحصنين به ، فرجع عنهم .

واضطربت احوال المغرب الاوسط واشرأبت رعاياه الى الانتقاض على الترك ، واخذ باي معسكر يخندق على نفسه ، وبعث الى صاحب الجزائر المسمى عندهم : بالدولة يخبره بما لحق الرعايا من عيث صاحب سجلماسة فاخرج صاحب الجزائر عساكره وهيأ مدافعه واستعد لحرب المولى محمد وقدم نائبه بالعساكر الى تلمسان ، فلما سمع به المولى محمد انشمر راجعا الى وجدة ، وفرق العرب الذين كانوا مجتمعين عليه ، ووعدهم لفصل الربيع القابل .

ثم قفل الى سجلماسة بعد ما شب نيران الحرب في الايالة التركية ونسفها نسفا وضرب أولها بآخرها .

ولما وصل عسكر الترك الى تلمسان واخبروا برجوع المولى محمد الى تافيلالت سقط في أيديهم ؛ ووجدوا البلاد خالية وكل الرعايا قد اجفلت عن أوطانها ، وتحصنوا بالجبال ، ولم يأتهم احد بمؤنة ولا خراج ، وانحرف عنهم أهل تلمسان أيضا ، وكانوا قد ركنوا الى المولى محمد وخاطبوه ، فرأى الترك أنهم قد شوركوا في بلادهم وزوحموا في سلطانهم ، فرجعوا الى الجزائر . وكان من امرهم ما نذكره الآن .

■

٢٣

مراسلة عثمان باشا صاحب الجزائر للمولى محمد بن الشريف وما دار بينهما في ذلك

لما رجع عسكر الترك الى الجزائر وأخبروا صاحبها عثمان باشا الدولة بحال الرعايا وما نالها من صاحب سجلماسة جمع أهل ديوانه وأرباب مشورته وتفاوضوا في أمر المولى محمد وكيف التخلص من سطوته ، فلم يروا أجدى لهم من أن يبعثوا اليه برسالة مع اثنين من أعيان الجزائر وعلمائها ، واثنين من كبار الترك ورؤسائها ، لانهم كانوا لا يتمكنون من حربه ، لو أرادوا ذلك ، لانه يغير ويظفر وينهب ثم يصحر فلا يمكنهم التعلق بأذياله ، ولا قطع فراسخه وأمياله ، فبعثوا اليه برسالة من املاء الكاتب أبي الصون المحجوب الحصري مع الوفد المشار اليه يقول فيها:

« الحمد لله الذي وصى ولا رخص في مدافعة اللص والصائل شرعا أو مشروطا ، ونص ، وهو الصادق سبحانه ، على قصم عرى أهله المائل مجهولا أو معروف ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، وعلى آله تيجان السنن وبراقع المجد والخواتم ، وصحابته صوارم الصولة الحاسمة من الكفر الغلى والغلاصم ، بالرماح العاملة والسيوف القواصم ، ولا زائد بعد حمد الله الا مقصد خطاب الشريف الجليل القدر ، الصادق اللهجة والصدر ، من رزق الله به فنوق وطنه ، وحمي به من أحزاب الاباطيل أنجاد أرضه وأغوار عطنه ، حافد مولانا علي وسيدتنا البتول ، وولد مولانا الشريف بن مولانا علي السيد الصوفي سلام عليكم ما رصعت الجفان سموت البحور ولمع الجواهر الحسان على بياض النحور ، ورحمة الله تعالى وبركاته ما أسلفت محض الخلال ذكاه وبعد فقد كاتبناكم من مغنى تنبيه المقيم والظاعن والزائر ، رباط الجهاد مدينة ثغر الجزائر ، صان الله من البر والبحر عرضها ، وأمن من زعازع

المواصف والقواصف أرضها ، الماءلكم معادن الرياسة ، وفرسان الثقافة والعياقة والفراسة ، فضلا عن سماء صحت من الغيم والقتام جوه ، وضحا شرب عليه الوديقة وشيبا فتنا صوده ، بأن شؤون المملكة لم يسوان عن مكنون علمكم أمرها ، ولا أعور عزائمكم زيدها وعمرها ، وذلك ان الوهاب سبحانه منحكم هيبة وهمة في الجود والحلم والحماسة ، واختار لكم عنوان عنايتها في غاب الصون سجلماسة ، لكن فاتكم سر رأى التدبير ، واركبتم حزمكم جموع الجهل والتبذير ، مع أن ذلك في الحقيقة دأب كل مؤسس لدولة ، لا يجمعها الا بجانبان الجولة والصولة ، فخرقت على الايالة العثمانية جلباب صونها الجديد ، من وجدة الانجسق الى حدود الجريد ، فتوشت علينا اخلاق اخلاط الاعراب ، الى أن تعوقوا علينا في أرفسق الآراب ، وشنت الغارة الشعواء على بني يعقوب ، فحسمت رسمهم على العقيب والمرقوب ، وغادرت جماهرهم تسعى على عيالهم الزبابي والموزونة في أسواق مستغانم وديار مازونه ، وجررت ذيل الذلة على اطراف العاسول والاغواط ، فالتقطتهم بطائلت الالقاط ساع القلير الوطواط ، وفدك الجاعل الجهم محمود حميان ، لعين ماضي والصوائم وبني يلغبان ، فراحت رياح وسويد ينفض كل بطل منهم غباره وطينه ، على طود رائد ، وبيد قسطنينه، ولا كادنا الا ما هتكتم من ستر اسر على عرس أبي الربيع اسيد سليمان مع أنكم اولى من يراعي حرمته وتوقيره ، ويدافع عنه وعمن سواه ويرفد فقيره، وتنسبون العجم للجهل وأنهم جفاة وأجلاف،ثم صرتم بدلا والاخلاف خرج جيش قصبتنا بتلمسان ، بما لديهم من الرماة والفرسان ، فهزمتموهم بقرار ، وقتلتموهم قتل مذلة واحتقار ، فقلنا هذا أقل جزاء كل كلب حقير، عقور ، عرض عرضه لصولة الاسد الهصور ، ولاوافت الآفة في دالقالب الا الحضر ، مع شيع في الاجنة تجني الجني والخضر ، كان اولاد طلحة وهداج وخراج ، يؤدون لهذه النابة ما ثقل وخف من الخراج ، ولا يفوتنا من ملازمها وبر ولا شعر ولا صوف ، ولا سقب ولا جدي ولا خروف ، الى ان طلعت علينا غرة شمسك السعيدة ، فعادت كل شيعة قريبة عنا بعيدة ،

وأعانك افتراق الجفاة من أهل وجدة ، وان نصيبك الاوفر منهم أهل جدة ونجدة ، ولولاك ما ثار علينا أهل تلمسان ، وانكروا ما لنا عليهم من قديم المنة والاحسان ، وردوا عليك الساحة والبساط ، ومرعوبهم أن تزفر علينا بسطوة الثعبان والنشاط ، مع علمنا اليقيني ان شجرتنا لا تعصفها زعازع جبان ، ولا تندرس ولو انهارت عليها جبال جبان وأن الحجر لا ينسدق بالعلوب ، والخاطف لا يطأ أوطية الخطوب ، كذلك في الثل جمدت حلال الصدر والورود ، لا يضيرون لصواعق البارود ، ولا تنجح حجة الدروع والدوابل ، الا في سوق شن الغارات على حلل القبائل ، وأما أسوار الجحافل وأدوار الكتائب ، فلا يصدمها فيهدمها الا سيوف الخيول والرماة الرواتب ، وزنت صولتك لبني عامر ، لنداوة الغار لكنف الكافر ، وداخل الوسواس والسوس ، جبال طرارة ومطغرة وبني سنوس ، والرعايا تسود أن يحتفل لبنها في ضروعها ، لتختزن في ابن الخداع منتظر زروعها ، وان قلت منهم الاقوال والافعال ، تعلق اطماعها على الدولة فتميز كالاعوال ، واياك اياك والغرور لما عثرت عليه في كتاب البوني واوراق السيوطي وعلى بادى وابن الحاج ، ورسالة أهل سبتة لعبد الحق بن ابي سعيد المريني بالمخصوص بصعود تلك الادراج ، ذلك منك بعيد الوصول لا تدركه بالطمرة ولا بقائم النصول ، وان اوتاد الروم والترك تنقرض من ارض الغرب ، ولا يبقى من ينازعكم فيها بحرب ولا ضرب ، ليس لك في غنيمة ادراكه طمع ، ولا سبيل لتبديد ما نظمه حازمنا وجمع ، وقد عرتك أضغاث الاحلام ، واغواك ضباب الغيب فأصبح شك منه في غياهب الاظلام ، فان حرمت به فانت لا شك حانث ، وان كان منكم يقينا فرابع او ثالث ، اولكم كاسر ، والثاني مقتفى له سائر ، والثالث لكما أمير بائر ، اما عادل أو جائر ، ولا تمدن باع المخاطرة الى اوطاننا فتخشى مخالب سطوة سلطاننا ، اما الشجاعة الغريزة فقد علمنا أن لك منها بالمهيمن اوفر نصيب ، وممن ضرب فيه بثاني العرض بسهم مصيب ، لكن غاية كفاية الشجاع اذا حمى الوطيس المفاع ، سيما في هذا الحين التي ابخستها عند الخلاص ، صاعقة البارود والرصاص ،

وجسرك علينا كونك عقابا على فرع شجر ، او يعسوب نحل احتل صدع حجر ، لو رأيت ملوك آحاد امصار البر والبحر ، لعلمت انك محجوب ومحجور ، في حق ذلك الحجر ، وتحققت ان بين الامراء مداراة ومراعاة ، وأن أحوال الدول أيام وساعات ، كل أحد يخاف على صدع فخساره ، ويطلق بخوره نحن نتن بخساره ، وما مرادنا الا أمان العرب في المواضع ، ليطيب لها حولان الانتقال في المشتاة والمرابع ، ويجلب اليهم الغني والمديم ، ما يحصل له فيه ربح من الكساء والحناء والادم ، فان تعلقت همك بالامارة فعليك بالمدن التي حجرها عليك هميج البرابر فصار يدعى لها بها على المنابر ، فشد لها حيازيمك لتذوق حلاوة المنات ، المعجونة بمرهم النجاة أو الهلاك ، دع عنك وطن الرمال والعجاج ، ومخاطرة النفس في الفدافد والفجاج ، فشدنا لك جدك من الاب والام ، وماسلك فيه من الخ وخال وعم ، الا ما نجبت ساحات تلمسان ، ولا زاحمتها بجموع رماة ولا فرسان ، وان اشتهت الاعراب غارات بعضها على بعض ، فموعدها ما نأى عنا من مطلق الارض ، وخمسنا أبدا على الغالب ، لتعلموا أن رأيهم عن معاني الصواب غائب ، اذ كلهم ذوو جفاء ونفار ، ويعمهم عند الدول ما يعم الكفار ، ليبقى بيننا وبينكم الستر المؤبد على الدوام ، ونلغى كلام الوشاة من الاقوام ، وقد شيعنا نحوكم أربعة صحاب ، تسر بمجالستهم الخواطر والرحاب ، : الفقيه الوجيه السيد عبد الله التفزي ، والفقيه الابر السيد الحاج محمد بن علي الحضري المزغنائي ، واثنين من أركان ديواننا ، وقواعد ايواننا ، أتراك سوط وغاية غرضنا جميل الجواب ، بما هو أصفى وأصدق خطاب ، والله تعالى يوفقنا لاحمد طريق ، ويحشرنا مع جدك في خير فريق ، آمين والسلام ، وكتب في منتصف رجب الفرد الحرام عام أربعة وستين وألف ، اه

ولما وصلت الرسل الى المولى محمد وقرأ الكتاب اغتاظ مما تضمنه من العتاب ، فأحضر الرسل وعاتبهم على قول مرسلهم وتحامله عليه فقالوا له : نحن أتيناك سفراء برسالة باشا الجزائر فاكتب لنا الجواب ،

ولا تقابلنا بعتاب » فقال : «صدقتم» فكتب اليهم بكتاب يقول فى أوله (وبعد) « فقد كنناه البكم من غرة جبين الصحارى ، وصرة أمصار المغارب والبرارى ، مغنى سجلماسة التى هى قاعدة العرب والبربر المسماء فى القديم كنز البركة ، حالتى السكون والحركة» ومضى فى كتابه الى أن ختمه ولم يجبهم الى ما أرادوا .

ولما رجعوا برسالته الى صاحب الجزائر قرأها بمحضر أرباب الديوان ثم ردهم فى الحين دون كتاب ، ولما قدموا على المولى محمد ثانية قالوا له : انه لم يكن لنا علم بما فى الكتاب ولو اكتفينا به ما رجعنا اليك ، نحن جئناك لنعمل معنا شريعة جدك وتقف عند حدك ، فما كان جدك يحارب المسلمين ولا يأمر بنهب المستضعفين ، فان كان غرضك فى الجهاد ، فرابط على الكفار الذين هم معك فى وسط البلاد ، وان كان غرضك فى الاستيلاء على دولة آل عثمان ، فابرز اليها واستعن بالرحيم الرحمن ، فلا يكن عليك فى ذلك ملام» فهذا ما جئنا له والسلام» وأما ايقاد نار الفتنة بين العباد» فليس من شيم أهل البيت الامجاد ، ولا يخفى عليك أن ما تفعله حرام لا يجوز فى مذهب من مذاهب المسلمين ولا قانون من قوانين الاعجام ، وهذان فقيهان من علماء الجزائر قد جاءا اليك حتى يسمعا منك ما تقوله ، ويحكم الله بيننا وبينك ورسوله ، فقد تعطلت تجارتنا ، وأجفلت عن وطننا رعيتنا ، فما جوابك عند الله فى هذا الذى تفعله فى بلادنا ، وأنت ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه لم يحجزنا أن نفعله نحن فى بلادكم ورعيتكم ، على أننا محمولون على الظلم والجور عندكم ، لكن تأبى ذلك همة سلطاننا .»

فلما سمع المولى محمد كلامهم أثر فيه وعظهم وداخلته القشعريرة وعلاه سلطان الحق فأذعن له وقال : « والله ما أوقعنا فى هذا المحذور الا شياطين العرب انتصروا بنا على أعدائهم وأوقعونا فى معصية الله وأبلغناهم غرضهم فلا حول ولا قوة الا بالله ، وانى أعاهد الله تعالى لا أعرض بعد هذا اليوم لبلادكم ولا لرعيتكم بسوء ، وانى أعطيكم ذمة الله وذمة رسوله لا قطعت وادى تافنا الى ناحيتكم الا فيما يرضى الله ورسوله » وكتب لهم

بذلك عهدا الى صاحب الجزائر وقنع بما فتح الله عليه من سجلماسة ودرعة وأعمالهما ، ولم يعد يغزو الشرق ولا توجه اليه بعد ذلك الى أن خرج عليه أخوه المولى الرشيد فكان من أمره معه ما نذكر بعد ان شاء الله .

ثورة المقدم ابي العباس الخضر غيلان الجرفطي ببلاد الهبط

كان أبو العباس الخضر غيلان الجرفطي من أصحاب أبي عبد الله العياشي ، وكان مقدما على الغزاة ببلاد الهبط ، ولما قتل العياشي في التاريخ المتقدم استقل هو برياسة تلك الجهة ، واستمرت حاله الى ثلاث وستين وألف فثار بالفحص وزحف الى قصر كتامة فبرز اليه أهله فاقتتلوا مليا ثم انهزموا ، واتبعهم الخضر فاقتحم القصر عنوة وقتل جماعة وافرة من أعيانه وفر الكثير منهم الى فاس ، منهم : أولاد الفقيه أبي عبد الله القنطري من أعيان القصر ، وبقي الخضر متغلبا على تلك الناحية .

وفي ذي الحجة سنة تسع وستين وألف خرج من فاس المرابط الرئيس أبو سلهام بن كدار ، واتصل بالخضر غيلان وصار في حمايته ، وكان أبو سلهام المذكور ممن ظاهر الدلائيين على سيدي محمد العياشي فبقي ذلك في قلب الخضر غيلان حتى قبض على أبي سلهام المذكور واعتقله بأصيلا ثم سرحه بعد حين . قاله في « نشر المثاني » .

٢٨

وفاة المولى الشريف بن علي رحمه الله

كان المولى الشريف بن علي بسجلماسة وأعمالها على ما وصفناه قبل من الوجاهة والرئاسة والسيادة ، ممتثل الامر ، متبوع العقب منذ نشأ ، ثم بايعه أهل سجلماسة سنة احدى وأربعين وألف ، ونازعه بنو الزبير أصحاب تابوعصامت ، وبذلك استصرخ عليهم أبا حسون السملالي حتى ملك سجلماسة كما مر ، ولما تخلص من نكبة السوس وعاد الى سجلماسة وجد ابنه المولى محمدا قد قام بالامر بعده فتخلى له عنه ، وقطع بقية عمره فيما يرضي الله تعالى الى أن أتاه اليقين ثالث عشر رمضان سنة تسع وستين وألف بسجلماسة مسقط رأسه ومقر عزه ومنبت أشباله ، ومدرج ملوكه واقياله ، وجددت البيعة للمولى محمد ، ففارقه أخوه المولى الرشيد فخرج الى الجبال فبقي متنقلا في أحيائها الى أن كان من أمره ما نذكره .

اغارة المولى محمد بن الشريف على عرب الحياينة من اعمال فاس وما يتبع ذلك

لما كان آخر سنة ثلاث وسبعين وألف أغار المولى محمد بن الشريف على زرع الحياينة بأحواز فاس فانتسفه وأفسده ، ووقعت عقب ذلك مجاعة اعظيمة أكل الناس فيها الجيف والدواب والآدمي ، وخلت الدور وعطلت المساجد ، وخرج أهل فاس يستغيثون بأهل الدلاء ، وكان الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن علي بن طاهر الحسني قد قدم فاسا يقصد أن يبايعه أهلها فلم يجيبوه ، وقيل : بل نصره بعضهم ، وخرج الى عرب الحياينة فذهب بهم الى قتال المولى محمد بن الشريف فلم يلقه .

وفي أوائل سنة أربع وسبعين وألف حاز طاغية النجليز طنجة من يد البرتقال قال في «السلوان» : لضعفهم عن مقاومة المسلمين يومئذ بسبب أن المسلمين غزوهم في هذه الايام فقتلوا منهم ستمائة مقاتل ثم غزوهم فقتلوا منهم أربعمائة أخرى . » وقال منويل القشتيلي في كتابه الموضوع في أخبار المغرب الاقصى : « سبب ذلك أن طاغية البرتقال وهو اخوان السادس يقال بالخاء والجيم أراد تأكيد المحبة بينه وبين طاغية النجليز وهو كارلوس الثاني فزوجه أخته وجهزها اليه بمفاتيح طنجة فبقي بيده اثنين وعشرين سنة ثم تخلى عنها للمسلمين » اه

قيام المولى الرشيد بن الشريف على أخيه المولى محمد ومقتل الاخ المذكور رحمه الله

قد قدمنا ما كان من فرار المولى الرشيد عن أخيه المولى محمد يوم وفاة أبيهما رحمه الله فذهب المولى الرشيد يومئذ الى تدغة فأقام بها مدة ، ثم سار الى دمنات فأقام بها مدة أيضا ، ثم أتى زاوية أهل الدلاء فأقام عندهم ماشاء الله ، فيقال : ان بعض أهل الزاوية أشار عليه بالخروج منها خوفا عليه من الفتك به ، لان الدلائيين كانوا يزعمون ، فيما عندهم من العلم ، أن خلاء زاويتهم يكون على يده ، فقبل المولى الرشيد اشارته ، ثم خرج الى جبل أصرو فأقام به برهة من الدهر، ثم توجه الى فاس ، ومعه نفر قليل ، فبات بظاهر فاس الجديد ، فاكرم رئيسها أبو عبد الله الدريدي ضيافته ، ومن الغد ارتحل عنها الى تازا ثم الى عرب الاحلاف .

قال في « النزهة » : « الى أن أدته خاتمة المطاف الى قصبة اليهودي ابن مشعل . وكان لهذا اليهودي أموال طائلة وذخائر نفيسة ، وله على المسلمين صولة واستهانة بالدين وأهله ، فلم يزل المولى الرشيد يفكر في

كيفية اغتيال اليهودي المذكور الى أن أمكنه الله منه في حجر طوش . فقتله واستولى على أمواله وذخائره وفرقها فيمن تبعه وانضاف اليه من عرب آنكاد وغيرهم فقوى عضده وكثر جمعه » . اه

وقال صاحب « نشر المثاني » : ان المولى الرشيد لما رحل عن فاس قدم على الشيخ أبي عبد الله اللواتي بأحواز تازا ، وكان الشيخ المذكور ينتحل طريقة الفقر ويعظم أهل البيت فبالغ في اكرامه ، فبينما هو مقيم عنده اذ رأى ذات يوم رجلا ذا هيئة من مماليك وأتباع وخيل ، وهو يصطاد كهيئة الملوك، فسأل عنه فقيل له : هذا ابن مشعل من يهود تازا . فانصرف المولى الرشيد وجعل مدية في فمه وجاء الى الشيخ اللواتي ، فلما رآه الشيخ على تلك الحال أعظم ذلك ، وقال له : «ما! والرقبة لك ياسيدي فما الذي دهاك ؟» قال : «تأمر جماعة من عشيرتك يسيرون معي حتى أفتك بهذا اليهودي غيرة على الدين» فقال : « قد فعلت ، لا يتخلف عنك منهم أحد» فاختار المولى الرشيد منهم جماعة وواعدهم على تبييت اليهودي واقتحام داره عليه ، وكان اليهودي قد اتخذ دارا بالبيداء على نحو مرحلة من تازا في جهة الشرق ، فلما كانت ليلة الموعد تقدم المولى الرشيد الى دار ابن مشعل في صورة ضيف ، فأضافه ابن مشعل ، ولما انتصف الليل أحاط أصحابه بالدار وكبس المولى الرشيد اليهودي في بعض خلواته فقتله ، وأدخل الرجال فاستولى على دار ابن مشعل بعد الفتك بأصحابه وحراسه ، وعثر فيها على أموال كثيرة وذخائر نفيسة ، وقيل ، وهو الشائع عند بني يزناسن : أن ابن مشعل المذكور كان مقيما بين أظهرهم قد اتخذ حصنا ببعض جبالهم ، وهم محدقون به، فجاءهم المولى الرشيد ولم يزل يلاطفهم في شأن اليهودي حتى أثر كلامه فيهم ، ونما الى اليهودي بعض ذلك ، وأنهم مسلموه ، فنزل الى المولى الرشيد بهدية نفيسة يسترضيه بها ، فلم يكن بأسرع من ان قبض عليه وقتله ، وتقدم الى الدار فاستولى عليها ، واستخرج ما فيها من الاموال. فالله أعلم أي ذلك كان .

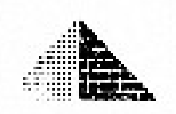
ثم ان المولى الرشيد دعا لنفسه اعراب الشرق وجمع كلمتهم ونـزل

وجدة واتصل ذلك كله بأخيه المولى محمد صاحب سجلماسة فخوف منه لما يعلم من صرامته وشهامته ، فنهض لقتاله والقبض عليه ، فلما التقى الجمعان بسيف آنكاد كانت اول رصاصة في نحر المولى محمد ، فكان فيها حتفه . وذلك يوم الجمعة التاسع من المحرم سنة خمس وسبعين وألف ، ودفن بدار ابن مشعل ، فأسف المولى الرشيد لقتله وأظهر الحزن عليه ، وتولى تجهيزه بنفسه فحمله الى بني يزناسن وواراه هالك في رمسه رحمه الله وتقبله .

وكان المولى محمد شجاعا مقداما لا يبالي بالعظائم ولا يخطر بباله خوف الرجال ، ولا يدري ما هي النكبات والاوجال ، وتقدم وصف أهل الدلاء له بقولهم : «الاجدل الذي لا تؤده هموم الليالي ولا حرارة قيظ الصيف عقاب اشهب على قنة كل عقبة ، لا يقنعه المال دون حسم الرقبة» ، وشجاعته شهيرة . وكان مع ذلك قويا في بدنه أيدا في أعضائه وجسمه لا يقاوم في الصراع ولا يزاول في الدفاع .

حكى انه في بعض أيام حصاره لتابوعصامت جعل يده فـي بعض ثقب الحصن وصعد عليها ما لا يحصى من الناس حتى كأنها خشبة منصوبة ولبنة مضروبة ، وكان سخيا جدا حتى أنه أعطى الاديب الشهير المتقدم في صناعة الشعر المعرب والملحون أبا عثمان سعيدا التلمساني صاحب القصيدة العقيقية وغيرها نحوا من خمسة وعشرين رطلا من خالص الذهب جائزة له على بعض امداحه فيه ، وحكاياته في هذا المعنى شهيرة .

ولما قتل رحمه الله قام بسجلماسة ولده المولى محمد الصغير مقامه لكن لم يتم له أمر وسيأتي بعض خبره ان شاء الله .



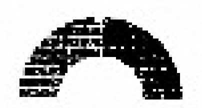
الخبر عن دولة امير المؤمنين المولى الرشيد بن الشريف رحمه الله

لما قتل المولى محمد بن الشريف رحمه الله في التاريخ المتقدم وانحشرت جموعه كلها الى اخيه المولى الرشيد ، فبايعوه البيعة العامة ، ودخل في طاعته الاحلاف وبنو يزناسن وغيرهم ، وبعث الى أهل تلك النواحي كلها من العرب والبربر يدعوهم الى الطاعة واجتماع الكلمة ، فقدمت عليه وفودهم بالهدايا ، وكتب من كان مع اخيه في ديوان جيشه وكساهم وأعطاهم الخيل والسلاح وعظم أمره وعلا كعبه ، ثم احتاج الى المال ، وكان قد اخذ ولد اليهودي ابن مشعل يوم قتل أبيه ، فجاءت امه تطلب فداءه فتفرس فيها وماطلها به ، ثم قال : « لا اسرحه حتى تدليني على مال زوجك أو أقتله » فانعمت له بذلك ، وركب معها الى القصبة فدلته على خزانة في بيت فنقب عنها فلقي فيها خوابي مملوءة ذهبا وفضة فاستخرجها ، وارتاش بتلك الاموال ، وفرق منها على من معه من العرب والبربر وسائر الاجناد ، فحسنت حاله وحالهم وعد ذلك من سعادته ، ولما قضى اربه ورتب جنده بعث رسله الى الآفاق بالاعذار والانذار والوعد والوعيد لاهل الطاعة والعصيان ثم سار على أثرهم قاصدا فتح المغرب الذي كان قد تعذر على اخيه من قبله فنزل على وادي ملوية واقام به أياما للاستراحة وانتظار من يأتيه من اهل تلك النواحي مثل جاوت والريف وغيرهما فلم يأته أحد ، والله غالب على امره .

فتح مدينة تازا ثم سجلماسة وما تخلل ذلك

لما أقام المولى الرشيد رحمه الله على ملوية ولم يأته من أهل المغرب أحد تقدم الى تازا فاقتحمها بعد محاربة طويلة وبايعه أهلها والقبائل التي حولها ، ولما اتصل خبر ذلك بأهل فاس اجتمعوا مع جيرانهم من عرب الحياينة والبهاليل واهل صفرو وغيرهم ، وتحالفوا على حرب المولى الرشيد وعدم بيعته بحال ظنا منهم أنه يفعل بهم ما فعله أخوه المولى محمد بالحياينة من النهب والقتل ، وأمر رؤساء فاس عامتها بشراء الخيل والعدة والاكثار منها ، ووظفوا على كل دار مكحلة ، ومن لم توجد عنده مكحلة منهم يعاقب ، فاشتروا من ذلك فوق الكفاية وخرجوا الى باب الفتوح لعرض الخيل والسلاح ، وعملوا اللعب المسمى بالميز ، واجتمعوا ايضا مع الحياينة ، واكدوا الحلف على حرب المولى الرشيد ، ولما بلغه خبرهم وما هم عليه أعرض عنهم وعدل الى سجلماسة . وكان ذلك منه صوابا في الرأى اذ قدم الاسهل فالاسهل ، وتناول الاخف فالاخف .

ولما أناخ على سجلماسة حاصرها نحو تسعة أشهر الى أن فر عنها ابن أخيه المولى محمد الصغير المنزى بعد ابيه كما مر ، فخرج منها ليلا ودخلها المولى الرشيد واستولى عليها وسد فرجها ورتب حاميتها ومهد أطرافها ورجع الى تازا فاحتل بها ، ولكل اجل كتاب .



حصار مدينة فاس ثم فتحها والايقاع بثوارها

لما قفل المولى الرشيد رحمه الله من سجلماسة الى تازا أقام بها أياما فاتفق أهل فاس مع احلافهم من الخيانة أن يغيروا عليه بسفره منها ، ويبدأوه بالحرب قبل ان يبدأهم ليكون ذلك كاسرا من شوكته ، وفاتا في عضده ، فتأهبوا للحرب وخرجوا في شوال سنة خمس وسبعين والف ، ولما قابلوا محلته افترقت كلمتهم ورجعوا منهزمين من غير قتال ، فتبعهم المولى الرشيد الى قنطرة نهر سبو خارج فاس ، ثم رجع عنهم فعضوا اليه في الصلح ، فلم يتم بينه وبينهم صلح الى أن ملك أطراف المغرب كله ، وكان ذلك من حسن تدبيره وترتيبه الامور .

ثم دخلت سنة ست وسبعين والف ففي صفر منهما زحف الى فاس وحاصرها وقاتلها ثلاثة أيام فأصابته رصاصة في طرف أذنه ورجع سالما ثم عاد الى حصارها مرة أخرى في ربيع الاول من السنة المذكورة فقتل ونهب ورجع الى تازا لانه لم يأن بقصد فتحها ، ثم توجه الى الريف بقصد الرئيس أبي محمد عبد الله أعراس الثائر به، فكانت بينهما وقعات، وحاصره في بعض حصونه الى ان قبض عليه في رمضان من السنة فعفا عنه واستقاد وكر راجعا الى فاس فنزل عليها في أواخر ذي القعدة من السنة وقاتلها قتالا شديدا الى ثالث ذي الحجة فاقتحم فاسا الجديد من أعلى السور من ناحية الملاح ، وفر اميرها يومئذ أبو عبد الله الدريدي ، وهذا الدريدي كان في جملة من اخوانه بني دريد بن اثبج الهلاليين ، وكانوا في ديوان السعديين ، ولما بايع اهل فاس الرئيس أبا عبد الله محمد الحاج الدلائي كان الدريدي هذا في عسكره ، فلما فشلت ريح أهل الدلاء بالمغرب نزع عنهم واستبد بفاس الجديد ، وحالف أهل فاس القديم على حرب الدلائيين ثالث جمادي الثانية سنة أربع وسبعين والف ، وقد كان احمد بن صالح الليريني رئيس أهل عدوة الاندلس قد خطب ابنة الدريدي لولده صالح

بن احمد فزوجه اياها ، والتحم ما بينهما فكان الدريدي يشن الغارات على قبائل البربر الذين باحواز مكناسة وغيرها . ويأتي بالنهب ، والاصل يقرع عليه الى ان يدخل دار الامارة ، واستمر على ذلك الى ان اقتحم عليه المولى الرشيد فاسا كما قلنا ففر الى منجاته . وقال في « النزهة » : بل قاتله المولى الرشيد وسكن هيعة فاس الجديد ، ومن الغد زحف الى فاس القديمة فحاصرها وقاتلها فضعفوا عن مقاومته ، وفر رئيس اللمطيين ابن الصغير وولده ليلا الى بستيون باب الجيسة ، ولما طلع الفجر فر ايضا رئيس عدوة الاندلس أحمد بن صالح فرأى أهل فاس ان امرهم قد ضعف وكلمتهم قد افترقت ، فخرجوا الى المولى الرشيد وبايعوه واجتمعت كلمتهم عليه ، فبعث في طلب ابن صالح فوجد بحوز المدينة فجيء به وسجن بباب دار ابن شقراء بفاس الجديد ، ثم قتل وقتل معه عدة من اصحابه ، ثم قبض على ابن الصغير وولده ، وبعد سبعة ايام امر السلطان بقتلهما فقتلا ، واستقام أمر فاس وصلحت أحوالها . قال في « النزهة » : افتتح أمير المؤمنين المولى الرشيد فاسا القديمة فحكم السيف في رؤسائها وافناهم قتلا فتمهدت البلاد واجتمعت الكلمة ، وكان دخوله حضرة فاس القديمة صبيحة يوم الاثنين أوائل ذي الحجة سنة ست وسبعين والف ، وبويع بها يومه ذلك ، ولما تمت له البيعة أفاض المال على علمائها وغمرهم بجزيل العطاء وبسط على أهلها جناح الشفقة والرحمة ، واظهر احياء السنة ونصر الشريعة ، فحل من قلوبهم بالمكان الارفع وتمكنت محبته من قلوب الخاصة والعامة »، اهـ .

وولى قضاء فاس السيد حمدون المزوار ثم خرج الى بلاد الغرب فقصد الخضر غيلان الثائر ببلاد الهبط ، وكان بقصر كتامة ، فزحف اليه المولى الرشيد فانهزم الخضر الى آصيلا ، ورجع المولى الرشيد عنه الى فاس أوائل ربيع الاول سنة سبع وسبعين والف ، فكتبت له البيعة بفاس وقرئت بين يديه قبل زوال يوم السبت الثامن عشر من ربيع الاول المذكور ، ثم في شهر ربيع الثاني من السنة غزا المولى الرشيد أحواز مكناسة وقصد آيت والالال من البربر شيعة محمد الحاج الدلائي فاوقع بهم ، ورجع عوده على

مدته ، وبعد رجوعه نزل محمد الحاج بجموع البربر قرب وادي فاس بامي مزورة من احواز فاس فقاتله المولى الرشيد ثلاثا ، ورجع كل الى وطنه ، ثم خرج المولى الرشيد الى تازا واعمالها حادي عشر رجب فتفقدها ورجع الى فاس في شوال من السنة المذكورة ، ثم عزل الفقيه قائد مكناسة، ثم خرج ثاني يوم النحر من السنة الى بني زروال فأوقع بالشريف النابغ فيهم . وبعث به محبوسا الى فاس فدخلها ثاني محرم سنة ثمان وسبعين وألف ، ثم مال المولى الرشيد الى الخلاوين فقبض على رئيسها أبي العباس القسيس في جماعة من حزبه وقدم بهم الى فاس فسجنهم بها أوائل ربيع الاول سنة ثمان وسبعين وألف الى ان كان من امرهم ما نذكره .

فتح زاوية الدلائي وتغريب اهلها الى فاس وتلمسان وما يتبع ذلك

لما كانت ضحوة يوم الخميس الثاني عشر من ذي القعدة سنة ثمان وسبعين والف خرج أمير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله غازيا زاوية أهل الدلاء ، وكان قد اسند الفتوى الى الفقيه أبي عبد الله محمد بن احمد الفاسي ، فلقي جموع الدلائيين وعليهما ولد محمد الحاج بطن الرمان من تازا ، فانتشبت الحرب بين الفريقين مليا ثم انهزم الدلائيون ورجعوا يقفون أثرهم الى الزاوية . قال الشيخ اليوسي رحمه الله في محاضراته «كان الرئيس أبو عبد الله محمد الحاج الدلائي قد ملك الغرب سنين عديدة واتسع هو واولاده واخوته وبنو عمه في الدنيا ، فلما قام السلطان المولى الرشيد بن الشريف ولقي جموعهم ببطن الرمان فقفها دخلنا على الرئيس أبي عبد الله المذكور ، وكان لم يحضر المعركة لعجزه وكبر سنه يومئذ ، فدخل عليه أولاده واخوته واظهروا له عجزا شديدا وضيقا عظيما فلما رأى منهم ذلك قال لهم : «ما هذا ؟ ان قال لكم حسبكم فحسبكم» يريد الله تعالى . قال اليوسي : «وهذا كلام عجيب واليه يساق الحديث

والمعنى : ان قال الله تعالى لكم حسبكم من الدنيا فكفوا راضين مسلمين» اهـ
وكان استيلاء المولى الرشيد على الزاوية في ثامن المحرم سنة تسع وسبعين وألف ولما خرج اليه أهلها عفا عنهم ولم يرق منهم دمـــا ولا كشف لهم سترا حلما وكرما منه رحمه الله . قال في «النزهة» : لما وقعت الهزيمـــة على أهل الدلاء دخل المولى الرشيد الزاوية ، وامر بمحمد الحاج واولاده وأقاربه أن يحملوا الى فاس ويسكنوا بها فحملوا اليها واستوطنوها مدة ، ثم أمر ان يذهب بهم الى تلمسان فقربوا اليها وسكنوها مدة

وحدثوا أن محمدا الحاج رحمه الله لما دخل تلمسان قـال : « كنت وجدت في بعض كتب الحدثان أني ادخـــل تلمسان فظننت أني أدخلهـــا دخول الملوك فدخلتها كما ترون» ولم يزل بها الى ان توفي فاتح سنة اثنين وثمانين والف ودفن عند ضريح الامام السنوسي رضي الله عنه ولما توفـــي المولى الرشيد رجع اولاده وأقاربه الى فاس فاستوطنوها باذن من السلطان المظفر المولى اسماعيل ، ولما دخل المولى الرشيد الزاوية غير محاسنها وفرق جموعها وطمس معالمها وصارت حصيدا كأن لم تغن بالامس ، بعد ان كانت مشرقة لاشراق الشمس ، فمحت الحوادث ضياءها ، وقلصت ظلالها وأفياءها ، وطالما أشرقت بأبي بكر وبنيه وابتهجت ، وفاحت مـــن شذاهم وتأرجت ، ارتحل عنها فرسان الاقلام ، الذين يتجاب بوجوههم الظلام ، وبانت عنهـا ربات الخدور ، واقامت بها اثافي القدور ، ولقد كـــان اهلها يخفون آثـــار الرياح فعفت آثارهم ، وذهبت الليالي باشخاصهم وأبقت اخبارهم ، فل ذلك العرش ، وعدا الدهر حين أمن من الارش ، ولم يدفع الرمح ولا الحسام ولم تنفع تلك المنن الجسام ، فسحقا لدنيا ما رعت لهم حقوقـــا ، ولا أبقت لهم شروقا ، وهي الايام لا تقي من تجنيها ، ولا تبقي على مواليها ومدانيها ، اذهبت آثار جلق ، وأخمدت نار المحلق ، وذللت عزة ابن شداد ، وهدت القصر ذي الشرفات من سنداد ، وكل يلقى معجله ومؤجله ، ويبلغ الكتاب يوما أجله ، ولقد أحسن ربي نعمتهم ، المقر باحسانهم ومنهم شيخ مشايخ المغرب على الاطلاق ، الامام الذي وقع على علمه وعمله الاتفاق ، أبو علي

الحسن بن مسعود اليوسي رحمه الله في رائيته التي رثى بها الزاوية المذكورة وبكى أيامها يقول في مطلعها :

أكلف جفن العين أن ينثر الدرا فيأبى ويعتاض العقيق بها خمرا

وهي طويلة شهيرة . قلت : ولم يصرح فيها باسمائهم مراعاة لجانب السلطان وذلك هو الواجب والمناسب فرحم الله الشيخ اليوسي ما كان أعرفه بمقتضيات الاحوال .

فتح مراكش ومقتل الامير أبي بكر الشباني وشيعته

لما فرغ المولى الرشيد رحمه الله من أمر الزاوية توجه الى مراكش في الثاني والعشرين من صفر من السنة أعني سنة تسع وسبعين والسف فاستولى عليها وقتل رئيسها أبا بكر بن عبد الكريم الشباني وجماعة من أهل بيتـه .

وقال في «النزهة» : لما بلغ أبا بكر الشباني وقومه مسير المولى الرشيد اليهم خرجوا فارين بانفسهم من مراكش الى شواهق الجبال لما خامر قلوبهم من رعبه ، فدخل المولى الرشيد مراكش وأفنى من وجد بها من الشبانات ، وقبض على أبي بكر وبني عمه ، فعرضهم على السيف واستنزل تلك الفئة الشريدة من الصياصي ، واخذ منهم بالاقدام والنواصي ، واخرج عبد الكريم من قبره فاحرقه بالنار .

ولما فتح مراكش قام بها نحو شهر ثم رجع الى فاس ، فدخلها يوم الجمعة السابع والعشرين من ربيع الثاني من السنة المذكورة،وفي هذه السنة خرج المولى محمد الصغير من تافيلالت في شيعته وخلى سبيل البلد،وفيها أيضا ركب الخضر غيلان البحر الى الجزائر وخلى سبيل آصيلا،ولما رجع المولى الرشيد الى فاس عزل أبا عبد الله الفاسي عن الفتوى ، وعزل الفقيه المزوار عن قضائها منسلخ جمادى الثانية من السنة ، وولى القضاء الفقيه أبا عبد الله

محمد بن الحسن المجاصي ، والخطابة بجامع القرويين الفقيه أبا عبد الله محمدا البوعناني ، وفي منتصف رجب من السنة المذكورة غزا المولى الرشيد بلاد الشاوية ورجع الى فاس في سابع رمضان العام ، فعفا عن بعض أهل الدلاء ، وبقي الآخرون بضريح الشيخ ابي الحسن علي بن حرزهم الى تمام السنة ، فعفا عن الجميع وردهم الى بلادهم الا ما كان من محمد الحاج وبنيه، فانهم غربوا الى تلمسان ، ومات هو هنالك ، ولما ولي الأمر المولى اسمعيل وقعت الشفاعة في الاولاد فرجعوا الى فاس كما مر .

وفي يوم السبت سابع عشر ذي الحجة من السنة غزا المولى الرشيد آيت عياش من برابر صنهاجة ، وفيها أمر بضرب السكة الرشيدية وأقرض تجار فاس وغيرها اثنين وخمسين الف مثقال بقصد التجارة الى أن يردوها بعد سنة .

وفي هذه السنة ايضا حاز طاغية الاصبنيول مدينة سبتة من يد البرتغال في سبيل مشارطة وقعت بينهم في مدينة اشبونة واستمرت في يد الاصبنيول الى الآن .

بناء قنطرة وادي سبو خارج فاس

وفي يوم السبت الرابع عشر من ذي القعدة سنة تسع وسبعين والف أمر المولى الرشيد ببناء قنطرة نهر سبو الاقواس الاربعة خارج فاس فأخذوا في تهيئة الاسباب وحفر الاساس ، وفي منتصف جمادى الثانية سنة ثمانين وألف شرعوا في البناء بالآجر والجير فكملت على احسن حال .

ولما تكلم الشيخ اليوسي في المحاضرات على الحديث الصحيح : ان أخنع الاسماء عند الله رجل تسمى بملك الاملاك قال ما نصه : ومن الشنيع الواقع في زماننا في الاوصاف ، أنه لما بنى السلطان المولى الرشيد بن الشريف جسر نهر سبو صنع بعضهم يعني : القاضي أبا عبد الله المجاصي

أبياتا كتبت فيه برسم الاعلام أولها :

صاغ الخليفة ذا المجاز   ملك الحقيقة لا المجاز

قال فحممنه القاضي هذه السجعة والتغالي في المدح والاهمال بالاسترشاد على أن جعل ممدوحه ملكا حقيقيا لا مجازيا ، وانما ذلك هو الله وحده ، وكل ملك دونه مجاز الممدوح وغيره ه اه

وفي هذه السنة وذلك يوم الاثنين الثاني والعشرين من رجب خرج المولى الرشيد غازيا الابيض فقبض على اولاد اخي الابيض ، ولما وصل الى تازا أمر بقتلهم فقتلوا ، ثم مرض مرضا شديدا أشرف منه على الموت ، فأمر بسريح المساجين واخراج الصدقات فعافاه الله .

وفي منتصف ذي القعدة من السنة أمر بأعمال وليمة العرس لاخيه المولى اسمعيل بدار ابن شقراء من حضرة فاس الجديد . قال اليفرني : داحتفل المولى الرشيد في ذلك العرس بما لم يعهد مثله ه اه وكانت العروس من بنات الملوك السعديين . وفي شوال من السنة جدد قنطرة الرصيف بفاس والله أعلم .

فتح تارودانت وايليغ وسائر السوس

قد قدمنا ان أبا حسون السملالي كان مستوليا على بلاد السوس فاستمر حاله على ذلك الى ان توفي سنة سبعين والف ، وكان رحمه الله لين الجانب محمود السيرة موصوفا بالعفة متوقفا في الدماء ، ولما هلك خلفه ولده أبو عبد الله محمد بن ابي حسون ، فلما كانت سنة احدى وثمانين والف غزا المولى الرشيد رحمه الله بلاد السوس فاستولى على تارودانت رابع صفر من السنة ، واوقع بهنتوكة، فقتل منهم أكثر من الف وخمسمائة واوقع باهل الساحل فقتل منهم اكثر من أربعة آلاف ، واوقع باهل قلعة ايليغ دار ملك أبي حسون ، فاستولى عليها في مهل ربيع الاول من السنة ،

وقتل منهم بسفح الجبل أكثر من الفين وصفا امر السوس للمولى الرشيد .

وفى هذه السنة أيضا فى سابع ربيع الاول منها قتل المولى اسمعيل ، وكان نائبا عن اخيه بفاس ، ستين رجلا من أولاد جامع ، وكانوا يقطعون الطريق فقتلهم وصلبهم على سور البرج الجديد . وفيها فى جمادى الاخيرة منها أمر المولى الرشيد بضرب فلوس النحاس المستديرة ، وكانت قبل مربعة وهى الاشقوبية وجعل أربعة وعشرين فى الموزونة وكانت قبـل ثمانية وأربعين ورجع الى فاس فى ثالث رجب من السنة . وفى أول شعبان منها شرع فى بناء مدرسة الشراطين بدار الباشا عزوز من فاس وكان قد أمر ببناء مدرسة عظيمة بازاء مسجد الشيخ أبى عبد الله محمد بن صالح من حضرة مراكش والله لا يضيع أجر من أحسن عملا

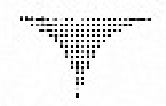
تأليف جيش شراقة واوليتهم وشرح لقبهم

قد قدمنا فى أخبار السعديين : أن لفظ شراقة فى الاصل لقب لعرب بادية تلمسان ومن انضاف اليهم ، وسموا بذلك لانهم فى جهة الشرق عن المغرب الاقصى ، فأهل تلمسان مثلا يسمون أهل المغرب الاقصى مغاربة ، وأهل المغرب الاقصى يسمون أهل تلمسان مشارقة ، الا أن العامة يلحنون فى هذه النسبة فيقولون شراقة بتخفيف الراء والقاف المعقودة ، وقد كان للسعديين جند من هؤلاء العرب كما مر .

ولما جاء الله بدولة أمير المومنين المولى الرشيد رحمه الله واجتمع عليه من عرب انكاد وغيرهم ما قدمنا ذكره نزع اليه من أهل تلك البلاد عدة قبائل بعضها من العرب وبعضها من البربر أنفا من ولاية الترك فقبلهم . فمن العرب أشجع وبنو عامر ، ومن البربر مديونة وهوارة وبنو سنوس ، فأمر رحمه الله ببناء القصبة الجديدة بفاس بديار لمتون وعرصة ابن صالح وبذل لاصحابه وقواده ألف مثقال لبناء سورها وأمرهم ببنـاء الدور فيها

وأعطى شراقة هؤلاء ألف دينار لبناء قصبة الخميس ، بعد أن كان أنزلهم أولا بأحواز فاس ، فحصل منهم الضرر لاهل المدينة وشكوهم ، فأمرهم بالانتقال بحنتهم الى بلاد صدينة وفشتالة بين النهرين سبو وورغة، وأقطعهم تلك الارض وعزل عزابهم وأمرهم ببناء بيوتهم على حدة ، ثم أعطاهم ألف دينار لبناء سور القصبة كما قلنا ، وجعلهم قبيلة واحدة تسم تميز الآن عربهم من بربرهم ، ثم خرج المولى الرشيد رابع رمضان من السنة لزيارة الشيخ أبي يعزى رضى الله عنه ومنه ذهب الى سلا فزار صلحاءها وعاد الى فاس فدخلها منسلخ رمضان المذكور .

ثم دخلت سنة اثنين وثمانين والف في صفر منها بعث خيلا للجهاد على طنجة ، وفي منتصف جمادى الاولى بعث خيلا أخرى الى السوس وعليهم أبو محمد عبد الله أعراس ، ثم خرج الى الصيد بأفرطاست فبلغه هنالك خبر ثورة ابن أخيه المولى محمد بن محمد بمراكش ، فرجع الى فاس ، فدخلها يوم السبت حادي عشر رمضان ، ثم خرج منها عصر يومه ذلك ، فلقيه ابن أخيه بفزارة مقبوضا عليه بيد أصحابه فبعث به الى تافيلالت وسار هو الى مراكش وبعث قائده زيدان العامري الى فاس في ذي القعدة ليأتيه بالجيش لغزو السوس ، فأتاه أهل السوس طائعين و لم يبق للحركة محل بعد أن كانت الاخبية قد أخرجت الى وادي فاس وضربت به، فاستقرت قواعد الملك للمولى الرشيد وتمهدت أمور الدولة والله غالب على أمره .



وفاة امير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله

كان أمير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله في هذه المدة مقيمـا بمراكش كما قلنا الى أن كان عيد الاضحى من سنة اثنين وثمانين وألف ، فلما كان ثاني يوم النحر وهو يوم الخميس ركب فرسا لـه وأجراه فجمح به في بستان المسرة ولم يملك عنانه فأصابه فرع شجرة نارنـج فهشم رأسه وقيل دخل في أذنه وكانت فيه منيته رحمه الله ، ودفن بمراكش بالقصبة منها ، ثم نقل الى ضريح الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم بفاس لوصية منه بذلك . ومات رحمه الله وسنه اثنان وأربعون سنة لانه ولد سنة أربعين وألف ، ورثاه بعضهم بقوله :

وما شج ذات الغصن رأس امامنا   لسوء لـه خدن المحبة جاحـد
ولكنه قـد غار من لين قـده   وان من الاشجار ما هـو حـاسد

قلت : لا يخفى أن مثل هذا الشعر لا يحسن أن تمدح بـه الملوك فانه بالغزل أشبه منه بالرثاء ، وكان قد وقع بين المولى الرشيد رحمه الله وبين شيخ الوقت الامام أبي عبد الله محمد بن نـاصر الدرعي رضي الله عنه مكاتبات توعده امير المؤمنين في بعضها فمات عقب ذلـك وكفى الشيـخ المذكور أمره .

ومن مآثره رحمه الله : أنه لما مر في بعض حركاته بالموضع المعروف بالشط من بلاد الظهراء أمر بحفر آبار شتى فهي الآن تدعـى بآبـار السلطان اضافة له يستقي منها ركب الحجيج في ذهابه وايابه ، فهي ان شاء الله في ميزان حسناته ، وكان رحمه الله محبا في جانب العلماء مؤثـرا لاغراضهم مولعا بمجالستهم محسنا اليهم حيث ما كانوا .

ومن نوادره معهم : ما حكي ان العلامة أبـا عبد الله محمد المرابط ابن محمد بن ابى بكر الدلائي حضر يوما بمجلس السلطان المذكور وذلك بعد الايقاع بزاويتهم وتغريبهم الى فاس فأنشد السلطان معرضا بالفقيـه

المذكور قول أبي الطيب المتنبي :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى … عدوا له ما من صداقته بد

فهم أبو عبد الله المرابط اشارته فقال : أيد الله أمير المؤمنين ، ان من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلا ، فاستحسن الحاضرون حسن بديهته ولطف منزعه .

ومن تواضع المولى الرشيد رحمه الله مع أهل العلم ما حكاه صاحب الجيش من أنه بعث الى بعض علماء عصره ليقرأ معه بعض الكتب فامتنع ذلك العالم وقال كما قال الامام مالك رضي الله عنه : « العلم يؤتى ولا يأتي » قال : « فكان المولى الرشيد رحمه الله يتردد لمنزل ذلك العالم للقراءة عليه » وقد ذكر صاحب « نشر المثاني » : « أنه كان يحضر مجالس الشيخ اليوسي بالقرويين » اه وهذه لعمري منقبة فخيمة ، ومأثرة جسيمة ، فرحم الله تلك الهمم التي كانت تعرف للعلم حقه وتقدر قدره ، قالوا : وكان رحمه الله جوادا سمحا رحل الناس اليه من المشرق فما دونه وقصده بعض طلبة ثغر الجزائر فامتدحه ببيتين وهما :

يمضي بحر الفرات في كل قطر … من ندى راحتيك عذبا فراتا

غرق الناس فيه والشمس انقضـ … ـت خلاف فلم يجده فماتا

فوصله بألفين وخمسين دينارا .

قال اليفرني : وشأوه رحمه الله في السخاء لا يلحق ، والحكايات عنه بذلك شهيرة ، وفي أيامه كثر العلم واعتز أهله وظهرت عليهم أبهته ، وكانت أيامه أيام سكون ودعة ورخاء عظيم حتى قيل أنه في اليوم الذي بويع فيه بفاس كان القمح في أول النهار بخمس أواق للمد وصار في آخره بنصف اوقية فيمن الناس بولايته واغتبطوا بها ، والله تعالى أعلم

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المظفر بالله ابى النصر المولى اسماعيل بن الشريف رحمه الله

لما توفي المولى الرشيد رحمه الله في التاريخ المقدم وكان اخوه المولى اسمعيل بمكناسة الزيتون خليفة على بلاد الغرب فبلغه خبر موته فاجتمع الناس عليه وبايعوه واتفقت كلمتهم عليه ، ثم قدم عليه أعيان فاس وأعلامها وأشرافها ببيعتهم ، وقدم عليه أهل بلاد الغرب من الحواضر والبوادي كذلك بهداياهم وبيعاتهم الا مراكش وأعمالها فانه لم يأت منها أحد ، فجلس رحمه الله للوفود الى ان فرغ من شأنهم ورتب اموره بمكناسة وعزم على السكنى بها اذ كان لا يبغي بها بدلا حيث أعجبه ماؤها وهواؤها هكذا في البستان .

وقال أبو عبد الله اليفرني في النزهة ونحوه في «نشر المثاني» : «لما توفي المولى الرشيد رحمه الله اتصل خبر وفاته بالمولى اسمعيل وهو يومئذ خليفته بفاس الجديد ليلة الاربعاء السادس عشر من ذي الحجة سنة اثنين وثمانين والف فبويع رحمه الله ، وحضر بيعته أعيان المغرب وصلحاؤه بحيث لم ينازع في انه احق بها واهلها احد ممن يشار اليه »، زاد في «الظل الظليل :» ووافق على بيعته اهل الحل والعقد من العلماء والاشراف كالشيخ أبي محمد عبد القادر ابن علي الفاسي ، والشيخ أبي علي اليوسي ، وأبي عبد الله محمد بن علي الفيلالي ، وابي العباس احمد بن سعيد المكيلدي ، وأبي عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي ، واخيه أبي زيد صاحب نظم العمل ، والقاضي أبي مدين ، وغيرهم من بقية الاعيان ، وكانت بيعته في السنة الثانية من يوم الاربعاء السادس عشر من ذي الحجة المذكور آنفا ، ووافق ذلك اليوم الثالث من شهر ابريل العجمي .

وكان سنه يوم بويع ستا وعشرين سنة لان ولادته كانت عام وقعة

القاعة وهى مؤرخة بخط من يوثق به سنة ست وخمسين والف ، ولما تمت بيعته نهض بأعباء الخلافة وضبط الامور واحسن السيرة .

ثورة المولى ابى العباس احمد بن محرز بن الشريف وما كان من امره

لما توفى المولى الرشيد رحمه الله واتصل خبر وفاته بأهل سجلماسة وغيرها أقبل ابن أخيه المولى أبو العباس أحمد بن محرز مبادرا الى مراكش طالبا للامر وداعيا الى نفسه ، والتفت عليه طوائف من عرب السوس وغيرهم وغلب على تلك النواحي ونشبت أهل مراكش بلامع برقه ، وبذلك تقاعدوا عن الوفادة على أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله .

ولما صح عنده خبر ابن محرز وذلك فى آخر ذى الحجة من السنة نهض الى مراكش فوصل اليها وبرز اليه أهلها فيمن انضم اليهم من قبائل أحوازها وقاتلوه فانتصر عليهم وهزمهم ، ودخل مراكش عنوة يوم الجمعة سابع صفر سنة ثلاث وثمانين والف ، فعفا عن اهلها ، وأجفل ابن محرز وشيعته الى حيث نجوا .

ولما احتل المولى اسمعيل بمراكش أمر بنقل شلو أخيه المولى الرشيد فى تابوته الى فاس ليدفن بضريح الشيخ ابن حرزهم كما مر ، ثم قفل السلطان الى مكناسة منسلخ ربيع الاول سنة ثلاث وثمانين والف .

انتقاض اهل فاس وقتلهم القائد زيدان واعلانهم بدعوة ابن محرز وما نشأ عن ذلك من محاصرة السلطان لهم

لما قفل أمير المؤمنين المولى اسمعيل الى مكناسة أخذ في ترتيب امور دولته وفرق الراتب على الجند وكان عازما على غزو بلاد الصحراء فلم يرعه الا الخبر بأن أهل فاس قد انتقضوا وقتلوا قائد الجيش زيدان بن عبيد العامري وكان مقتله ليلة الجمعة ثاني جمادى الاولى من السنة فزحف السلطان اليهم وحاصرهم واستمر القتال بينه وبينهم أياما ، ثم بعثوا الى المولى أحمد ابن محرز ليأتيهم فيجتمعوا عليه فقدم دبدو ونزل على ملوية وبعث اليهم رسوله يعلمهم بمجيئه فاعلنوا بنصره ، وذلك يوم الخميس العشرين من جمادي الثانية من السنة ، وفي منسلخ الشهر المذكور بعثوا عشرة من الخيل لملاقاته بتازا ، ثم أصبح عليهم رسول الخضر غيلان يعلمهم بأنه قد قدم من ثغر الجزائر في البحر ، وانه نزل بتطاوين مع رؤسائها أولاد النقسيس ، فتشعبت الآراء وتعددت أسباب الهراش ، وتكاثرت الظباء على خداش ، وهاجت فتنة بفاس قتل فيها نفر من اولاد الثائر المتقدم أبي الربيع سليمان الزرهوني على يد مولاي احمد بن ادريس من شرفاء دار القيطون، ثم قتل بعض شيعة الزرهوني مولاي حفيد بن ادريس أخا الشريف المذكور ، وكان ما كان مما لست أذكره .

ولما اتصل خبر ابن محرز بالمولى اسمعيل نهض اليه في جنوده قاصدا تازا فحاصرهم بها اشهرا ففر عنها ابن محرز ودخل الصحراء ، ولما علم السلطان بفراره عدل الى ناحية الهبط بقصد الخضر غيلان فحاربه الى أن ظفر به وقتله يوم الاحد العشرين من جمادي الاولى سنة أربع وثمانين والف ، وعاد الى فاس الجديد أواسط جمادي الثانية من السنة ، وحاصر أهل فاس وطاولهم ولم يحدث معهم حربا الى ان أذعنوا الى الطاعة وراجعوا

بصائرهم ففتحوا البلد وخرجوا الى السلطان تائبين فعفا عنهم ، وذلك في سابع عشر رجب سنة اربع وثمانين والف ، فكانت مدة انقافهم أربعة عشر شهرا وثمانية عشر يوما ذاقوا فيها وبال امرهم ، ثم ولى عليهم القائد أبا العباس أحمد التلمساني ، وعلى فاس الجديد الوزير أبا زيد عبد الرحمن المزاري وسار الى مكناسة ، ثم عاد بالقرب ، الا ان هذين الواليين قد جاروا في الحكومة ، وعاثا في البلدين بضرب الابشار ونهب الاموال وغير ذلك والله لا يظلم مثقال ذرة ، وعزل أيضا عن خطابة القرويين الفقيه أبا عبد الله البوعنانى وولاها القاضي أبا عبد الله المجاصي وذلك في آخر رجب من السنة والله أعلم .

تجديد امير المؤمنين المولى اسماعيل بناء مكناسة الزيتون واتخاذه اياها دار ملكه

كانت مدينة مكناسة الزيتون من الامصار القديمة بارض المغرب بناها البربر قبل الاسلام ، ولما جاءت دولة الموحدين حاصروا مكناسة سبع سنين ثم افتتحوها عنوة أواسط المائة السادسة وخربوها ، ثم بنوا مكناسة الجديدة المسماة بتاكرارت ، ومعناها : المحلة ، واعتنى بها بنو مرين من بعدهم فبنوا قصبتها وشيدوا بها المساجد والمدارس والزوايا والربط ، وكانت يومئذ هي كرسي الوزارة كما ان حضرة فاس الجديد هي كرسي الامارة ، واختصت مكناسة بطيب التربة وعذوبة الماء وصحة الهواء وسلامة المختزن من التعفين وغير ذلك . وقد وصفها ابن الخطيب في مواضع من كتبه مثل «النفاضة» و «المقامات» وغيرهما واثنى عليها نظما ونثرا وأنشد قول ابن عبدون من أهلها فيها :

ان تفتخر فاس بما في طيها ... وبانها في زيها حسناء

يكفيك من مكناسة ابراجها والاطيبان هواؤها والمـــاء

فلما كانت بهذه المثابة كان امير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله لا يبغي بها بدلا ، فلما فرغ من امر فاس رجع اليها وشرع في بناء قصوره بها بعد ان هدم ما يلي القصبة من الدور ، وأمر أربابها بحمل أنقاضها ، وبنى لهم سورا على الجانب الغربي ، وامر ببناء دورهم به ، وهدم الجانب الشرقي كله من المدينة وزاده في القصبة القديمة ، ولم يبق أمامه الا الفضاء فجعل ذلك كله قصبة . وبنى سور المدينة وافردها عن القصبة وأطلق أيدي الصناع في البناء ومداومة العمل ، وجلبهم من جميـــع حواضر المغرب ، ولما لم يقنعه ذلك فرض العملة على القبائل متاوبة ، فصارت كل قبيلة مـــن قبائل المغرب تبعث عددا معلوما من الرجال والبهائم في كل شهر ، وفرض الصناع واهل الحرف على الحواضر ، فصار اهل كل مصر يبعثون من البنائين والنجارين وغيرهم عددا معلوما كذلك ، واسس المسجد الاعظم بداخـــل القصبة مجاورا لقصر النصر الذي كان اسسه في دولة أخيـــه المولى الرشيد رحمه الله ، ثم أسس الدار الكبرى التي بجوار الشيخ المجذوب ، واستمر بالبنـــاء والغرس بمكناسة سنين كما سيأتي التنبيه على ذلـــك في محلـــه ان شاء الله .

مجيء المولى احمد بن محرز الى مراكش واستيلاؤه عليها ونهوض السلطان الى محاصرته بها

ثم دخلت سنة خمس وثمانين والف فيها ورد الخبر عـــلى السلطان المولى اسمعيل وهو بمكناسة بدخول ابن اخيه المولى احمد بن محرز مراكش واستيلائه عليها ، وكان السلطان يومئذ متوجها الى آنكاد لما بلغه مـــن عبث العرب الذين به وقطعهم الطريق فلم يثنه ذلك عنهم بل سار اليهم واوقع بسفيونة منهم وقتل خلقا كثيرا ونهب ورجع مؤيدا منصورا ، ثم استعد لحرب

ابن محرز وخرج فى العساكر على طريق تادلا ، فكان اللقاء بينهما على أبي عقبة من وادي العبيد ، فاقتتلوا وانهزم ابن محرز وقتل كثير جيشه جيدة الخوري ، ورجع ادراجه الى مراكش ، فتبعه السلطان المولى اسمعيل ، وألقى بكلكله على مراكش أوائل سنة ست وثمانين وألف، ونما اليه أن بعض أهل محلته قد اضمروا الغدر منهم الشيخ عمر الطوني وولده وعبد الله آعراس واخوته ، هؤلاء كانوا امراء عسكره ، فخنقهم وأتلف نفوسهم ، وبعث الى من بقي منهم بفاس فقبض عليهم وقتلوا وحيزت دورهم واموالهم .

واستمر السلطان محاصرا لمراكش الى ربيع الثاني من سنة سبع وثمانين وألف فشدد في الحصار ، وازدلف اليها في جنوده ، فوقع قتال عظيم مات فيه من الفريقين مالا يحصى ، وانحجر ابن محرز واخل البلد وبقي يقاتل من أعلى الاسوار ، ثم تمادى الحصار الى ثاني ربيع الثاني من سنة ثمان وثمانين وألف ، فاشتد الامر على ابن محرز وضاق ذرعا ، فخرج فارا عن مراكش ناجيا فيما اتقته الحرب من جموعه ، ودخل السلطان المولى اسمعيل المدينة عنوة ، فاستباحها وقتل سبعة من رؤسائها وكحل ثلاثين منهم وهدأت الفتنة وذهبت أيام المحنة . والله غالب على أمره .

تاليف جيش الودايا وبيان فرقهم واوليتهم

هذا الجيش من أمثل جيوش هذه الدولة الشريفة أبقى الله فضلها وبسط على البلاد والعباد يمنها وعدلها وهو ينقسم الى ثلاثة أرحاء ، رحى أهل السوس ، ورحى المغافرة ، ورحى الودايا ، ويطلق على الجميع ودايا تغليبا ، فأما أهل السوس فمنهم أولاد جرار وأولاد مطاع وزرارة والشبانات وكلهم من عرب معقل ، وكانوا فى القديم جندا للدولة

السعدية ، وكان ملوكها يستنفرونهم للغزو بجنبهم لاعتيادهم ذلك من أيام كونهم بالصحراء ، ثم أنزلوهم ببسيط آزغار مزاحمة لعرب جشم من الخلط وسفيان وغيرهم ، اذ كانت الخلط شيعة بني مرين وأصهارهم كما مر ، فلما جاءت الدولة السعدية بقوا منحرفين عنها ، وكلما طرقها خلل ثاروا عليها وخرجوا عن طاعتها ، فقيض بهم السلطان محمد الشيخ السعدي هؤلاء القبائل من معقل وزاحمهم بهم في بلادهم، وشغلهم بهم، فكانت تكون بينهم الحروب ، فتارة تنتصف معقل من جشم ، وتارة العكس حتى أوقع المنصور السعدي بالخلط وقعته الشهيرة ، واستفضهم من الجملة ، فقفل أولاد مطاع الى زيدة قرب تادلا .

ولما أشرفت الدولة السعدية على الهرم استطالت الشبانات عليها بما كان لهم من الخؤولة في أولاد السلطان زيدان ، فاستبدت فرقة منهم بمراكش كما مر ، وثارت أخرى بفاس الجديد مع أبي عبد الله الزرهوني المتغلب بها حسبما سلف ، الى أن نقل امير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله جميعهم الى وجدة كما سيأتي ، ثم جمعهم بعد باخوانهم من المغافرة والوداية وصير الجميع جيشا واحدا فهذه أولية أهل السوس

وأما المغافرة فسيأتي بيان كيفية اتصالهم بالمولى اسمعيل ومصاهرتهم له .

وأما الوداية فكان السبب في جمعهم واستعمالهم في الجندية أنه لما فتح المولى اسمعيل رحمه الله مدينة مراكش الفتح الثاني وأخذ ابن محرز عنها أقام بها أياما ، ثم خرج الى الصيد بالبسيط المعروف بالبحيرة من أحواز مراكش ، فرأى أعرابيا يرعى غنما له وبيده شفرة فقطع بها السدر ويضعه لغنمه لتأكل ورقه ، فقال للوزعة : « علي بأبي الشفرة » فأسرعوا اليه وجاءوا به الى أن أوقفوه بين يديه ، فسأله فانتسب له الى ودي ، كفتى : قبيلة من عرب معقل بالصحراء ، وأخبره بأنهم دخلوا من بلاد القبلة بسبب جدب أصابهم ، قال : « دخلت السوس بجمع كبير فافترقنا وذهبت كل طائفة منا الى قبيلة فنزلت عليها ، ونحن نزول مع

الشبانات ، فقال له المولى اسمعيل رحمه الله : « انتم أخوالى وسمعتم بخبرى ولم تاتونى ، والآن أنت صاحبى واذا رجعت بغملك الى خيمتك فاقدم على الى مراكش » وأوصى به من يوصله اليه ، ثم بعد أيام قدم أبو الشمرة على السلطان فكساه وحمله وبعث معه خيلا يجمع بها اخوانه من قبائل الحوز ، فجمع من وجد منهم وجاء بهم الى السلطان فاثبتهم في الديوان وكساهم وحملهم ، ثم نقلهم بحللهم الى مكناسة الزيتون دار الملك ومقر الخلافة .

ثم دخل نجع آخر بعدهم فاثبتهم في الديوان أيضا وبالغ في اكرامهم والاحسان اليهم وعين سكناهم من مكناسة المحل المعروف بالرياض بجوار قصبتها ، وأمرهم ببناء الدور وأعطى أعيانهم ورؤساءهم النوائب وهي : الزوايا التي لا تعرف مع القبائل ، ثم قدم نجع ثالث جاؤوا من جهة القبلة فاثبتهم كاخوانهم الذين قدموا قبلهم وسلك بهم مسلكهم .

ولما نقل رحمه الله زرارة والشبانات الذين كانوا بفاس لاجديد مع الدريدي بعث بهم اليها أيضا ليجتمعوا مع اخوانهم ، ثم قسم الودايا الذين بالرياض قسمين فبعث نصفهم الى فاس الجديد وعمره بهم . وولى عليهم القائد أبا عبد الله محمد بن عطية منهم ، وأبقى النصف الآخر بالرياض من مكناسة ، وولى عليهم القائد أبا الحسن عليا المدعو بأبي الشمرة ، فكانا يتداولان القسمين مرة هذا ومرة هذا . ثم استقر الامر على أن صار أبو الشمرة بفاس وابن عطية بالرياض .

وأما خبر المغافرة : فانه لما أوقع بهم المنصور السعدي تفرقوا في القبائل شذر مذر ، وصاروا عيالا على غيرهم ، ولما أشرفت الدولة السعدية على الهرم اجتمعوا ورجعوا الى ازغار فغلبوا عليه ، وعفوا وكثروا وتمولوا وأكثروا من الخيل والسلاح الى أن جاء الله بالمولى اسمعيل رحمه الله فانتزع منهم خيلهم وسلاحهم كغيرهم من قبائل المغرب ، وضرب عليهم المغارم ، واستمروا على ذلك الى أيام السلطان المرحوم المولى محمد ابن عبد الله فظهروا في دولته ، وكانوا يمكسون معه في حروبه ويغرمون

ما وجب عليهم من الزكوات والاعشار ، وكذلك مع ابنه المولى سليمان وابن ابنه المولى عبد الرحمن بن هشام رحم الله الجميع بمنه ، وهم اليوم في عداد القبائل الغارمة ، وكذا قبائل الخوز الذين هم من عرب معقل كلهم غارمة ، والله تعالى المتولي لامور العباد لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه .

انتقاض البربر شيعة الدلائيين والتفافهم على احمد بن عبد الله منهم وايقاع السلطان بهم

لما كان أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله مقيما بمراكش بعد فرار المولى أحمد بن محرز عنها بلغه اجتماع البربر الصنهاجيين على أحمد ابن عبد الله الدلائي وعيثهم فيمن جاورهم من قبائل العرب من تادلا الى سايس ، فبعث رحمه الله عسكرا الى تادلا اعانة لاهلها على البربر فهزمتهم البربر وقتلوا يخلف وانتهبوا واستولوا على تادلا ، ثم بعث اليهم عسكرا آخر فيه ثلاثة آلاف من الخيل وعقد عليه ليخلف فهزمهم البربر وقتلوا يخلف وانتهبوا معسكره ، ثم اعقبهما بعسكر ثالث فوقع به ما وقع بالاولين هذا كله والسلطان مقيم بمراكش يرصد ابن محرز الذي بالسوس ، ثم بلغه قيام اخيه المولى حمادة بالصحراء وحربه لاخيه المولى محرز الثائر بها أيضا ، وهو والد المولى أحمد صاحب السوس فقدم السلطان رحمه الله الاهم ورجع الى حرب البربر بتادلا خوفا من اتساع خرقهم على الدولة ، وهنالك لقيه أخوه المولى الحران جاء مستصرخا له على أخيه المولى حمادة ، ثم تقدم السلطان رحمه الله الى البربر فاوقع بهم وقعة شنعاء واستلحمهم وقطع منهم سبعمائة رأس بعث بها الى فاس مع عبد الله بن حمدون الروسي ، وفي «نشر المثاني» : أنه قتل من البربر يومئذ ثلاثة آلاف فزينت المدينة واخرجت المدافع وكان يوما مشهودا ، ولما انقضت الوقعة فر المولى الحران

من المحلة الى الصحراء ورجع السلطان الى مكناسة فدخلها فـي أواسط شوال سنة ثمان وثمانين وألف .

وفي هذه الايام ولى قضاء فاس الفقيه الورع أبا عبد الله محمد العربي بردلة بعد عزل القاضي ابى عبد الله المجاصي ، وولى مظالمها وجبايتها عبد الله الروسي ، وولى مواريثها أباه حمدون ، وامر بقتل أهل تطاوين الذين كانوا بسجن فاس وهم عشرون فضربت أعناقهم ورفعت على الاسوار ، ثم جيء بالمولى الحران من الصحراء مقيدا مغلولا فلما قابله من عليه وأطلقه وأعطاه خيلا وأقطعه مداشر بالصحراء يتعيش بها وسرحه الى حال سبيله .

عود الكلام الى بناء حضرة مكناسة الزيتون

واستمر السلطان المولى اسمعيل رحمه الله بمكناسة مقبلا على بناء حضرتها بنفسه وكلما أكمل قصرا اسس غيره ، ولما ضاق مسجد القصبة بالناس اسس الجامع الاخضر أعظم منه ، وجعل له بابين بابا الى القصبة وبابا الى المدينة وجعل رحمه الله لهذه القصبة عشرين بابا عدة فى غاية السعة والارتفاع ، مقبوة من اعلاها وفوق كل باب منها برج عظيم عليه من المدافع النحاسية العظيمة الاجرام والمهاريس الحربية الهائلة الاشكال ما يقضي منه العجب ، وجعل فى هذه القصبة بركة عظيمة تسير فيها الفلائك والزوارق المتخذة للنزهة والانبساط ، وجعل بها هريا عظيما لاختزان الطعام من قمح وغيره مقبو القنابيط ، يسع زرع أهل المغرب ، وجعل بجواره سواقي للماء في غاية العمق مقبوا عليها ، وجعل فى أعلاها برجا عظيما مستدير الشكل لوضع المدافع الموجهة الى كل جهة ، وجعل بها اصطبلا عظيما لربط خيله وطاله مسيرة فرسخ فى مثله مسقف الجوانب بالبرشلة على أساطين واقواس عظيمة ، فى كل قوس مربط فرس وبين الفرس والفرس عشرون شبرا ، يقال : انه كان مربوطا بهذا الاصطبل اثنى عشر

ألف فرس مع كل فرس سائس من المسلمين وخادم من أسرى النصارى يتولى خدمته ، وفي هذا الاصطبل ساقية من الماء دائرة عليه مقبوة الظهر ، وامام كل فرس منها ثقب كالمعدة لشربه ، وفي وسط هذا الاصطبل قباب معدة لوضع سروج الخيل على اشكال مختلفة ، وفيه ايضا هري عظيم مربع الشكل مقبو الاعلى على اسارين عظيمة واقواس هائلة لوضع سلاح الفرسان أصحاب الخيل ، وينفذ اليه الضوء من شبابيك في جوانبه الاربعة كل شباك في وزنه على قنطار من حديد ، وفوق هذا الهري من اعلاه قصر يقال له : المنصور ، ولا يقصر ارتفاعه من [illegible] ذراع خمسون في الاسفل وخمسون في الاعلى ، وفيه عشرون قبة في كل قبة طاق عليه شباك من حديد يشرف منه أهل القبة على بسيط مكناسة من الجبل الى الجبل ، وكل قبة مسقفة بالبرشلة والقرمود وغير ذلك ، ثم أربع قبب منها متقابلة سعة كل واحدة منها سبعون شبرا في مثلها ، وفي العشرين اربعون . ويجاور هذا الاصطبل بستان على قدر طوله فيه من شجر الزيتون وانواع الفواكه كل غريب ، طوله فرسخ وعرضه ميلان ، وتتخلل هذه القصور التي في داخل القلعة شوارع مستطيلة متسعة وأبواب عظيمة فاصلة بين كل ناحية وبين الاخرى ، ورحاب عظيمة مربعة ممهدة معدة لسوق في كل جانب ، الى غير ذلك مما لا يحيط به الوصف .

قال صاحب «البستان» : «وقد شاهدنا آثار الاقدمين بالمشرق والمغرب وبلاد الترك والروم فما رأينا مثل ذلك في دولهم ولا شاهدناه في آثارهم ، بل لو اجتمعت آثار دول ملوك الاسلام لرجح بها ما بناه السلطان الاعظم المولى اسمعيل رحمه الله في قلعة مكناسة دار ملكه ، ولم تزل تلك البناءات على طول الدهر قائمة كالجبال لم تخلخلها عواصف الرياح ولا كثرة الامطار والثلوج ولا آفات الزلازل التي تخرب المباني العظام والهياكل الجسام» قال : «ومن يوم مات المولى اسمعيل والملوك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور على قدر وسعهم وبحسب طاقتهم ويبنون بأنقاضها من خشب وزليج ورخام ولبن وقرمود ومعدن وغير ذلك الى وقتنا هذا ،

وبنيت من انقاضها مساجد ومدارس ورباطات بكل بلد من بلدان المغرب ، وما أتوا على نصفها هذه مدة من مائة سنة ، واما الجدران فلا زالت قائمة كالجبال الشوامخ وكل من شاهد تلك الآثار من سفراء الفرنج والروم يعجب من عظمته ويقول ليس هذا من عمل بني آدم ولا يقوم به مالِه اهـ

تاليف جيش عبيد البخاري وذكر اوليتهم وشرح تسميتهم

هذا الجيش من اعظم جيوش هذه الدولة السعيدة كما تقف عليه ، وكان السبب في جمعه ما وجد مفصلا في كناش كاتب الدولة الاسماعيلية ووزيرها الاعظم الفقيه الاديب أبي العباس احمد اليحمدي رحمه الله ، قال : لما استولى السلطان المولى اسمعيل بن الشريف على مراكش ودخلها أول مرة كان يكتب عسكرا من القبائل الاحرار حسبما مر حتى أتاه الكاتب أبو حفص عمر بن قاسم المراكشي المدعو عليليش ، وبيتهم بيت رياسة من قديم . وكان والده كاتبا مع المنصور السعدي ومع أولاده من بعده ، فتعلق أبو حفص هذا بخدمة السلطان المولى اسمعيل واصعه على دفتر فيه أسماء العبيد الذين كانوا في عسكر المنصور ، فسأله اسمعيل رحمه الله هل بقي منهم أحد ؟ قال : نعم ، كثير منهم ومن اولادهم وهم متفرقون بمراكش وأحوازها وقبائل الدير ، ولو أمرني مولانا بجمعهم لجمعتهم فولاه أمرهم وكتب له الى قواد القبائل بأمرهم بشد عضده واعانته على ما هو بصدده فأخذ عليليش يبحث عنهم بمراكش وينقر عن انسابهم الى أن جمع من بها منهم ، ثم خرج الى الدير فجمع من وجد به ، ثم سار الى قبائل الحوز فاستقصى من فيها حتى لم يترك بتلك القبائل كلها أسود ، سواء كان مملوكا أو حرطانيا أو حرا اسود ، واتسع الخرق وعسر الرتق فجمع في سنة واحدة ثلاثة آلاف رأس ، منهم المتزوج والعزب ثم كتبهم في دفتر وبعث به الى السلطان بمكناسة فتصفحه السلطان واعجبه ذلك فكتب اليه يأمره بشراء

الاماء للاعزاب منهم ، ويدفع أثمان المماليك منهم الى ملاكهم ويكسوهم من اعشار مراكش ، ويأتيه بهم الى مكناسة فاجتهد عليلش في ذلك واشترى من الاماء ما قدر عليه ، وجمع من الحرطانيين عددا الى ان استوفى الفرض وكساهم وألزم القبائل بحملهم الى الحضرة ، فحملوا من قبيلة الى اخرى الى ان وصلوا مكناسة ، فأعطاهم السلطان السلاح وولى عليهم قوادهم ، وبعث اليهم الى الموضع المعروف بالمحلة من مشرع الرملة من أعمال سلا .

ثم بعث السلطان كاتبه أبا عبد الله محمد بن العياشي المكناسي الى قبائل الغرب وبني حسن وأمره بجمع العبيد الذين بها فمن لا ملك لاحد عليه يأخذه مجانا ، ومن كان مملوكا لاحد فليعط صاحبه ثمنه ويحوزه منه فخرج ابن العياشي وطاف في تلك القبائل واستقصى كل أسود بها ، وكان السلطان قد كتب أيضا الى عماله بالامصار بأن يشتروا له العبيد والاماء من فاس ومكناسة وغيرهما من حواضر المغرب عشرة مثاقيل للعبد وعشرة مثاقيل للامة ، فاستوعبوا ما وجدوا حتى لم يبق عند أحد عبد ولا أمة ، فاجتمع مما اشتراه العمال ثلاثة آلاف أخرى ، فكساهم السلطان وسلحهم وبعث بهم الى المحلة بعد أن عين لهم قوادهم ، ثم ان ابن العياشي قدم بدفتر فيه ألفان من العبيد فيهم المتزوج والعزب ، فكتب السلطان الى القائد أبي الحسن علي بن عبد الله الريفي صاحب بلاد الهبط أن يشتري للاعزاب منهم الاماء ويكسوهم ويعطيهم السلاح من تطاوين ويعين لهم قوادهم ويبعث بهم الى المحلة، فصار المجموع ثمانية آلاف، وهذا العدد هو الذي نزل أولا بها.

ثم الزم السلطان قبائل تامسنا ودكالة أن يأتوا بعبيد المخزن الذين عندهم فلم يسعهم الا الامتثال ، فجمعوا كل عبد في بلادهم وزادوا بالشراء من عندهم ، واعطوهم الخيل والسلاح وكسوهم وبعثوا بهم اليه فمن تامسنا ألفان ، ومن دكالة الفان ، فانزلهم السلطان بوجه عروس من أحواز مكناسة الى ان بنى قصبة آدخسان فأنزل عبيد دكالة بها وانزل عبيد تامسنا بزاوية اهل الدلاء .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين والف فيها غزا السلطان المولى اسمعيل

صحراء السوس فبلغ آداوطاط وبيشيت وشنكيط وتخوم السودان فقدمت عليه وفود العرب هنالك من أهل الساحل والقبلة ومن دليم وبربوش والمغافرة وودي ومطاع وجرار وغيرهم من قبائل معقل وأدوا طاعتهم . وكان في ذلك الوفد الشيخ بكار المغفري والد الحرة خناثي أم السلطان المولى عبد الله بن اسمعيل ، فأهدى الشيخ المذكور الى السلطان ابنته خناثي المذكورة ، وكانت ذات جمال وفقه وادب ، فتزوجها السلطان رحمه الله وبنى بها وجلب في هذه الغزوة من تلك الاقاليم ألفين من الحراطين بأولادهم فكساهم بمراكش وسلحهم ، وولى عليهم ، وبعث بهم الى المحلة وقفل هو الى حضرته من مكناسة فكان عدد ما جمع من العسكر البخاري أربعة عشر ألفا ، عشرة آلاف منها بمشرع الرملة وأربعة آلاف بالدخان وما والاها من بلاد البربر ، ثم عقبوا وتناسلوا وكثروا حتى ما مات المولى اسمعيل الا وقد بلغ عددهم مائة وخمسين ألفا كما سيأتي ان شاء الله .

واعلم أنه قد وقع في هذه الاخبار لفظ الحرطاني ، ومعناه في عرف أهل المغرب : العتيق ، وأصله الحر الثاني كأن الحر الاصلي حر أول وهذا العتيق حر ثان ثم كثر استعماله على الالسنة فقيل الحرطاني على ضرب من التخفيف .

وأما سبب تسمية هذا الجيش بعبيد البخاري : فان المولى اسمعيل رحمه الله لما جمعهم وظفر بمراده بعصبيتهم واستغنى بهم عن الانتصار بالقبائل بعضهم على بعض حمد الله تعالى وأثنى عليه، وجمع أعيانهم وأحضر نسخة من صحيح البخاري وقال لهم : « أنا وأنتم عبيد لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرعه المجموع في هذا الكتاب ، فكل ما أمر به نفعله وكل ما نهى عنه نتركه وعليه نقاتل » فعاهدوه على ذلك ، وأمر بالاحتفاظ بتلك النسخة وأمرهم أن يحملوها حال ركوبهم ويقدموها أمام حروبهم كتابوت بني اسرائيل ، وما زال الامر على ذلك الى هذا العهد ولهذا قيل لهم عبيد البخاري .

قال في « البستان » : « كان مآل هذا العسكر البخاري مع أولاد

أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله مثل ما آل الترك مع أولاد المعتصم ابن الرشيد العباسي في كونهم استبدوا عليهم وصاروا يولون ويعزلون ويقتلون ويستحيون الى أن تم أمر الله فيهم وتلاشى جمعهم وتفرقوا في البلاد شذر مذر ، وما أحياهم الا السلطان المرحوم المولى محمد بن عبد الله ولما عفوا وكثروا خرجوا عليه بابنه المولى يزيد وفعلوا فعلهم التي فعلوها من قبل حسبما تسمعه بعد ان شاء الله .

غزو امير المؤمنين المولى اسماعيل بلاد الشرق وانعقاد الصلح بينه وبين دولة الترك اهل الجزائر

ثم غزا أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله بلاد الشرق فترك تلمسان عن يساره ، وأصحر في ناحية القبلة فقدمت عليه عمائك وفود العرب من ذوى منيع ودخيسه وحميان والمهاية والعمور وأولاد جرير وسقونه وبنى عامر والحشم ، فسار بهم الى أن نزل القويعة على رأس وادي شلف المسمى اليوم بوادي صا ، وكان رائده اليها والدال له عليها هم بنو عامر بن زغبة فخرج جيش الترك مع ثغر الجزائر بقضهم وقضيضهم ومدافعهم ومهاريسهم ، ونزلوا على وادي شلف قبالة السلطان رحمه الله، ولما كان وقت العشاء أرعدوا مدافعهم ليدهشوا العرب الذين مع السلطان فكان الامر كذلك ، فانه لما انتصف الليل انسل بنو عامر من محلة السلطان وأصبحت الارض منهم بلاقع ، ولما أصبح بقية العرب وعلموا بفرار بني عامر انهزموا دون قتال ، ولم يبق مع السلطان الا عسكره الذي جاء به من المغرب ، فكان ذلك سبب تأخره عن حرب الترك وقفوله الى حضرته، وكاتبه الترك في ان يتخلى لهم عن بلادهم ويقف عند حد أسلافه ، ومن كان قبلهم من ملوك الدولة السعدية فانهم ما زاحموهم قط في بلادهم ،

وبعثوا اليه بكتاب اخيه المولى محمد بن الشريف الذى كان بعث به اليهم مع رسلهم حسبما تقدم ، وبكتاب أخيه المولى الرشيد الذى فيه الحد بينه وبينهم ، فوقع الصلح على ذلك الحد الذى هو وادى تافنا .

ولما قفل السلطان رحمه الله ومر فى طريقه بمدينة وجدة أمر ببنائها وتجديد ما تثلم منها ، ثم قفل الى فاس ثم منها الى الحضرة بمكناسة الزيتون ، وكان ذلك كله سنة تسع وثمانين وألف .

خروج الاخوة الثلاثة من اولاد المولى الشريف بن علي بالصحراء وما كان من امرهم

وفى أواخر رمضان سنة تسع وثمانين وألف بلغ السلطان رحمه الله وهو بمكناسة خروج اخوته الثلاثة المولى الحران ، والمولى هاشم ، والمولى أحمد بنى الشريف بن على مع ثلاثة آخرين من بنى عمهم ، وأنهم تدرجوا الى آيت عطاء من قبائل البربر ، فنهض اليهم السلطان رحمه الله بالعساكر وسلك طريق سجلماسة فكان اللقاء بجبل ساغرو فى عشرين من ذى الحجة من السنة ، فالتقى جيش السلطان وجيش الخارجين ومعهم آيت عطاء ، فاقتتلوا ، وكان الظفر للسلطان بعد أن هلك من جيشه لا من رماة فاس بالخصوص نحو أربعمائة دون من عداهم ، وهلك قائد العسكر موسى ابن يوسف ، وانهزم الاخوة وأبعدوا المفر الى الصحراء .

وكان فى تلك السنة وباء عظيم قد انتشر فى بلاد المغرب ، فرجع السلطان على طريق القايجة ، فأصابه ثلج عظيم بثنية الكلاوى من جبل درن أهلك الناس وأتلف متاعهم وأخبيتهم ، وما تخلصوا منه الا بمشقة فادحة :

ولما نزلت العساكر بزاوية الشيخ أبى العزم سيدى رحال الكوش

مدوا أيديهم الى أموال الناس وذروعهم بالنهب لما مسهم من ضرر الجوع ، فشكا الناس ذلك الى السلطان فأمر بقتل كل من وجـد خارج المحلـة ، فقتل في ذلك اليوم من الجيش نحو الثلاثمائة ، ثم أمر بجر الوزير أبي زيد عبد الرحمن المنزوي لامر نقمه عليه وقتل أصحابه بالرصاص فجـر الوزير المذكور الى فاس ومكناسة ولم يصل اليهما الا بعض شلوه فطـرح على المزبلة ، ووصل السلطان الى مكناسة فاحتل بدار ملكه واقتعد أريكـة عـزه .

ثم دخلت سنة تسعـين والف ففي المحرم منها وقع الوبـاء بفـاس وأعمالها ، فأمر السلطان العبيدان يردوا الناس عن مكناسـة ، فكانـوا يتعرضون لهم في الطرقات بناحية سو وسايس يردونهم عن مكناسة ، وكل من يأتي من ناحية القصر وفاس يقتلونه ، فانقطعت السبل وتعذرت المرافق

وفي أواخر المحرم من هذه السنة أوقع جيش المسلمين بنصـارى طنجة فقتلوا منهم نحو ثلاثمائة وخمسين ، وانتزعوا منهم قصبة بأربعـة أبراج واستشهد من المسلمين نحو الخمسين رحمهم الله .

نقل زرارة والشبانات الى وجدة وبناء القلاع بالتخوم وما تخلل ذلك

وفي هذه السنة التي هي سنة تسعين وألف أمر أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله بنقل عرب زرارة والشبانات قوم كروم الحاج من الحوز الى وجدة لما كانوا عليه من الظلم والفساد في تلك البلاد ، فأنزلهم بوجدة ثغر المغرب وكتبهم في الديوان ، وولى عليهم أبا البقاء العباسي بن الزويعر الزراري ، وتقدم اليه في التضييق على بني يزناسن اذ كانوا يومئذ منحرفين عن الدولة ومتمسكين بدعوة الترك ، فكان زرارة والشبانات يغيرون عليهم ويمنعونهم من الحرث ببسيط آنكاد ، وأمر السلطان رحمه الله أن تبنى

عليهم قلعة من ناحية الساحل قريبة وجدة بالموضع المعروف بركادة ، وأمر القائد العياشي أن ينزل بها خمسمائة فارس من اخوانه يمنعونهم النـزول ببسيط تريفة والارتفاق به من حرث وغيره ، ثم أمر رحمه الله أن تبنى قلعة أخرى بطرف بلادهم بالعيون ، وينزل بها القائد المذكور خمسمائة أخرى من اخوانه أيضا ، وأمر ان تبنى قلعة ثالثة بطرف بلادهم على ملوية وينزل بها خمسمائة فارس كذلك ، وجعل للقائد العياشي المذكور النظر في القلاع الثلاث وهو بوجدة في ألف فارس فكانوا في الكل ألفين وخمسمائة .

ثم دخلت سنة احدى وتسعين وألف ففي جمادي الثانية منها خرج السلطان من الحضرة في الجنود قاصدا بني يزناسن الذيـن تمادوا على العصيان فاقتحم عليهم جبلهم ، واعتسف ربوعهم وانتسف زروعهم وضروعهم ، وحرق قراهم ، وقتل رجالهم وسبى ذراريهم ، فطلبوا الأمان فأمن بقيتهم على أن يدفعوا الخيل والسلاح التي عندهم فدفعوها من غير توقف ، وقاموا بمعونة جبرا عليهم ، ثم نزل بسيط أنكاد وحضر عنده قبائل الأحلاف وسقونة فأرجلهم من خيولهم وجردهم من سلاحهم وانتزعها منهم ، وألزم أشياخهم أن يجمعوا له ما بقي بحسب منها ففعلوا ثم نزل بالمهاية وحمان كذلك ، واكتفأ راجعا الى المغرب .

ولما نزل وادي زا أمر ببناء قلعة تاوريرت التي بناها السلطان يوسف ابن يعقوب بن عبد الحق المريني فجددها وأنزل فيها مائة فارس من عبيده بعيالهم وأولادهم ، ولما نزل بوادي ملوية أمر أن يبنى به قلعة أخرى بجوار القديمة وأنزل فيها مائة فارس من العبيد كذلك ، ثم أنزل بتازا ألفين وخمسمائة من خيل العبيد بعيالهم وولى عليهم منصور بن الرامي وجعل نظر القلاع التي بتازا ووادي زا للقائد منصور المذكور ، وعين لكل قبيلة من قبائل تلك البلاد قلعتها التي تدفع بها زكواتها وأعشارها لمؤنة العبيد وعلف خيولهم ، وهم حراس الطرق فمن وقع في أرضه شيء عوقب عليه قائد تلك القلعة . ولما وصل السلطان الى الكوز أمر أن

بنى به قلعة أيضا وأنزل بها مائة فارس من عبيده بعيالهم .

ولما انتهى الى فاس أنزل بقصبة الخميس التي بنى سورها المولى الرشيد خمسمائة من الجبل بعيالهم من شراقة العرب والبربر الذين قدموا مع المولى الرشيد رحمه الله حسبما تقدمت الاشارة اليه .

ثم أمر رحمه الله ببناء قلعة بالمهدومة وأخرى بالجديدة من أعمال مكناسة وأنزل بكل واحدة مائة من خيل العبيد بعيالهم لحراسة الطرقات وبكل قلعة فندق لمبيت القوافل وأبناء السبيل . ثم دخل السلطان رحمه الله حضرته مؤيدا منصورا وذلك في خامس شعبان سنة احدى وتسعين وألف .

فتح المهدية ومحاربة ابن محرز بالسوس وما تخلل ذلك

قد تقدم لنا ما كان من استيلاء جنس الاصبنيول على المعمورة المسماة بالمهدية في حدود العشرين بعد الالف وما كان بينهم وبين أبي عبد الله العياشي وأهل سلا من الحروب . واستمروا بها الى أن كانت سنة اثنين وتسعين وألف . ففتحها جيش السلطان المولى اسمعيل رحمه الله .

قال في « النزهة » : « ومن محاسن الدولة الاسماعيلية تنقية المغرب من نجاسة الكفر ورد كيد العدو عنه . قال وقد فتح السلطان المولى اسمعيل عدة مدن من يد النصارى كانت من مفاسد المغرب . ولم يهنأ للمسلمين معهم قرار . من ذلك المعمورة فانه رحمه الله قد افتتحها عنوة بعد أن حاصرها مدة وكان فتحها يوم الخميس رابع عشر ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين وألف وأسر بها نحو الثلاثمائة من الكفار » اه وقال في « نشر المثاني » : « كان فتح المهدية عنوة عند صلاة الجمعة خامس عشر ربيع الثاني من السنة قبل بقتال وقيل بدون قتال وانما أخذت بقطع الماء عنها وحيزت بالنصارى الذين كانوا بها أسارى ولم يصب أحد من المسلمين .

وقال في « البستان » : وفي سنة اثنتين وتسعين وألف ورد الخبر على

السلطان اسمعيل بان ابن أخيه المولى أحمد بن محرز الذي بالسوس قد استولى على بلاد آيت زينب وقويت شوكته ، فأمر السلطان رحمه الله بفريق الراتب وتجهيز العساكر اليه من فاس ، وتوجهت في ثامن ربيع الاول من السنة ، ثم بلغه أن العسكر المحاصر للمهدية قد اشرف على فتحها وتوقفوا على حضوره ، فنهض رحمه الله اليهم حتى حضر الفتح ، واخرج رئيس النصارى فامنه وامن أصحابه وكانوا ثلاثمائة وستة انفس ، وأما الغنيمة فقد احرزها المجاهدون من أهل الفحص والريف الذين كانوا مرابطين عليها مع القائد عمر بن حدو البطوئي ، ورجع السلطان الى مكناسة بعد أن أنزل بالمهدية طائفة من عبيد السوس لعمارتها وسد فرجتها ، وحضر هذا الفتح جماعة من مطوعة أهل سلا منهم الولي الصالح أبو العباس سيدي أحمد حجي من صلحائها المشهورين بها . واعلم أن السور المعادي الذي اليوم بالمهدية هو من بناء البرتقال أيام استيلائهم عليها في دولة الوطاسيين كما مر .

ولما فرغ المجاهدون من أمر المهدية ارتحلوا مع أميرهم عمر بن حدو فأصابه الوباء فمات في الطريق ، وتولى رئاسة المجاهدين أخوه القائد أحمد ابن حدو ، تقسمها هو والقائد أبو الحسن علي بن عبد الله الريفي ، وكان أولاد الريفي هؤلاء من الشهرة في الجهاد والمكانة في الشجاعة ومكابدة الحرب بمنزلة أولاد النقسيس وأولاد أبي الليف وأضرابهم رحم الله الجميع .

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وألف فيها غزا السلطان بلاد الشرق ، فنهب بني عامر ورجع الى مكناسة ، وأمر باخراج أهل الذمة من المدينة ، وبنى لهم حارة خارجها بالموضع المعروف بريمة ، وكلف أهل تافيلالت الذين بفاس بالرحيل الى مكناسة والسكنى بحارة اليهود القديمة التي أخليت ، فلم يزل أهل تافيلالت يدفعون ارسالا ويسكنونها بالكراء حتى ضاقت بهم .

ثم بلغه أن الترك قد خرجوا بعسكرهم واستولوا على بني يزناسن وعلى دار ابن مشعل ، وأنهم قد مدوا يد الوفاق الى ابن محرز وراسلوه وراسلهم

وابرم كلامهم معه على حرب السلطان ، وبلغه مثل ذلك من نائبه بمراكش ، فكتب اليه ان يحتاط في حراسة مراكش ، ويأخذ بالحزم في ذلك ، ويقيم في نحر ابن محرز الى ان يرجع السلطان من غزو تلمسان ، ثم خرج رحمه الله بالعساكر لمصادمة الترك فوجدهم قد رجعوا الى بلادهم لما بلغهم من خروج النصارى بشرشال ، فساروا اليهم وفتكوا فيهم فتكة بكرا وردوهم على أعقابهم صاغرين ، ورجع السلطان رحمه الله من وجهته . وقد دخلت سنة أربع وتسعين وألف فسار على تفئته الى مراكش . فأراح بها ، ثم نهض منها الى السوس فالتقى بابن أخيه المولى أحمد بن محرز في أواخر ربيع الثاني من السنة ، وقامت الحرب بينهما على ساق ، واستمر القتال نحوا من خمسة وعشرين يوما هلك فيها من الفريقين مالا يحصى ، ودخل ابن محرز تارودانت فتحصن بها ، وكان الوقت وقت غلاء فضاق الامر على أهل الحركة ، فجعلوا يهربون وكثر فيهم السجن والضرب والرد اليها في الحين ، ثم كان بينهما حروب أخرى هلك فيها خلق كثير نحو الفين وجرح السلطان ، وجرح ابن محرز أيضا ، وذلك في أواسط جمادى الآخرة من السنة ، واستمر الحال على ذلك الى رمضان من السنة .

قال أبو عبد الله الكندوزي حدثني بعض الثقات أن السلطان المولى اسمعيل رحمه الله لما اعياه أمر ابن اخيه المذكور أصبح ذات يوم دهشا كئيبا فقال لوزيره الفقيه أبي العباس اليحمدي : اني رأيت في هذه الليلة رؤيا أحزنتني الى الغاية ، فقال : « وماهي يامولاي ؟ وعسى أن تكون خيرا » قال : « رأيت كأن هذه الجنود التي معنا ما بقي منها أحد ولم يبق إلا أنا وأنت مختفين في غار مظلم فسجد الوزير اليحمدي شكرا لله تعالى وأطال السجود ثم رفع رأسه وقال : « أبشر يامولانا فقد نصرنا الله على هذا الرجل » فقال له السلطان : « ومن أين لك ذلك ؟ » فقال له : « من قوله تعالى ثاني اثنين إذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا . قال عليه الصلاة والسلام : ‹ فما ظنك باثنين الله ثالثهما › فسر السلطان بذلك غاية السرور ، وانسرى عنه ما كان يجده من الغم . وعلم أن رؤياه بشارة من الله تعالى له ،

وعلى إثر ذلك وقع الصلح بينهما في رمضان ، ورجع السلطان إلى حضرته فدخلها في أواخر ذي القعدة من السنة المذكورة .

امتحان القضاة والسبب فيه

قال العلامة القادري في « الأزهار الندية » : « وفي هذه السنة أعني سنة أربع وتسعين وألف أمر السلطان بالقبض على جميع القضاة وامتحنوا ووصفوا بالجهل وسجنوا في مشور فاس الجديد حتى يتعلموا ما لا بد منه من أحكام ما هم مدفوعون اليه ، ثم أخرجوا أيام المولد الكريم الى مكناسة فهددوا بها أيضا حتى أمر بحبس بعضهم أو قتله ثم أطلقوا معزولين » اهـ قال أكنسوس : « ولعل المراد بهم قضاة البوادي ومن في معناهم » قلت : ولم أر في الازهار شيئا من هذا ولعله في نسخة الاصل لانهم ذكروا انهما نسختان احداهما مختصرة من الاخرى والله أعلم

غزو البربر وبناء القلاع بإزاء معاقلهم

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وألف فيها خرج السلطان في العساكر الى جبال فزاز لحرب صنهاجة من البربر الذين هنالك ، فلما سمعوا بخروج السلطان انهزموا الى ملوية ، فدخل السلطان بلادهم واختط قلعة بعين اللوح بسفح جبلهم ، ثم نزل بعين آصرو فأمر ببناء قلعة هنالك بسفح الجبل أيضا ، ثم تبع آثارهم الى أن دخلوا جبل العياشي ، وتربص رحمه الله بملوية الى أن دخل فصل الشتاء ، وكان قصده بذلك التربص اتمام سور القلعتين ، ولما عزم على الرجوع أنزل بقلعة آصرو ألف فارس ، وبقلعة عين اللوح خمسمائة فارس فاحتذوا بمخنقهم ، واستراح الناس من عيثهم ببسيط سائس ، ولما منعوا من السهل وانقطعت عنهم الميرة وقلت الاقوات خشعوا ونزل وفدهم فقدموا

مكناسة على السلطان تائبين فأمنهم على شرط دفع الخيل والسلاح والاشتغال بالحرث والنتائج ، فدفعوها عن يد وهم صاغرون ، وهؤلاء هم آيت ادراسن ، فأعطاهم السلطان رحمه الله عشرين ألفا من الغنم ألزمهم برعايتها وحفظها ، وأسقط عنهم الوظائف فصلحت أحوالهم ، وصاروا في كل عام يدفعون صوفها وسمنها ويزيدهم الغنم الى أن بلغ عددها ستين ألفا وفلت شوكتهم وذهب بأسهم .

فتح طنجة

قد تقدم لنا أن طنجة صارت الى جنس النجليز من يد البرتقال ، واستمرت بيده الى سنة خمس وتسعين وألف ، فعقد السلطان المولى اسمعيل رحمه الله للقائد أبي الحسن علي بن عبد الله الريفي على جيش المجاهدين ووجهه لحصار طنجة ، فضيقوا على من بها من النصارى وطاولوهم الى أن ركبوا سفنهم وهربوا في البحر ، وتركوها خاوية على عروشها ، وذلك في ربيع الاول سنة خمس وتسعين وألف قاله في « الزهرة » وقال في « البستان » لما ضاق الامر على النصارى الذين بطنجة وطال عليهم الحصار خربوها وهدموا أسوارها وأبراجها وركبوا سفنهم وتركوها فدخلها المسلمون من غير طعن ولا ضرب وشرع قائد المجاهدين علي بن عبد الله الريفي في بناء ما تهدم من أسوارها ومساجدها في فاتح جمادى الاولى من السنة، قلت وأعقاب هذا القائد لازالوا اليوم بطنجة وكثيرا ما تكون فيهم الرياسة هنالك .

ثم اتفق أن نشب بقرب ساحلها مركب قرصاني جاء مددا لاهل سبتة فيه أموال وبضائع فحارب المسلمون أهله عليه واحتووا على ما فيه ، وألزم السلطان قبيلة غمارة بجر مدافعه النحاسية الى مكناسة ، وأرسل الرماة من أهل فاس لجرها أيضا فأتوا بها لاربعين يوما والله غالب على أمره .

غزو البربر ثانيا وبناء القلاع في نحورهم

ثم دخلت سنة ست وتسعين وألف فيها خرج السلطان غازيا بلاد ملوية، وجعل طريقه على مدينة صفرو ، ففرت قبائل البربر الى رؤوس الجبال وهم آيت يوسي وشغروشن وأيوب وعلاهم وقدم وحيون ومديونة ، فأمر السلطان ببناء قلعة بآعليل وأخرى على وادي كيكو من أسفله ، وأخرى على وادي سكورة وأخرى على وادي تاشواكت ثم خرج السلطان بملوية ففرت القبائل المذكورة الى جبل العياشي وتفرقوا في شعابه ، فأمر ببناء قلعة بدار الخميس ، وقلعة بتابهوست ، وقلعة بقصر بني مطير ، وقلعة بوطواط ، وقلعة بالقصابي ، وأقام على نهر ملوية يبث السرايا ويشن الغارات على البربر قريبا من سنة والعمل مستمر في بناء القلاع الى أن أكملت أسوارها ، وأنزل رحمه الله بكل قلعة أربعمائة من خيل العبيد بعيالهم ، وجاءته وفود البربر تائبين طائعين فأمنهم على شرط دفع الخيل والسلاح فدفعوها ، وصفا به رحمه الله هذا الربع الشرقي من جبل درن والله ولي التوفيق بمنه .

مقتل المولى احمد بن محرز وفتح تارودانت وما يتصل بذلك

وفي هذه السنة أعني سنة ست وتسعين وألف بلغ السلطان المولى اسمعيل رحمه الله وهو بمكناسة أن أخاه المولى الحران ، وابن أخيه المولى أحمد بن محرز قد دخلا قصبة تارودانت واستحوذا على تلك الجهات ، فنهض اليهما ووالى السير حتى أناخ بكلكله على تارودانت وحاصرهما بها أياما ، فاتفق أن ابن محرز خرج ذات يوم في جماعة من عبيده لزيارة بعض الاوليا فلقيه جماعة من زرارة أصحاب السلطان فلم يعرفوه ، وظنوا أنه بعض قواد ابن محرز فشدوا عليه فناصحهم هنيئة ثم قتلوه فاذا هو ابن محرز .

ولما اتصل الخبر بالسلطان خرج حتى وقف عليه فعرفه ، وأمر بتجهيزه ودفنه ، فدفن مع الغرناطي أحد قواد الجيش ، وكان قد قتل ذلك اليوم ، وكان مقتل المولى أحمد رحمه الله في أواسط ذي القعدة سنة ست وتسعين وألف بعد تثقيه على السلطان أربع عشرة سنة ، ثم بعد أيام خرج أهل تارودانت ليلا الى قبر المولى أحمد فنبشوه ونبشوا قبر الغرناطي لانه كان قد التبس عليهم به فاستخرجوهما معا حتى عرفوا المولى أحمد فحملوه في تابوته، وتركوا الغرناطي على شفير قبره ، واستمر المولى الحران محصورا بتارودانت والحرب قائمة على ساق الى أن دخلت سنة سبع وتسعين وألف، فكانت حرب هلك فيها نحو السمائة نفس من الجند منهم القائد زيتون ، والباشا حمدان وغيرهما ، ثم كانت حرب أخرى أعظم من الاولى ثم ثالثة كذلك هلك فيها القائد أبو زيد عبد الرحمن الروسي ، وتولى مكانه ابن الغرناطي ، واستمر الحال بها الى جمادى الاولى من سنة ثمان وتسعين وألف ففتحها السلطان تارودانت عنوة بالسيف واستباحها ، واستولى عليها وفر المولى الحران الى حيث أمن على نفسه .

ولما اتصل خبر الفتح بأهل فاس عنوا وفدا من كبرائهم وأشرافهم وعلمائهم فقدموا على السلطان بقصد التهنئة بقدومهم وسيده المولى محمد بن اسمعيل ، فأكرم وفادتهم ، وخرج أولاد النقسيس من سبتة ، وكانوا قد لجأوا اليها بعد مقتل الخضر غيلان، فقدموا على السلطان بعسكره من تارودانت فأمر بردهم الى تطاوين وقتلهم بها ، وأمر بقتل من كان منهم مسجونا بفاس فقتلوا أجمعون رحمهم الله ، ثم دخلت سنة تسع وتسعين وألف فيها قفل السلطان من السوس فدخل دار ملكه مكناسة واستقر بها ، وبعث الى عامل فاس أن يخرج من بها من أهل الريف الى تارودانت بقصد عمارتها والسكنى بها، وفي خامس جمادى الاولى من السنة استدعى السلطان فقهاء فاس لحضور ختم التفسير عند قاضيه ابي عبد الله المجاصي فحضروا وأكرمهم ووصلهم .

غزو برابرة فازاز وبناء قلعة آدخسان

لما تهيأ السلطان رحمه الله لغزو أهل جبل فازاز نهض اليهم ، وصعد الجبل من الناحية الغربية فأول من قدم عليه من برابرته بالطاعة زمور وبنو حكم فولى عليهم رئيسهم باشى القبلي فاستصفى منهم الخيل والسلاح، ثم تجاوزهما الى المال فاستصفاه أيضا ، وجمع ذلك كله وقدم به على السلطان وهو ببسيط آدخسان ، فقدمه اليه فأنكر السلطان عليه ذلك ، وقال له : « ما حملك على ما فعلت ولم آمرك به ؟ » فقال له : « يامولانا ان كان غرضك هو صلاحهم وفلاحهم فهو الذى فعلت لك ولهم ، وان سرت معهم بغير هذا أتعبوك وأتعبوا أنفسهم ، وانما طهرتهم من الحرام ليشتغلوا باكتساب الحلال فانه ينمو ويزكو » فاستحسن السلطان قوله وأمضى فعله ، وأقام رحمه الله بآدخسان يحارب آيت ومالو سنة كاملة حتى بنى قلعة آدخسان الجديدة بمحل القديمة التي كان بناها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين رحمه الله وخربت ، ولما دخل فصل الشتاء أنزل بالقصبة ألفا وخمسمائة فارس من عبيد أهل دكالة الذين كانوا بوجه عروس نقلهم اليها بأولادهم ، وأنزل بزاوية أهل الدلاء ألفا وخمسمائة فارس من عبيد الشاوية الذين كانوا بوجه عروس أيضا نقلهم بعيالهم وأمرهم بحصار البربر ومنعهم من النزول للمرعى والحرث ونحوهما ، ثم قفل الى مكناسة . قال صاحب « البستان » ، وهو أبو القاسم الزياني: وفي هذه المرة نقل معه جدنا الفقيه الاستاذ أبا الحسن علي بن ابراهيم بأولاده الى مكناسة ، وسبب ذلك أنه لما نزل بآدخسان واجتمع عليه الاشراف الذين بآركو قال لهم : « دلوني على رجل صاحب فقه ودين يؤمني في الصلوات » فقالوا له : « ليس بهذا الجبل أتقى من سيدي علي بن ابراهيم » فأتوا به فكان امامه في المحلة ، ولما قفل اخذه معه قال : « فهذا سبب انتقال جدنا من آركو الى الحضر » اهـ

بيان تربية أولاد عبيد الديوان وكيفية تدريبهم

قد قدمنا ان جمهور عبيد البخاري كانوا بالمحلة من مشرع الرملة وانهم تناسلوا بها وكثروا الى الغاية فلما كانت سنة مائة والف أمر السلطان رحمه الله اولئك العبيد أن يأتوه بأبنائهم وبناتهم من عشر سنين فما فوق ، فلما قدموا عليه فرق البنات على عريفات داره ، كل طائفة فسي قصر للتربية والتأديب ، وفرق الاولاد على البنائين والنجارين وسائر أهل الحرف للعمل والخدمة وسوق الحمير والتدرب على ركوبها ، حتى اذا أكملوا سنة ، نقلهم الى سوق البغال الحاملة للآجر والزليج والقرمود والخشب ونحو ذلك ، حتى اذا اكملوا سنة ، نقلهم الى خدمة المركز وضرب ألواح الطابية ، حتى اذا أكملوا سنة ، نقلهم الى المرتبة الاولى في الجندية ، فكساهم ودفع اليهم السلاح يتدربون به على الجندية وطرقها ، حتى اذا أكملوا سنة ، دفع اليهم الخيل يركبونها أعراء بلا سروج ويجرونها في الميدان للتمرس بها والتدرب على ركوبها ، حتى اذا اكملوا سنة ، وملكوا رؤوسها دفـع اليهم السروج فيركبونها بها ويتعلمون الكر والفر والثقافة في المطاعنـة والمراماة عـلى صهواتها ، حتى اذا أكملوا سنة بعد ذلك ، صاروا في عداد الجند المقاتلة ، فيخرج لهم السلطان البنات اللاتي قدمن معهم ويزوج كل واحد من الاولاد واحدة من البنات ، ويعطي الرجل عشرة مثاقيل مهر زوجته ، ويعطي المرأة خمسة مثاقيل شورتها ، ويولي عليهم واحدا من آبائهم الكبار ، ويعطي ذلك القائد ما يبني به داره وما يبني به أخصاص أصحابه وهي المعروفة عندنـا بالنوايل ، ويبعث بهم الى المحلة بعد ان يكتبوا في ديوان العسكر ، واستمر الحال هكذا ففي كل سنة يأتي من المحلة عدد صغير ويتوجه اليها من عند السلطان عدد كبير ، من سنة مائة والف الى أن توفي السلطان رحمـه الله في التاريخ الآتي ، فبلغ عدد هذا العسكر البخاري مائة ألـف وخمسين ألفا ، منها ثمانون الفا مفرقة في قلاع المغـرب لعمارتها وحراسة طرقهـا

وسبعون ألفا بالمحلة ، وعدد القلاع التي بناها المولى اسمعيل رحمه الله بالمغرب ست وسبعون قلعة لا زالت قائمة العين والاثر بآفاق المغرب يعرفها الخاص والعام الى الآن ، هكذا وجد في كناش كاتب الدولتين الرشيدية والاسماعيلية الفقيه أبي الربيع سليمان بن عبد القادر الزرهوني ، المتوفى بتارودانت سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف ، وكان عنده دفتر العسكر كله سواء السواد الاعظم والمتفرق في قلاع المغرب .

قال صاحب «البستان» : «وأين هذا مما نقله المؤرخون على وجه الغرابة : من ان الخليفة المعتصم بن الرشيد رحمهما الله بلغ عدد مماليكه الذين اشتراهم والذين جلبهم من بلاد الترك ثمانية عشر الفا» قال : وهذا العدد الذي جمعه أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله من العبيد لو خاض به البحر الى الاندلس وكانت تلك القلاع سفنا ومراكب جهادية لاستولى عليها والتوفيق من الله» اه قلت : وهو لعمري كلام مقبول لكن الانسان مجبور في قالب مختار وتصاريف الامور جارية بيد الله لا بيد غيره وما ترك من الجهل شيئا من اراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهره الله فيه ، وقال الشاعر :

لا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

وقال الآخر :

لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك في أحشائه

وقال :

واذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

ومن أمثال العامة : «القاعد على الجرف محسن للسباحة» ، هذا كله بالنظر الى الحقيقة ، فأما الشريعة فقد قال تعالى : «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» الآية وعلى كل حال فلا يسوغ للانسان أن يهمل الاستعداد المأمور به شرعا ، ويكل الامر الى القدر ، والا فيكون مخطئا مخالفا للشرع والطبع قال صلى الله عليه وسلم للاعرابي الذي ترك ناقته مرسلة : «أعقلها وتوكل» وقال الشاعر :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه　　وليس عليه أن يساعده الدهر

اللهم انا نسألك العفو والعافية والتوفيق واللطف فيما جرت به المقادير ، يانعم المولى ونعم النصير

فتح العرائش

وفي هذه السنة أعني سنة مائة وألف في آخر شوال منها سار القائد أبو العباس أحمد بن حدو البطوئي في جماعة من المجاهدين لحصار العرائش وكان الاصبنيول خذله الله قد استولى عليها على يد الشيخ ابن المنصور السعدي كما مر ، فنزل القائد أبو العباس المذكور عليها وضيق على الكفار الذين بها وحاصرهم نحوا من ثلاثة أشهر ونصف كذا في «النزهة» وقال المؤرخ مويل : «ان مدة الحصار كانت خمسة اشهر» قال وكان طاغية الفرنسيس ، وهو لويز الرابع عشر ، قد أعان المولى اسمعيل على فتح العرائش وحاصرها بحرا بخمس فراقط وقطع عنها المادة مدة ثم أقلع عنها ثم بعد ذلك كان الفتح ، قال في « النزهة » : فتحها المسلمون بعد معاناة شديدة وذلك أنهم حفروا الميان تحت خندق سورها الموالي للمرسى وملأوها بارودا ثم أوقدوها بالنار فتفطت وسقط جانب من السور فاقتحم المسلمون منه وتسلقوا الى ما كان من النصارى على الاسوار فوقعت ملحمة عظيمة ، وفر باقيهم الى حصن القبيبات الذي بناه المنصور السعدي واعتصموا به يوما وليلة ، فخامر قلوبهم الجزع وطلبوا الامان ، فأمنهم القائد أبو العباس المذكور على حكم السلطان ، فنزلوا عليه ، فأخذوا أسارى بأجمعهم ولم يعتق منهم الا اميرهم وحده ، وتم الفتح وذلك يوم الاربعاء الثامن عشر من المحرم سنة احدى ومائة والف . وما في «البستان» وقلده صاحب «الجيش» : ان نصارى العرائش اعتصموا بحصن القبيبات سنة كاملة خطأ لا يعول عليه .

وكان عدد نصارى العرائش قبل الاستيلاء عليهم ثلاثة آلاف ومائتين ولما ظفر بهم المسلمون أسروا منهم نحو الفين، وقتلوا منهم اثني عشرة مائة، ووجد بها من البارود والعدة ما لا يحصى كثرة، فمن المدافع نحو مائة وثمانين منها اثنان وعشرون من النحاس والباقي من الحديد، ومنها مدفع يسمى: الغصاب طوله خمسة وثلاثون قدما بالحساب. ووزن كرته خمسة وثلاثون رطلا بحيث حلق عليه بقرب خزانته أربعة رجال. كذا سمع من المشاهدين لذلك بعد السؤال. كذا في النزهة قال منويل في كتابه: ان النصارى ما أسلموا أنفسهم حتى شرطوا شروطا معتبرة لكن السلطان نكث. ثم قلت: قد حكى القاضي أبو القاسم العميري في فهرسته ما حاصله: ان نصارى العرائش ادعوا ان الفتح المذكور انما كان صلحا وتأمينا لا عنوة، ثم لما طال النزاع في ذلك أمر السلطان قاضي حضرته المكناسية أبا عبد الله محمد المعروف بأبي مدين ببيان الحكم في ذلك فأجاب جوابا طويلا حرر فيه حكم الشريعة المحمدية بما لا غاية فوقه، وحكم على اولئك النصارى بالاسر، وقد ذكر ذلك بتمامه في الفهرسة المذكورة فلينظر هنالك. وأمر السلطان رحمه الله باشخاص اولئك النصارى الى مكناسة الزيتون وكانوا ألفا وثمانمائة على ما في البستان، فكان يستخدمهم مع غيرهم من المساجين والاسرى في بناء قصوره بالنهار، ويبيتون ليلا في الدهليز، وهو في عرف المغاربة جرى تحت الارض، وأسكن السلطان رحمه الله أهل الريف بالعرائش، وأمر قائدهم ان يبني بها مسجدين وحماما وبنى داره بقلعتها

وفي فتح العرائش أنشد الخطيب البليغ أديب فاس ومفتيها أبو محمد عبد الواحد بن محمد الشريف البوعناني فقال:

الا أبشر فهذا الفتح نور	قد انتظمت بعزكم الامور
وطير السعد نادى حيث غنى	قد انشرحت بفتحكم الصدور
وضوء النصر ساعده التهاني	ونور الفخر نحوكم يدور
وقد وافتكم الخيرات طرا	وطاب العيش واتصل السرور
حميتم بيضة الاسلام لما	بعين الحق قد حرس الثغور

وجاهدتم وقاتلتم فأنتم ... لدين الله أنصار نصير
وأطلعتم حوازمكم نجوما ... لدى هيجاء صاحبها كفور
فأنت البدر يوم السلم حسنا ... وفي يوم الوغا الاسد الهصور
وفي نصر المراتب قد تبدى ... لقدركم على الشعرى الضهور
لقد كان الملوك ساوموها ... وراموها وبان لها نفور
فلما جئتها انقادت وقالت ... اليك بحق مولانا المصير
ملكت فساد عزتها بسدل ... فما أغنى الحصار ولا السور
قهرتهم بأبطال ضخام ... عن الهيجاء كلهم جسور
فكم رأس من الكفار أمسى ... قطيع الرأس مخرورا بحور
وكم نحر قلادته رماح ... وسن الرمح مركزه النحور
وكم أسرى وكم قتلى بأرض ... وكم جرحى دماؤهم تفور
تمر بها الطيور فتقتفيها ... وبات الذئب وهو لها شكور
واضحى الناس كلهم نشاوى ... على طرب وما شربت خمور
فبشراكم بهذا الفتح نور ... وبشراكم بما من الغفور
به زادت مآثركم علوا ... وقد عظمت به لكم الاجور
الا يامعشر الكفار هدا ... بيدكم وليس له قصور
ألا يااهل سبتة قد اتاكم ... بسيف الله سلطان وقور
اذا ما جاءه سبتة في عشى ... تناديه اذا كان البكور
ووهران تنادي كل يوم ... متى يأتي الامام متى يزور
متى يأتي ويفتحها سريعا ... ويلحق أهلها منه ثبور
فيهزمهم ويقتلهم ويسبي ... وسيف الحق في يده ينور
أيامولاي قم وانهض وشمر ... لاندلس فأنت لها الامير
وجاهدهم وحاربهم وفرق ... جموعهم فربكم النصير
ولا يمنع بفضل الله منها ... كما قد قيل بر او بحور
لسان الحال ينشد كل يوم ... ومعنى الحال تفهمه الصدور
بقرطبة تنال المجد طرا ... ويأتي العز والملك الكبير

وذلكم بعون الله سهل ... ومن بركاتكم أمر يسير
أيا مولاي إسماعيل هذا ... عبيدكم الضعيف المستجير
يناديكم ويدعو ... دعاء لا تغيره الدهور
فيارب البرية ياإلهي ... ويارحمن يانعم المجير
أنل هذا الأمير بكل خير ... ولا تحمل تجارته تبور
وأبق الملك فيه وفي بنيه ... ولو كرهت زبود او عسور
ونحن رعية نرجو هناء ... وبالسلطان تنتظم الأمور
عليكم من عبيدكم سلام ... مدى الدنيا يضمخه العبير
يعم جنابكم ما قال صب ... ألا أبشر فهذا الفتح نور

وقال في ذلك الفقيه العالم الورع الشهير أبو محمد عبد السلام ابن حمدون جسوس رحمه الله

رفعت منازل سبتة أقوالها ... تشكو إليكم بالذي قد هالها
مع بادس وبريجة فتعطفوا ... وتنبهوا كي تسمعوا تسآلها
يابن النبي الهاشمي محمد ... قل ياأمير المؤمنين أنا لها
فلقد قضيتم للعرائش حاجة ... مع طنجة فاقضوا لذى آمالها
عار عليكم أن تكون أسيرة ... بجواركم وجودكم تعزى لها
إن لم تكونوا آخذين بثأرها ... من ذا يفك من الوثاق حبالها؟
لا تسمعن من جاهل ومثبط ... ومعجب من جهله أحوالها
إن الذين تقدموا قد جاهدوا ... بنفوسهم وبمالهم أمثالها
فتملكوا أملاكها وديارها ... وتقسموا أموالها ورجالها
فابعث لها أهل الشجاعة عاجلا ... حتى تراهم نازلين جبالها
وأمدهم بمؤونة ومعونة ... كيفما تقطع بالعدا أوصالها
وارفع لهذا الغرب رأسا إنه ... في الضعف ما دام العدا أنزالها
أبقاك ربي للخلافة عدة ... تقفو الشريعة موثرا أفعالها
واقبل هدية من أتى بنصيحة ... يبغي الثواب ولا تقل من قالها

وقال في ذلك الشريف الأديب أبو محمد عبد السلام بن الطيب القادري:

علا عرش دين الله كل المراكش وهـد مصر الله قصر العراكش

وهي طويلة انظرها في نشر المثاني ان شئت ، ثم في الثاني والعشرين من ربيع الاول من هذه السنة نهى السلطان عن لبس النعال السود ونادى بذلك في سائر أمصار المغرب ، وأمر بلبس النعال الصفر مكانها لما قيل : من أن الناس اتخذوا النعال السود منذ استولى النصارى على العرائش على يد المأمون السعدي كما تقدم ، وفي أوائل ذي الحجة من هذه السنة قتل السلطان ثلاثة وستين رجلا من الطائفة المسمون بالعكاكزة

فتح آصيلا

ولما فرغ المجاهدون من أمر العرائش عمدوا الى مدينة آصيلا فنزلوا عليها وحاصروا النصارى الذين بها سنة كاملة ، وأظنهم الاصبنول ، الى أن بلغ بهم الحصار كل مبلغ ، فطلبوا الامان فأمنوهم على حكم السلطان ولما لم يطمئنوا لذلك ركبوا من الليل سفنهم ونجوا الى بلادهم ، ودخل المسلمون المدينة فملكوها ، وذلك سنة اثنين ومائة والف ، وعمرها أهل الريف أيضا وبنى بها قائدهم مسجدين ومدرسة وحماما وبنى داره بقلعتها والله أعلم

حصار سبتة

ثم سار المجاهدون بعد الفراغ من آصيلا الى سبتة فنزلوا عليها وحاصروها واستأنفوا الجد في مقاتلتها ، وأمدهم السلطان بعسكر من عبيده ، وامر قبائل الجبل أن تعين كل قبيلة حصتها للمرابطة على سبتة ، وكذلك أمر أهل فاس أن يبعثوا بحصتهم اليها ، فكان عدد المرابطين عليها خمسة وعشرين ألفا ، وتقدم السلطان اليهم في الجد والاجتهاد فكان القتال لا ينقطع عنها صباحا ومساء ، وطال الامد حتى أن السلطان رحمه الله اهم القـواد

الذين كانوا على حصارها بعدم النصح في افتاحها لئلا يبعث بهم بعدها الى حصار البريجة فيبعدوا عن بلادهم ، مع أنهم قد سئموا كثرة الاسفار ومشقات الحروب ، واستمر الحال الى ان مات القائد أبو الحسن على بن عبد الله الريفي ، وولى بعده ابنه القائد أبو العباس أحمد بن على ، والقتال لا زال والحال ما حال ، وفي كل سنة يتعاقب الغزاة عليها ، والسلطان مشتغل بتمهيد المغرب ومقاتلة برابرة جبل فازاز وغيرهم ، ولم يهيىء الله فتحها على يديه ، ودار القائد أحمد بن على ومسجده اللذان بناهما بازاء سبتة أيام الحصار لا زالا قائمي العين والاثر الى اليوم . وحكى الغزال في رحلته: انه رأى باحد ابواب سبتة خرقا قديما لم يصلح فسأل أهلها عنه فقالوا انه من أثر الرمي الذي كان يرميه الجيش الاسماعيلي وهو أثر كورة خرقت الباب ونفذت الى داخل البلد وتركناه على حاله ليعتبر به من يأتي بعدنا ويزداد احتياطا وحزما أو كلاما هذا معناه والله تعالى أعلم .

غزو السلطان المولى اسماعيل برابرة فازاز وايقاعه بهم

كان السلطان المولى اسماعيل رحمه الله في هذه المدة مشتغلا بتمهيد المغرب واستنزال اممه من معاقلهم الى ان فتح أقطاره كلها وبنى قلاعها ورتب حاميتها ، ولم يبق له بالمغرب كله الا قنة جبل فازاز الذي فيه آيت ومالو وآيت يف امال وآيت يسري ، فعزم على النهوض اليه والنفاض عذرته .

ولما اراد الخروج اليهم استخلف على فاس الجديد كبير أولاده المولى أبا العلاء محرزا ، وبعث الى مراكش ابنه المولى أبا اليمن المأمون ، وترك بمكناسة ابنه المولى محمد المدعو زيدان ، وكان فارس أولاده الموجودين يومئذ .

ولما ولى المأمون على مراكش أمر برئيس الحضرة وامام الكتاب الفقيه أبا العباس أحمد اليحمدي أن يعطيه التقليد ويوصيه بما تبغي الوصاية به ،

وكان المولى المأمون منحرفا عن الوزير المذكور فمشى اليه على كره منه وحاز منه التقليد واستمع لوصيته امتثالا لأمر والده، ثم عاد اليه وقال: «يامولانا ان اليحمدي ينقصك ويزعم انه الذي علمك دينك» في كلام آخر فقال له السلطان رحمه الله: «والله ان كان قد قال ذلك انه لصادق فانه الذي علمني ديني وعرفني بربي» نقل هذه الحكاية صاحب «البستان» وصاحب «الجيش» وكلاهما قال: انه سمعها من السلطان المرحوم المولى سليمان بن محمد رحمه الله، وهي منقبة فخيمة للمولى اسمعيل في الخضوع للحق والاعتراف به رحم الله الجميع.

ثم دخلت سنة ثلاث ومائة وألف والسلطان عازم على النهوض الى فزاز وبعث مع ذلك بالراتب والعدة الى أهل فاس وامرهم بالنهوض الى الترك مع ولده المولى زيدان فخرجوا في رمضان من السنة وبعد العيد أخذ السلطان في الاستعداد للنهوض الى فزاز ثم بدا له فخرج في اثر المولى زيدان فلحق باطراف المغرب الاوسط وأبرم الصلح مع الترك ورجع الى الحضرة هكذا ساق صاحب البستان هذا الخبر، والذي رأيته في «نشر المثاني» هو ما نصه: قد اختار السلطان المولى اسمعيل الفقيه أبا عبد الله محمد الطيب الفاسي لعقد المهادنة مع الترك في حدود سنة ثلاث ومائة والف بعد وقعة المشارع معهم لعلمه وفصاحته ودينه، فذهب نحو الجزائر صحبة ولد السلطان وهو مولاى عبد الملك، ومعهم الكاتب أبو عبد الله المدعو الوزير وغيرهم من وجوه الدولة الاسماعيلية، فلما قاربوا الجزائر خرج صاحبها في جنده وقتل ونهب حتى انتهى الخبر الى فاس بانهم قتلوا اجمع، وصادف ذلك يوم عاشوراء فحزن الناس لذلك وأمسكوا عن الانفاق، حتى بقي ما عهد أن يشترى في ذلك اليوم ملقى لما عزا الناس من الغم، ثم جاء الخبر بانهم قادمون بعافية، وانهم وصلوا الى تازا ففرح الناس واستأنفوا الانفاق كيوم عاشوراء، ومات بايشى القبلي فولى السلطان على زموز وبني حكم ولده أبا الحسن على بن يشي.

ثم دخلت سنة أربع ومائة وألف وفيها تهيأ السلطان للنهوض الى

البربر أهل فازاز ، فاستنفر القبائل وحشد الجيوش واستعد الاستعداد التام بالمدافع والمهاريس والمجانيق وسائر آلات الحصار ، فنزل رحمه الله في جند العبيد بسبيط ادخسان ، ورتب على البرابر العساكر من كل جهة ، فبعث الباشا مساهلا في خمسة وعشرين ألفا من الرماة طلع بها من تادلا على وادي العبيد حتى نزل خلف آيت يسري ، وبعث علي بن بركات مع آيت يمسور وآيت ادراسن فنزلوا بتالين ، وبعث علي بن يشي مع زمور وبني حكيم وأمره أن ينزل بعين شوعه ، وبعث الى اهل تدغة وفركلة وغريس والصباح أن قدموا بجموعهم على علي بن يشي ، وبعث اليه مع ذلك بعسكر الطبجية بالمدافع والمهاريس وسائر آلات الحرب ، وبعث نصارى العرائش يجرونهما على طريق آعنيل ثم على قصر بني مطير الى ان اجتمعوا بعلي بن يشي على عين شوعة .

وضرب السلطان لامراء الجنود لانشاب الحرب موعدا معلوما ، وقال لهم : اذا كان وقت العشاء من ليلة كذا فليأخذ الطبجية في اخراج المدافع والمهاريس بالكور والبنب ضوئ ليلتهم ليحصل للبربر الدهش فاذا أصبحتم فليقدم كل واحد من ناحيته ، ولينشب الحرب ليكون القتال في ساعة واحدة من جميع الجهات . ففعلوا ما أشار به عليهم .

ولما كانت الليلة المعينة لم يرع البربر الا رعود المدافع والمهاريس تصعق في الجو ونيرانها تتقدح في ظلمات الليل ، وأصداء الجبال تتجاوب من كل ناحية ، فقامت عليهم القيامة وظنوا أن الارض قد زالت بهم ، فقوضوا أبنيتهم وحملوا عيالاتهم للفرار ، وصاروا لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . ولما اصبحوا زحف اليهم السلطان من ناحيته ، وزحفت اليهم العساكر من باقي الجهات ، واشتد القتال فانهزموا وتفرقوا في الشعاب والاودية شذر مذر ، وصار كل من قصد منهم ثنية أو منفذا وجد العساكر مقيمة عليه ، والمدافع مصوبة نحوها فحل بهم القضاء ، وتصرف فيهم البلاء كيف شاء ، فقتلت رجالهم وسبيت نساؤهم واولادهم ، ونهبت أثاثهم وحيزت مواشيهم وأنعامهم ، واستلبت خيلهم وسلاحهم ، واستحر القتل وانتهب فيهم ...

أيام والعساكر تلتقطهم من الاودية والشعاب ، وتستخرجهم مـــن الكهـوف والغيران ، وأمر السلطان قواده مساهلا وعلي بـن يشي وعلي بــن بركات بجمع رؤوس القتلى وجمع الخيل والسلاح ويوافوه به لآدخسان ، فجمعوا ما عثروا عليه من ذلك فكان عدد الرؤوس ينيف على اثني عشر ألفا ، وعدد الخيل الفحول ينيف على عشرة آلاف ، وعدد المكاحل ينيف على ثلاثين ألفا، وبالاستيلاء على هؤلاء البربر كمل للسلطان المولى اسمعيل رحمه الله فتح المغرب ، واستولى عليه كله ولم يبق به عرق ينبض ، وكتب في الديوان من آيت يمور ألف فارس أنزلهم مـع علي بن بركات بقلعـة تنالين ، وأنزل محلتهم على رأس منزل آيت ومالو ، ولم يترك لقبيلة من قبائـل المغرب خيلا ولا سلاحا ، وانما كانت الخيل والسلاح عنـد العبد والودايا وآيت يمور وأهل الريف المجاهدين بسبتة .

قال أبو عبد الله أكنسوس رحمه الله : «وكان المولى اسمعيل رحمه الله ارتكب أخف الضررين وادنى المفسدتين في اضعاف قبائـل المسلمين بسلب الخيل والسلاح مع أن المطلوب هو تقويتهم بذلك لمقابلة العدو الكافر . قال تعالى : «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» الآية ورأى المولى اسمعيل : أنه لما اعد ذلك العسكر القوي الشديد قام عـن المسلمين بواجب وكفاهم كل مؤنة وأراحهم من كلفة القيام بالخيل والسلاح ، مـع أن الفساد الذي يظهر منهم عند ملك الخيل والسلاح أعظم وذلك بقطـع الطرقات ونهب الاموال وخلع اليد من الطاعة ، قال : وهذا القدر الـذي اعتذرنا به عن السلطان ظاهر غايـة الظهور ولعله خفي على الشيخ اليوسي حتى كتب اليه برسالته المشهورة ، اهـ

قلت : ما فعله السلطان المولى اسمعيل رحمه الله مـن ذلك ظاهـر المصلحة لا يخفى على احد وجه استحسانه ، ولا يتوهم عاقل أن أهـل فازاز ومن في معناهم يتخذون الخيل والسلاح للجهاد يوما ما فلا يحتاج السلطان رحمه الله في مثل ذلك الى الاعتذار ، وقوله ان ذلك الاعتذار خفي عـلى اليوسي ليس على ما ينبغي ، لان الشيخ اليوسي رحمه الله ما تكلـم مـع

السلطان في امر اولئك القبائل ومن في معناهم ، وانما كلامه معه في امور ثلاثة : الاول في جباية المال من وجهه وصرفه في وجهه . الثاني : في اقامة رسم الجهاد وشحن الثغور كلها بالمقاتلة والسلاح . الثالث : في الانتصاف من الظالم للمظلوم وكف اليد العادية عن الرعية .

ونص هذه الرسالة : الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، قطب المجد ومركزه ومحاز الفخر ومأرزه ، وأساس الشرف الباذخ ومنبعه ، ومناط الفضل الشامخ ومجمعه ، السلطان الاعظم الاجل الافخم ، مولانا اسمعيل ابن مولانا الشريف لا زالت أعلامه منصورة ، وأيامه على العز واليمن مقصورة ، سلام على سيدنا ورحمة الله وبركاته ، هذا ولا زائد عندنا سوى المحبة لسيدنا وغاية التعظيم والاجلال ، والدعاء لسيدنا بصالح الاحوال ، وذلك بعض ما اوجبته يده المبسوطة علينا بالبر والاحسان ، والفضل والامتنان والتوقير والاحترام والانعام والاكرام ، مع ما له علينا وعلى غيرنا من الحقوق التي اوجبتها منزلته السلطانية ، ومنابته الطوفية الفاطمية ، فكتبنا هذه البطاقة ، وهي في الوقت منتهى الطاقة ، وكنا كثيرا ما نرى من سيدنا التشوق الى الموعظة والنصح ، والرغبة في استفتاح أبواب الربح والنجح ، فأردنا ان نرسل الى سيدنا ما أن وفق الى النهوض اليه رجونا له ربح الدنيا والآخرة ، والارتقاء الى الدرجات الفاخرة ، ورجونا وان لم نكن أهلا لان نعظ ، أن يكون سيدنا أهلا لان يتعظ ، وان يحتمي من جميع الذام ويحتفظ ، فليعلم سيدنا أن الارض وما فيها ملك لله تعالى لا شريك له ، والناس عبيد لله سبحانه واماء له ، وسيدنا واحد من العبيد وقد ملكه الله عبيده ابتلاء وامتحانا ، فان قام عليهم بالعدل والرحمة والانصاف والاصلاح فهو خليفة الله في أرضه وظل الله على عبيده وله الدرجة العالية عند الله تعالى ، وان قام بالجور والعسف والكبرياء والطغيان والافساد فهو متجاسر على مولاه في مملكته ومتسلط ومتكبر في الارض بغير الحق ، ومتعرض لعقوبة مولاه الشديدة وسخطه ، ولا يخفى على سيدنا حال من تسلط على رعيته يروم تملكهم بغير اذنه كيف يفعل به

يوم يتمكن منه ، ثم نقول : ان على السلطان حقوقا كثيرة لا تفي بها الطاقة، ولنقتصر منها على ثلاثة هي امهاتها ، الاول : جمع المال من حق وتفريقه في حق . الثاني : اقامة الجهاد لاعلاء كلمة الله وفي معناه تحصين الثغور بما تحتاج اليه من عدد وعدة . الثالث : الانتصاف من الظالم للمظلوم . وفي معناه كف اليد العادية عليهم منهم ومن غيرهم ، وهذه الثلاثة كلها قد اختلت في دولة سيدنا فوجب علينا تنبيهه لئلا يعتذر بعدم الاطلاع والغفلة فان تنبه وفعل فقد فاز ، وذلك صلاح الوقت وصلاح أهله وسبوغ النعمة وشمول الرحمة والا فقد أدينا الذي علينا ، أما الامر الاول فيعلم سيدنا أن المال الذي يجبى من الرعية قد أعد للمصالح التي ينتظم بها الدين وتصلح الدنيا من اهل البيت والعلماء والقضاة والائمة والمجاهدين والاجناد والمساجد والقناطر وغير ذلك من المصالح ، ومثال هؤلاء كأيتام لهم ديون قد عجزوا عن قبضها الا بوكيل ، ومثال الرعية مثل المديان والسلطان هو الوكيل ، فان استوفى الوكيل الدين بلا زيادة ولا نقصان وأداه الى اليتامى بحسب ما يجب لكل فقد برىء من اللوم ولم تبق عليه تباعة للمديان ولا لليتيم ، وحصل له أجران : أجر القبض وأجر الدفع ، وان هو زاد على الدين الواجب بغير رضى المديان فهو ظالم له ، أو نقص اليتيم من حقه الواجب له فهو ظالم له ، وكذا ان استوفى الديون وأمسكها ولم يدفعها لاربابها فهو ظالم ، فلينظر سيدنا فان جباة مملكته قد جروا ذيول الظلم على الرعية فأكلوا اللحم وشربوا الدم وامتشوا العظم وامتصوا المخ ولم يتركوا للناس دينا ولا دنيا ، أما الدنيا فقد اخذوها وأما الدين فقد فتنوهم عنه وهذا شيء شهدناه لا شيء نقلناه ، ثم ان ارباب الحقوق قد ضاعوا ولم تصل اليهم حقوقهم فعلى السلطان أن يتفقد الجباة ويكف أيديهم عن الظلم ولا يغتر بكل من يزين له الوقت فان كثيرا من الدائرين به طلاب الدنيا لا يتقون الله تعالى ولا يتحفظون من المداهنة والنفاق والكذب وهي أفضل منهم قال جده أمير المؤمنين مولانا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : والمغرور من غررتموه اه وان يتفقد المصالح ويبسط يد الفضل على خواص الناس ...

أهل الفضل والدين والخير ليكتسب محبتهم وثناءهم ونصرهم كما قيل :

أفادتكم النعماء مني ثلاثـــة　　يدي ولساني والضمير المحجبا

وقد جبلت القلوب على حب من احسن اليها ولا يهملهم فيتمنوا غيره ويتطلبوا دولة اخرى كما قيل :

اذا لم يكن للمرء في دولة امرىء　　نصيب ولا حظ تمنى زوالهـــا

وما ذاك من بغض لها غير أنـــه　　يريد سواها فهو يهوى انتقالهـــا

وليعلم سيدنا ان السلطان اذا أخذ أموال العامة وشرها في الخاصة وشيد بها المصالح فالعامة يذعنون ، ويعلمون انه سلطان وتطيب قلوبهم بمـــا يرون من انفاق أموالهم في مصالحهم والا فالعكس ، وأيضـــا السلطان متعـــرض للسهام الراشقة من دعوة المظلومين من الرعية ، فاذا أحسن الى الخاصة دعوا له بالخير والسلامة والبقاء ، فيقابل دعاء بدعاء والله الموفق ، واما الامر الثاني فقد ضاع أيضا وذلك أنه لم يتأت في الوقت الا عمارة الثغور ، وسيدنا قـــد غفل عنها فقد ضعفت اليوم غاية ، وقد حضرت بمدينة تطاوين أيـــام مولانـــا الرشيد رحمه الله ، فكانوا اذا سمعوا الصريخ تهتز الارض خيـــلا ورماة ، وقد بلغني اليوم أنهم سمعوا صريخا من جانب البحر ذات يـــوم فخرجـــوا يسعون على أرجلهم بأيديهم العصي والمقاليع ، وهذا وهن في الدين ، وعرر على المسلمين ، وانما جاءهم الضعف من المغارم الثقيلة ، وتكليفهم الحركـــات واعطاء العدة كسائر الناس ، فعلى سيدنا أن يتفقد السواحل كلها من قلعيـــة الى ماسة ، ويحرضهم على الجهاد والحراسة بعد أن يحسن اليهم ويعفيهم مما يكلف به غيرهم ، ويترك لهم خيلهم وعدتهم ويزيدهم ما يحتاجون اليـــه ، فهم حماة بيضة الاسلام ، ويتحرى فيمن يوليه تلك النواحي أن يكـــون أشد الناس رغبة في الجهاد ، ونجدة في المضايـــق وغـــيرة على الاسلام ، ولا يولى فيها من همته ملء بطنه والاتكاء على اريكته والله الموفق .

وأما الامر الثالث فقد اختل أيضا لان المنتصبين للانتصاف بين الناس في البلدان ، وهم العمال وخدامهم ، هم المشتغلون بظلـــم الناس ، فكيف يزيـــل الظلم من يفعله ؟ ومن ذهب يشتكي سبقوه الى الباب فزادوا عليه فلا يجـــد

أحد أن يشكي فليتق الله سيدنا ، وليتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب ، وليجهد في العدل فانه قوام الملك وصلاح الدين والدنيا ، قال تعالى : «ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي » الآية . وقال تعالى : « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز» ثم ذكر تعالى المنصورين وشروط النصر فقال : «الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » فضمن تعالى للملوك النصر وشرط عليهم هذه الامور الاربعة ، فمتى اختل عليهم أمر الرعية وتسلط عليهم من يفسد عليهم الدولة فليعلموا ان ذلك من اخلالهم بهذه الامور ، فكان عليهم الرجوع الى الله تعالى وتفقد ما أمرهم به ورعاية ما استرعاهم اياه ، وقد اتفقت حكماء العرب والعجم على ان الجور لا يثبت معه الملك ولا يستقيم ، وان العدل يستقيم معه الملك ولو مع الكفر ، وقد عاش الملوك من الكفرة المئين من السنين في الملك المنتظم والكلمة المسموعة والراحة من كل منغص لما كانوا عليه من العدل في الرعية ، استصلاحا لدنياهم فكيف بمن يرجو صلاح الدنيا والدين ، قال بعض الحكماء : « الملك بناء والجند أساسه واذا ضعف الاساس سقط البناء فلا سلطان الا بجند ولا جند الا بمال ولا مال الا بجباية ولا جباية الا بعمارة ولا عمارة الا بالعدل فالعدل أساس الجميع .» وقد صنع أرسطوطاليس الحكيم للملك الاسكندر الشكل المستدير وكتب عليه : « العالم بستان سياجه الدولة، الدولة سلطان تعضده السنة ، السنة سياسة يسوسها الملك ، الملك راع يعضده الجيش ، الجيش أعوان يكفلهم المال ، المال رزق يجمعه الرعية ، الرعية عبيد يقودهم العدل ، العدل مألوف وبه صلاح العالم ، العالم بستان » الى آخره : وقال صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » وقال صلى الله عليه وسلم : « ان رجالا يخوضون في مال الله بغير حق لهم النار يوم القيامة » أو كما قال وقال صلى الله عليه وسلم : « مامن وال يلي ولاية الا جاء يوم القيامة ويداه مغلولتان فاما عدل يفكه واما جور يوبقه » . وعن مولانا علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال: « رأيت عمر على قتب يعدو به بعيره بالابطح

فقلت يأمير المؤمنين ، أين تسير ؟ ، فقال : « بعير من ابل الصدقة شرد أطلبه » فقلت : « أذللت الخلفاء من بعدك » فقال : « لا تلمني ، فوالذي بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق لو أن عناقا ضلت بشاطىء الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة انه لاحرمة لوال ضيع المسلمين ولا لفاسق روع المؤمنين » وقد رأى رضي الله عنه شيخا يهوديا يسأل على الأبواب فقال : « ما أنصفناك أخذنا منك الجزية ما دمت شابا ثم ضيعناك اليوم » وأمر أن يجري عليه قوته من بيت المال. وليعلم سيدنا أن أول العدل أن يعدل في نفسه فلا يأخذ لنفسه من المال الا بحق ، وليسأل العلماء عما يأخذ وما يعطي ، وما يأتي وما يذر ، وقد كان بنو اسرائيل يكون فيهم الامر على يد نبي ، فالنبي يأمر والأمير ينفذ لا غير ، ولما كانت هذه الامة المرحومة انقطعت منها النبوة بنبيها خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم فلم يبق الا العلماء يقتدى بهم قال صلى الله عليه وسلم : « علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل » فكان حقا على هذه الامة أن يتبعوا العلماء ويتصرفوا على أيديهم أخذا وعطاء ، وقد توفي صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر رضي الله عنه وكان قبل ذلك يبيع ويشتري في السوق على عياله ، فلما بويع أخذ ماله الذي للتجارة وذهب للسوق على عادته حتى رده علماء الصحابة ، وقالوا : « انك في شغل بأمر الخلافة عن السوق » وفرضوا له ما يكفيه مع عياله ، وجعلوا المال على يد أمين فكان هو وغيره فيه سواء يأخذ منه بما اقتضته الشريعة لنفسه ولغيره ، وهكذا سيرة الخلفاء الراشدين من بعده ، فعلى سيدنا أن يقتدي بهؤلاء الفضلاء ولا يقتدي بأهل الأهواء ، وليسأل من معه من الفقهاء الثقات كسيدي محمد بن الحسن ، وسيدي أحمد بن سعيد ، وغيرهما من العلماء العاملين الذين يتقون الله ولا يخافون في الله لومة لائم فما أمروه به مما ذكرناه ومما لم نذكره فعله ، وما نهوه عنه انتهى ، هذه طريقة النجاة ان شاء الله تعالى ، نسأل الله تعالى أن يرزق سيدنا توفيقا وتسديدا ، وارشادا وتأييدا وأن يصلح بوجوده البلاد والعباد ، وأن يحسم بسيفه أهل الزيغ والفساد آمين والحمد لله رب العالمين » .

ولما فرغ السلطان رحمه الله من وقعة فازاز وآيت ومالو دعا على بن

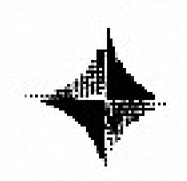
يشي وعقد له على عشرة آلاف من الخيل وقال له : «لا أرى وجهك إلا اذا أغرت على كروان وأتيتني منهم بعدد هذه الرؤوس التي هناه لانهم كانوا بوادي زيز يعيثون في طريق سجلماسة وينهبون الرفاق ، فسار علي بن يشي حتى صبحهم وهم غارون فنهب حللهم ومواشيهم وقتل منهم العدد الكثير ، ثم نادى في تلك القبائل كلها من أتى برأس كرواني فله عشرة مثاقيل ، فصار كل من انحاز اليه أحد منهم يقطع رأسه ويأتي به اليه ، واستمر البحث عنهم في المدر والوبر الى أن قضى من جماجمهم الوطر ، ولما اجتمعت عنده أعطى كل من أتى برأس مثقالا واحدا ، وجاء الى السلطان باثني عشر ألف رأس كما اقترح عليه ، وفق ما اجتمع منها بالدخان فشكر له فعله وولاه على قبائل العرب والبربر .

ودخلت سنة خمس ومائة وألف فلم يكن فيها شيء يذكر .

ثم دخلت سنة ست ومائة وألف ففي ربيع منها خرج المولى زيدان ابن السلطان بالعساكر قاصدا ناحية تلمسان بعد أن قتل بالثائر بفاس أبا العباس أحمد السلاوي فقاتل الترك ونهب ورجع .

ثم دخلت سنة سبع ومائة وألف فلم يكن فيها شيء يذكر .

ثم دخلت سنة ثمان ومائة وألف ففي يوم عرفة منها قدم عشرة رجال من اصطنبول ومعهم كتاب من السلطان مصطفى بن محمد العثماني صاحب القسطنطينية العظمى الى السلطان المولى اسمعيل يندبه الى الصلح مع أهل الجزائر فانتدب رحمه الله وامتثل .



امر السلطان المولى اسماعيل علماء فاس بالكتابة على ديوان العبيد وامتناعهم منها وما نشأ عن ذلك

وفي ذي القعدة من هذه السنة أعني سنة ثمان ومائة وألف ورد كتاب من حضرة السلطان على القاضي والعلماء بفاس يعاتبهم ويوبخهم على عدم موافقتهم على تمليك العبيد المثبتين في الديوان، ثم ورد كتاب آخر من السلطان يمدح العامة ويذم العلماء ويأمر بعزل القاضي والشهود كذا في «البستان».

قال أبو عبد الله أكنسوس : «هذا الكلام الذي نقله صاحب «البستان» عن السلطان المولى اسمعيل رحمه الله فيه نظر فانه كلام مجمل، وقضية جمع العبيد مذكورة مفصلة في الكناش الكبير الاسماعيلي وفيه تميز المماليك الارقاء الذين اشتروا بالثمن على الوجه الشرعي بخطوط العدول، وهؤلاء لا كلام فيهم، وأما غيرهم من أهل الديوان المجلوبون من القبائل المعيدة فان السلطان لم يدع فيهم الملكية، وانما الكلام في جبرهم على الخدمة، ووجه السلطان الى علماء المشرق والمغرب السؤالات عن ذلك، فكتبوا اليه الاجوبة المتضمنة للجواز بخطوطهم، وكل ذلك في الكناش المذكور مبسوطا، وهو شيء كثير، وحاشى الله مقام السلطان المولى اسمعيل رحمه الله أن يدعي تملك الاحرار، وقد تقدم كلام الشيخ اليوسي وبيان ما أنكر على السلطان، ولو كان ما ذكر العياشي متصفا به السلطان المذكور لكان ذلك أول ما ينكره اليوسي، ولا يسعه السكوت عليه مع أنه أنكر ما هو أقل من ذلك وأخف بمراتب، نعم في الكناش طوائف معروفة مميزة ثبت عند السلطان المذكور أنهم كانوا أرقاء للمنصور السعدي، فلما انقرضت الدولة السعدية تفرقوا في الاقطار، وهم الذين تقدم الكلام عليهم في دفتر عليليش، وقد وقع البحث عن رقيتهم وسئل أهل الاسنان من كل قبيلة فعينوا الرقيق من غيره، فثبت ذلك كله عند السلطان، ومع ذلك لم يدخلهم في الارقاء الخلص الذين اشتروا

بالثمن بل ميزهم على حدة فكان ذلك الجند عنده على ثلاث مراتب . المرتبة الاولى : خالص الرقية ، المرتبة الثانية : خالص الحرية ، المرتبة الثالثة : واسطة بينهما ، اه والله تعالى أعلم .

تفريق المولى اسماعيل رحمه الله اعمال المغرب على اولاده وما نشأ عن ذلك

لما كانت سنة احدى عشرة ومائة وألف فرق السلطان المولى اسمعيل رحمه الله أعمال المغرب على أولاده ، فعقد لابنه المولى أحمد على تادلا وأنزله بقصبتها ورتب معه ثلاثة آلاف من العبيد حامية بها ، وأمره أن يزيد فى تلك القصبة فبنى قصبة جديدة ، وبنى بها قصره وبنى مسجدا أعظم من مسجد أبيه بالقصبة الاولى ، واستقر بها .

وعقد لابنه المولى عبد الملك على درعة وأعمالها وانزله بقصبتها ورتب معه ثلاثة آلاف من الخيل .

وعقد لابنه المولى محمد المدعو بالعالم على اقليم السوس ورتب معه ألف فارس .

وعقد لابنه المأمون الكبير الذى كان بمراكش على سجلماسة وأعمالها نقله من مراكش اليها وأنزله بقصبته التى بناها له بتيزيمي ورتب معه خمسمائة من الخيل ، وبعد سنتين توفى المولى المامون فولى السلطان مكانه ابنه المولى يوسف .

وعقد لابنه المولى زيدان على بلاد الشرق فكان يغير على رعايا الترك الى أن شردهم عن نواحى تلمسان ، وانتهى فى بعض أيام غاراته الى مدينة معسكر فاقتحمها وانتهب دار أميرها عثمان باى واخذ ما فيها من الفرش والحرثى والادام وغير ذلك لمغيب عثمان عنها فى بعض غزواته ، فانتهز المولى

زيدان فيها الفرحة فكان ذلك سبب عزله عن الشرق وتوليه أخيه المولى حفيد مكانه ، لأن السلطان رحمه الله لم يرض فعله ونهبه لدار الباي للصلح الذي كان انعقد بينه وبين السلطان مصطفى العثماني كما مر .

ثم دخلت سنة اثنتي عشرة ومائة وألف : فيها غزا السلطان بلاد الشرق وحارب الترك بها لانتقاض الصلح الذي كان بينه وبينهم بسبب غارات المولى زيدان المتقدمة ، ولما قفل السلطان من وجهه هذه هلك من جنده أثناء الطريق عدد كبير من العطش فمن أهل فاس بالخصوص أربعون نفسا سوى من هلك من غيرهم ، وفي هذه السنة قتل القائد عبد الخالق بن عبد الله الروسي صاحب فاس عبدا من عبيد دار السلطان دخل عليه بغير اذنه فقتله ، فبعث السلطان ولده المولى حفيدا من مكناسة الى فاس ليأتيه به فاستشفع اليه عبد الخالق بالعلماء والاشراف فلم يقيده المولى حفيد وذهب به مسرحا ، فلما دخل على السلطان بمكناسة عفا عنه ورجع الى فاس سالما .

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائة وألف فيها استدعى السلطان عبد الخالق الروسي من فاس ، فلما قدم عليه قتله ، وبعث ابنه المولى زيدان الى فاس وبعث معه حمدون بن عبد الله الروسي واليا عليها بدلا من أخيه المقتول والله أعلم .

تنازع أولاد السلطان وثورة المولى محمد العالم منهم بالسوس ومقتله

لما دخلت سنة أربع عشرة ومائة وألف وصل المولى عبد الملك بن السلطان صاحب درعة الى ضريح المولى ادريس الاكبر بزرهون مهزوما لاستيلاء أخيه المولى ابي النصر على درعة وتغلبه على تلك النواحي ، فبعث السلطان ولده المولى الشريف الى درعة واليا عليها ، فثار المولى محمد العالم ببلاد السوس ودعا لنفسه وزحف الى مراكش ، فحاصرها في رمضان من السنة المذكورة ، وفي العشرين من شوال اقتحمها عنوة بالسيف فقتل

رجب ، ولما اتصل خبره بالسلطان بعث ولده المولى زيدان في العساكر لقتاله ، فقدم مراكش فصادف المولى محمدا قد خرج عنها وعاد الى تارودانت ، ولما دخل المولى زيدان مراكش عاثت عساكره فيها ثم تبع أخاه المولى محمدا العالم الى السوس فنزل على تارودانت واتصلت الحرب بينهما الى ان دخلت سنة خمس عشرة ومائة وألف وفيها قدم المولى حفيد حضرة فاس الجديد ورفع عن أهل فاس مرما ثقيلا وجاء الزعيم واليا عليها ، ثم عزل وولى مكانه أبو علي الروسي فقتل اناسا وصلبهم ، وفي منتصف شوال من السنة المذكورة مات المولى حفيد بفاس الجديد ، هذا كله والحرب قائمة بين المولى زيدان والمولى محمد العالم .

ثم دخلت سنة ست عشرة ومائة وألف ففي ثالث صفر منها ورد أمر السلطان على فاس بأن تعطى كل عشرة عظم سرج ولا يعذر من ذلك أحد كائنا من كان .

وفي الحادي والعشرين من صفر المذكور ورد الخبر باستيلاء المولى زيدان على تارودانت وقبضه على أخيه المولى محمد العالم بعد محاربته له ثلاث سنين هلك فيها أمم وقواد ورؤساء واعيان يطول ذكرهم ، ولما دخلها المولى زيدان عنوة قتل جميع من بها حتى النساء والصبيان هكذا في البستان ، وفي رابع ربيع الاول من السنة وصل المولى محمد العالم مقبوضا عليه الى والده فبعث السلطان من قطع يده ورجله من خلاف بعقبة بومت ، ولما وصل الى مكناسة خامس عشر الشهر المذكور هلك رحمه الله .

قال أبو عبد الله اكنسوس : لما توفي المولى محمد العالم صلى عليه القاضي أبو عبد الله محمد العربي بردلة فنقم عليه ذلك بعض الحسدة واغرى قلب السلطان عليه وقال له : دانه يبغضك ولولا شدة بغضه لك ما خرج الى الصلاة على عدوك الذي ثار عليك ورام نزع الملك من يدك فكتب السلطان الى القاضي بردلة يتهدده ويوبخه فأجابه القاضي : «بأن صلاته نظيرة صلاة الحسن البصري على الحجاج بن يوسف فلما ليم على ذلك قال : استحييت من الله تعالى أن أستعظم ذنب الحجاج في جنب كرم الله الغفور الرحيم ،

على أنني ما صليت عليه بغير اذن بل خرج الاذن من الدار المولوية وبلغ ذلك مبلغ الشهرة التي لم يبق معها شك وذلك على لسان مترجم ينسب الامر الى الجانب المولوى ، فلا افتيات بعد ذلك، بل الواجب هو القيام بذلك ولو بغير اذن اجلالا وتعظيما لجانب مولانا نصره الله ، ولما قال صلى الله عليه وسلم لعلي بن ابى طالب رضى الله عنه فى قضية الحديبية : «امح لفظة رسول الله» قال علي بن ابى طالب رضى الله عنه : «والله لا امحوه أبدا» فتعارض وجوب امتثال أمر الرسول بالمحو ووجوب الاجلال لمقامه الارفع فرجح رضى الله عنه وجوب الاجلال» ثم الصحيح ان الحدود كفارات ففي الصحيح عن عبادة ابن الصامت رضى الله عنه ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له» اهـ باختصار .

قال اكنسوس وكانت هذه القضية من الفتن العظيمة بالمغرب عمت أهل القطر السوسي وخصت أعيان غيرهم من العلماء الذين كانوا يخالطون المولى محمد العالم لولا لطف الله تعالى ، فان الشيخ أبا عبد الله المسناوى الدلائي كان من اخص الناس بالمولى محمد ، فوشي به الى السلطان وقيل له : انه من شدة اتصاله به لا يغيب عنه عزمه على القيام عليك فهو اذا موافق له على ذلك ، فبادر بعض اصحاب السلطان ممن كان بجنح المسناوى بالاعتذار عنه بانه كان ينهاه عن القيام وأنشد للمسناوي في ذلك :

مهلا فان لكل شيء غايـة والدهر يعكس حيلة المحتال
فالبدر ليس يلوح ساطع نوره والشمس قاهرة السنا في الحال
فاذا توارت بالحجاب فعند ذا يبدو بدو تعزز وجمـال

فوقع ذلك من السلطان وتحقق براءة الشيخ رحم الله الجميع . قال أكنسوس : «وقولنا عمت اهل القطر السوسي لان ظهوره التام انما كان هنالك ولان جل من ينتسب الى العلم والصلاح منهم كانوا معه موافقين له ومؤيدين فعله» اهـ قال في نشر «المثاني» : كان المولى محمد العالم ماهرا في فنون شتى كالنحو والبيان والمنطق والكلام والاصول ، وكان يفعل الشعر وتأخذه اريحية الادب ، وكتب له أخوه مولاى الشريف في صدر كتاب

بعث به اليه ما خاطب به سيف الدولة ابن حمدان أخاه ناصر الدولة :

رضيت لك العليا وان كنت أهلها   وقلت لهم بيني وبين أخي فرق
أما كنت ترضى أن أكون مصليا   اذا كنت أرضى أن يكون لك السبق

فاقترح المولى محمد على الشيخ أبي عبد الله المسناوي أن ينوب عنه في الجواب لانه كان في جملة الوافدين عليه حينئذ فقال رحمه الله :

بلى قد رضيت أن تكون مجليا   ويتلو تداكم في العلا من له السبق
وما لي لا أرضى لك المجد كله   وأنت شقيق النفس ان عرف الحق
ولكن ذوو الضغن اتحوا ذات بيننا   فغادرها اقدامهم وبهما رفق

وفي هذا التاريخ أعني سنة سبع عشرة ومائة وألف انتزع النجليز جبل طارق من يد الاصبنيول حاصره ثلاثة أيام برا وبحرا في جند يسير فملكه لاشتغال الاصبنيول يومئذ عنه بأمر الفتنة التي حدثت في ملكه ، ولما ملكه النجليز عظم ذلك على أجناس الفرنج خصوصا الاصبنيول والفرنسيس، ورأوا ان النجليز قد ملك عليهم باب أوروبا ولذا حاصروه مرارا فلم يحصلوا منه على طائل واستمر في يده الى الآن .

ولما دخلت سنة تسع عشرة ومائة والف ورد الخبر بموت المولى زيدان ابن السلطان بتارودانت وحمل في تابوت الى مكناسة فدفن ليلا الى جانب أخيه المولى محمد العالم .

وفي هذه السنة أمر السلطان بهدم قصر البديع الذي بناه المنصور السعدي بقصبة مراكش وقد تقدم الكلام عليه . قال اليفرني في « النزهة » « ومن العجائب أنه لم يبق بلد من بلاد المغرب الا ودخله شيء من أنقاض البديع » اهـ .

ثم دخلت سنة عشرين ومائة والف فيها افتتح الترك مدينة وهران وكانت بيد الاصبنيول مدة فردها الله على المسلمين يومئذ ، وفيها أمر السلطان بقراءة حديث الانصات يوم الجمعة عند خروج الخطيب وجلوسه على المنبر .

محنة الفقيه أبي محمد عبد السلام بن حمدون جسوس رحمه الله

قد تقدم لنا ما كان من امر السلطان المولى اسمعيل رحمه الله لعلماء عصره بالكتابة على ديوان العبيد وامتناعهم من ذلك ، ولما كانت سنة عشرين ومائة وألف تجددت المحنة وألزم الرئيس أبــو محمد عبد الله الروسي فقهاء فاس أن يكتبوا على الديوان المذكور فمن كتب نجا ومن أبى قبض عليه ، ثم قبض على اولاد جسوس واستلب أموالهم ، واجلس فقيههم الشيخ أبا محمد عبد السلام بن حمدون جسوس بالسوق مقيدا يتطلب الفداء ثم حمل مسجونا الى مكناسة .

ودخلت سنة احدى وعشرين ومائة والف فعفا السلطان عن الفقيــه المذكور وسرحه وبعث به الى فاس ليزعج الحراطين الذين بها الى مكناسة ، فقدم وازعجهم في ربيع الاول من السنة المذكورة ، ثم كان عاقبة الفقيــه المذكور أن قتله القائد ابو علي الحسن بن عبد الخالق الروسي ، فمن الناس من يقول : ان ذلك كان بأمر السلطان ، ومنهم من يقول بغير أمره اهـ . وقد وقفت على تقييد بخط شيخنا الفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد العزيــز محبوبة السلاوي رحمه الله ، وكان واعية ، يقول فيه : ان امتحان الفقيــه أبي محمد جسوس كان من أجل امتناعه من الموافقة على ديــوان الحراطين الذي اخترعه عليلش المراكشي للسلطان الجليل المولى اسمعيل رحمه الله حسبما هو مشهور ، فهجاه بعض السفهاء وهجا فاسا من اجلــه ، وحقــد عليه السلطان فاستصفى عامة أمواله ، وأجرى عليه أنــواع العذاب ، وبيعت دوره واصوله وكتبه وجميع ما يملك هو واولاده ونساؤه ، ثــم صار يطاف به في الاسواق وينادى عليه : من يفدي هذا الاسير ؟ والناس ترمى عليــه بالدراهم والحلي وغير ذلك من النفائس أياما كثيرة ، فيذهب الموكلون به بما يرمى عليه حيث ذهبوا باموالـه ، وبقي على ذلك قريبا من سنة فكان في ذلك محنة عظيمة له ولعامة المسلمين وخاصتهم ، ولما دنا وقت شهادته رحمه الله

وقد أيس من نفسه ، كتب بخطه رقعة وأذاعها في الناس يقول فيها ما نصه: «الحمد لله يشهد الواضع اسمه عقبه على نفسه ويشهد الله تعالى وملائكته وجميع خلقه اني ما امتنعت من الموافقة على تمليك من ملك من العبيد الا لاني لم أجد له وجها ولا مسلكا ولا رخصة في الشرع ، وانني ان وافقت عليه طوعا او كرها فقد خنت الله ورسوله والشرع وخفت من الخلود في النار بسببه ، وأيضا فاني نظرت في اخبار الائمة المتقدمين حين اكرهوا على ما لم يظهر لهم وجهه في الشرع فرأيتهم ما آثروا اموالهم ولا أبدانهم على دينهم خوفا منهم على تغيير الشرع واغترار الخلق بهم ، ومن ظن بي غير ذلك وافترى على ما لم افعله وما لم اقله فالله الموعد بيني وبينه وحسبنا الله ونعم الوكيل والسلام وكتب عبد السلام بن حمدون جسوس غفر الله ذنبه وستر في الدارين عيبه صبيحة يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الثاني سنة احدى وعشرين ومائة والف » اه .

ثم بعد ذلك بيومين أمر أبو على الروسي بقتله فقتل رحمه الله خنقا بعد أن توضأ وصلى ما شاء الله ، ودعا قرب السحر من ليلة الخميس الخامس والعشرين من ربيع الثاني من السنة المذكورة ودفن ليلا على يد القائد أبي على الروسي انتهى ما وجدناه مقيدا .

واعلم أن قضية الفقيه أبي محمد رحمه الله من القضايا الفظيعة في الاسلام ، والاسباب التي أثارتها أولا وأكدتها ثانيا حتى نفذ امر الله فيما قضاه وقدره في أزله بعضها ظاهر وبعضها خفي والله أعلم بحقيقته ، غير ان المعروف من حال الفقيه المذكور هو الصلابة في الدين والورع التام وتأمل شهادته هذه دليلا على ذلك ، وقضيته قد تعارضت فيها الانقال ، ودخلها التعصب فلا يوقف منها على تحقيق ، وغفران الله وراء الجميع فانه تعالى أهل التقوى وأهل المغفرة . قال أبو عبد الله أكنسوس وقد جرى ذكر قضية الفقيه أبو محمد عبد السلام هذا بمجلس السلطان المرحوم المولى سليمان بن محمد فقال ما قتله مولانا اسمعيل وانما قتله أهل فاس ، قال «ولم يمكنا ان نسأله عن حقيقة ذلك» اه وفي شعبان من السنة المذكورة عـزل

السلطان أبا علي الروسي عن فاس وولى مكانه حمدون الروسي ثم بعد مدة يسيرة أخر حمدون واعيد أبو علي ، وفيها قدم عبد الله الروسي ومعه أمر السلطان ببيع أصول المجاورين بالمشرق يعني بالحرمين الشريفين .

ثورة المولى ابي النصر ابن السلطان بالسوس ومقتله رحمه الله

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف فيها ثار أبو النصر ابن السلطان المولى اسمعيل ببلاد السوس وخب في الفتنة ووضع .

وفي سنة أربع وعشرين ومائة وألف سرح السلطان كاتبه الخياط ابن منصور من السجن وولاه درعة .

وفي سنة خمس وعشرين بعدها قتل السلطان الخياط المذكور واخاه عبد الرحمن ، وفيها ورد الخبر على السلطان بأن اولاد دليم من عرب السوس قد قتلوا ولده المولى أبا النصر الثائر بها .

وفي سنة ست وعشرين ومائة وألف قتل السلطان القائد أبا الدشيش وثلاثة من القواد معه وسبعة عشر من العبيد بمشرع الرملة ، وفي جمادى الاولى من سنة سبع وعشرين ومائة وألف توفيت الحرة عائشة ماركة زوج السلطان ، وهي ام ولده المولى أبي الحسن على الآتي ذكره .

وفي سنة تسع وعشرين ومائة وألف سافر ولد السلطان وهو المولى أبو مروان بن اسمعيل الى الحجاز بقصد الحج ، وفي رمضان منها بعث والي وجدة الى الحضرة مائة رأس من رؤوس بني يزناسن .

وفي سنة ثلاثين ومائة وألف ورد كتاب من السلطان الى فاس يتضمن تحرير اهل فاس من الكلف كلها ، ثم ورد عقبه كتاب آخر يوبخهم فيه ويخيرهم بين أن يكونوا جيشا أو نائبة ، فقال رجل منهم يدعى ولد الصحراوي : دائما يكون الكلام أمام السلطان، فقتل واصبح مصلوبا ، فبلغ ذلك السلطان فقبض على أبي علي الروسي واصحابه ، وولى على فاس

حمدون الروسي ، ثم بعد ذلك عمد حمدون الروسي الى عبد الخالق بن يوسف فقتله ، فقبض السلطان عليه وعلى أخيه مسعود ، وولى على فاس حمو قصارة ، ثم بعد ايام قدم أبو علي الروسي واليا على فاس . وفي هذه السنة ورد الخبر بموت المولى أبي مروان بالمشرق ، وفيها عزل السلطان أولاده عن الاعمال كلها ولم يترك الا ولي العهد المولى احمد بتادلا . ثم بعث ولده المولى عبد الملك الى مراكش وولاه قطر السوس ، واستقامت الامور وسكنت الرعية وهدأت البلاد ، واشتغل السلطان ببناء قصوره وغرس بساتينه والبلاد في أمن وعافية ، تخرج المرأة والذمي من وجدة الى وادي نول فلا يجدان من يسألهما من أين ولا الى أين ، مع الرخاء المفرط فلا قيمة للقمح ولا للماشية، والعمال تجبى الاموال والرعايا تدفع بلا كلفة، وصار أهل المغرب كفلاحي مصر يعملون ويدفعون في كل جمعة أو شهر أو سنة ، ومن نتج فرسا رباه حتى اذا بلغ أن يركب دفعه الى العامل وعشرة مثاقيل معه ثمن سرجه ، هذا اذا كان المنتوج ذكرا فاذا كان أنثى ترك له ، ويدفع للعامل مثقالا واحدا ، ولم يبق في هذه المدة بأرض المغرب سارق ولا قاطع طريق ومن ظهر عليه شيء من ذلك وفر في القبائل قبض عليه بكل قبيلة مر عليها أو قرية ظهر بها ، فلا تقله أرض حتى يؤتى به أينما كان ، وكلما بات مجهول حال بحلة أو قرية تقف بها الى أن يعرف حاله ، ومن تركه ولم يحتط في أمره أخذ بما اجترحه وأدى ما سرقه أو اقترفه من قتل أو غيره .

وكانت أيامه رحمه الله غزيرة الامطار كثيرة البركة في الحراثة والتجارة وغيرهما من أنواع المعاش مع الامن والخصب والرخاء المحتد بحيث لم يقع غلاء طول أيامه الا مرة واحدة ، فبلغ القمح في أيامه ست أواق للمد والشعير ثلاث أواق للمد ، ورأس الضأن ثلاث أواق ، ورأس البقر من المثقال الى المثقالين سائر أيام الرخاء ، والسمن والعسل رطلان بالموزونة ، والزيت أربعة أرطال بالموزونة هكذا نقله صاحب البستان وهو مخالف لما سيأتي في الحوادث من أن الجدب والغلاء قد بلغا مبلغهما أعوام التسعين وألف ولعل ماذكره صاحب البستان كان في آخر دولة السلطان المذكور حسبما هي

عادة الله تعالى في مثل ذلك غالبا والله تعالى اعلم .

بناء ضريحي الامامين ادريس الاكبر والاصغر رضي الله عنهما

لما كانت سنة اثنين وثلاثين ومائة والف أمر السلطان رحمه الله بهدم قبة ضريح المولى ادريس الاكبر رضي الله عنه بزاوية زرهون وشراء الاصول المجاورة له من جهاته الاربع وهدمها وزيادتها فيه ، فهدمت القبة وجميع ما حولها واعيدت على هيئة بديعة ، واستمر البناء والعمل في المشهد الشريف الى أن تم سنة أربع وثلاثين ومائة والف هكذا في «البستان» وغيره وقال في «نشر المثاني» : وفي سنة اثنين وثلاثين ومائة والف أمر السلطان المظفر المولى اسمعيل بتجديد بناء مقام مولانا ادريس الاصغر بانى فاس حيث ضريحه بها ، وأمر ببناء قبته التي هي عليه الآن بما اشتملت عليه من المحاسن التي يعز وجودها ، وأمر بتوسعة صحن المسجد على ما هو عليه اليوم من الهيئة التي لا نظير لها بفاس ، وتم تسقيف القبة في آخر ذي الحجة من العام المذكور ، ثم أمر رحمه الله باقامة الجمعة فيه فهي تقام فيه من يومئذ ، جعل الله ذلك في ميزان الآمر به والمتولي له آمين .

وفي سنة ثلاث وثلاثين ومائة والف مات القائد عبد الله الروسي بمكناسة ، وفيها غضب السلطان على أهل فاس وبعث اليهم حمدون الروسي وأخاه أبا علي ، وامرهما بمصادرتهم ، وقبض المال منهم ، فبعثوا علماءهم وأشرافهم للشفاعة فلم يقبل ، وشرعوا في دفع المال حتى لم يعرف له عدد ، ولم يسلم من الغرامة أحد ، وتغيب الناس في تلك المدة وخلت المدينة من ذوي اليسار .

وفي هذه السنة ايضا في المحرم منها خرج عسكر الاصبنيول من سبتة على حين غفلة من المسلمين ، فضربوا في محلتهم واستولوا عليها وعلى خباء القائد أبي الحسن علي بن عبد الله الريفي ، ونهبوا وقتلوا وسلبوا وحازوا

شارات المسلمين وعصاتهم وحازوا قصبة آفراك ، واستشهد ممن المسلمين نحو ألف ، ورجعوا عودهم على بدئهم الى سبتة ، ومنها ركبوا البحر الى جزيرتهم ، ولم يبق بسبتة الا سكانها ، ثم كانت الكرة للمسلمين عليهم بعدها فبقى بأيدى المسلمين منهم نحو ثلاثة آلاف .

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائة وألف ففى المحرم منها مات الباشا غازى بن شقراء صاحب مراكش بوجدة ، وفي صفر منها مات باعزيز بن صدوف صاحب تارودانت ، وفيها انتقل المولى عبد الملك بن السلطان الى تارودانت فاستقر بها الى أن كان من أمره ما نذكره عند التعرض لدولته ان شاء الله .

وفاة امير المومنين المولى اسماعيل رحمه الله

كانت أيام أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله على ما ذكرنا من الامن والعافية وتمام الضبط حتى لم يبق لاهل الدعارة والفساد محل يأوون اليه ويعتصمون به ولم تقلهم أرض ولا أظلتهم سماء سائر أيامه ، فقد كان خليفة ونائبا عن أخيه المولى الرشيد سبع سنين ، وسلطانا وملكا مستقلا سبعا وخمسين سنة ، حتى كان جهلة الاعراب يعتقدون أنه لا يموت ، ويقال : ان البعض من اولاده كانوا يستبطئون موته ويعبرون عنه بالحى الدائم ، وهذه المدة التى استوفاها المولى اسمعيل فى الملك والسلطان لم يستوفها أحد من خلفاء الاسلام وملوكه سوى المستنصر العبيدى صاحب مصر، فانه أقام فى الخلافة ستين سنة ، لكن لا سواء ، فان المولى اسمعيل رحمه الله استوفى مدة الخلافة بثمرتها ، وتملاها بكمال لذتها ، لانه وليها فى ابان اقتداره عليها واضطلاعه بها بعد سن العشرين كما مر ، لا فى مدة النيابة ولا فى مدة الاستقلال ، ولم يكن عليه استبداد لاحد ، ولا نغص عليه دولته منغص سوى ما كان من ثورة ابن محرز وابنه المولى محمد العالم،

ومن سلك سنتهم من القرابة ، وكلهم كان يشغب في الاطراف ، لم يحصل منهم كبير ضرر للدولة ، بخلاف المستنصر العبيدي فانه ولي وهو ابن سبع سنين فكان في صدر دولته تحت الاستبداد وحدث في أيامه الغلاء العظيم

قال ابن خلكان : وهو غلاء لم يعهد مثله بمصر منذ زمان يوسف عليه الصلاة والسلام ، واستمر سبع سنين أكل الناس فيها بعضهم بعضا وبيع رغيف واحد بخمسين دينارا ، وكان المستنصر في هذه الشدة يركب وحده وكل من معه من الخواص مترجلون ليس لهم دواب يركبونها ، وكانوا اذا مشوا يتساقطون في الطرقات من الجوع ، الى غير ذلك فلذا قلنا لا يستوي حال ملك المولى اسمعيل وملك المستنصر رحمهما الله .

ولما كانت سنة تسع وثلاثين ومائة والف مرض أمير المؤمنين المولى اسمعيل مرض موته قال في «نشر المثاني» : كان ابتداء مرضه في ثاني يوم من جمادى الاولى من السنة المذكورة ، ولما أحس بالضعف بعث الى ولده المولى احمد صاحب تادلا يستقدمه فقدم عليه واقام ثلاثا ثم اخترمته المنية رحمه الله يوم السبت الثامن والعشرين من رجب سنة تسع وثلاثين ومائة وألف ، وتولى غسله الفقيه أبو العباس احمد بن أبي القاسم الصميري ، وصلى عليه الفقيه العلامة أبو علي الحسن بن رحال المعداني ودفن بضريح الشيخ المجذوب رضي الله عنه من حضرة مكناسة .

قال في « البستان » : كان السلطان المولى اسمعيل قد عهد بالامر الى ولده المولى أحمد المذكور وكان يعبر عنه بولي العهد ، وأنكر أكنسوس أن يكون السلطان المذكور قد عهد لاحد من أولاده ، قال : كما أخبرني بذلك السلطان العالم المولى سليمان بن محمد رحمه الله مرارا وكان يحكي في ذلك خبرا ، وهو أن المولى اسمعيل لما أيقن بالموت دعا وزيره وعالم حضرته الكاتب أبا العباس اليحمدي وقال له : « اني في آخر يوم من أيام الدنيا فاحببت أن تشير علي بمن أقلده هذا الامر من ولدي لانك أعرف بأحوالهم مني فقال له : « يامولانا لقد كلفتني أمرا عظيما وأنا أقول الحق : انه لا ولد لك تقلده أمر المسلمين ، كان لك ثلاثة، المولى محرز والمولى

المأمون والمولى محمد فقبضهم الله اليه» فقال له السلطان : «جزاك الله خيرا» وودعه وانصرف ولم يعهد لاحد وانما العبيد كانوا يقدمون من شاءوا ، ويؤخرون من شاءوا ، وكان المولى سليمان رحمه الله يحكي ذلك عندما يعرض له ذكر أولاده هو والله أعلم .

بقية اخبار المولى اسماعيل رحمه الله ومآثره وسيرته

قال اليفرني في «النزهة» «لم يزل أمير المؤمنين اسمعيل رحمه الله في مقارعة أعدائه الى ان دوخ بلاد المغرب كلها واستولى على سهلها ووعرها» واستولى على تخوم السودان وانتهى منها الى ما وراء النيل ، وانتشرت دولته في عمائرها وبلغ من ذلك مالم يبلغه المنصور السعدي ، وامتدت مملكته في جهة الشرق الى بسكرة من بلاد الجريد ونواحي تلمسان والله أعلم حيث يجعل رسالاته » اه وقال في « البستان » كان للمولى اسمعيل من الولد على ما تواتر به الخبر خمسمائة ولد ذكر ومن البنات مثل ذلك أو قريب منه ، قال : والذى عقب من اولاده على ما رأيناه عيانا في دفتر السلطان المولى محمد بن عبد الله اذ كان يصلهم في كل سنة ، وكان يبعث لتفرقة الصلة عليهم بسجلماسة مائة دار وخمس دور كلها لاولاده لصلبه ، واما الذين لم يعقبوا أو عقبوا وانقطع نسلهم فليسوا في الدفتر ، واما الحفدة والاسباط فكان عددهم في أيام السلطان المولى محمد بن عبد الله ألفا وخمسمائة وستين ، وقد زادوا اليوم في دولة السلطان المولى سليمان بن محمد ، ولم يزل يصلهم الى الآن على ما في دفتر والده ومن زاد يزاد له ، قال : وأما ما أدركناه من أولاد المولى اسمعيل لصلبه في دولة السلطان المولى محمد فثمانية وعشرون رجلا نعرفهم بالاسم والعين . ومن بناته لصلبه مثل ذلك قد أنزلهن السلطان بقصر حمو بن بكة ورتب لهن المؤنة والكسوة والصلة في كل سنة ، وأنزل معهن الحوافد اللاتي لا أزواج لهن ،

وكل واحدة من هذه الدور المائة والخمس التي بسجلماسة لواحد من أولاد صلبه لانه كان رحمه الله اذا رأى أحدا من اولاده الذين لم يرد اقامتهم معه بالمغرب قد بلغ أرسله الى سجلماسة وبنى له بها قصرا أو دارا وأعطاه نخلا وأرضا للحراسة والفلاحة ومماليك يقومون له بخدمة أصله وحراثة أرضه في الشتاء والصيف ، ويعطي كل واحد من ذلك على قدر مرتبته عنده ومنزلة أمه منه ، فتناسلت أولادهم ونمت فروعهم ووفر الله جمعهم وحفظ نظامهم ، وكان رحمه الله سديد النظر في نقل أولاده بأمهاتهم من مكناسة الى تافيلالت مع بني عمهم من الاشراف ليندربوا على معيشتها التي تدوم لهم فكان ذلك صونا لهم من نكبات الدهر وفضيحة الخصاصة بعد موته وزوال النعمة وانزواء رداء الملك الساتر لهم بين العامة ، فنجحوا وأفلحوا بخلاف اخوانهم الذين ربوا بمكناسة واستمروا بها الى أن توفي والدهم وألفوا عوائدهم ومرنوا على شهواتهم فانهم لم ينم لهم نسل كاخوانهم الذين بالصحراء هذا ما يتعلق بنسل السلطان المولى اسمعيل .

وأما مبانيه بقلعة مكناسة وقصوره ومساجده ومدارسه وبساتينه فشيء فوق المعهود بحيث تعجز عنه الدول القديمة والحادثة من الفرس واليونان والروم والعرب والترك ، فلا يلحق ضخامة مصانعه ما شيده الاكاسرة بالمدائن ، ولا الفراعنة بمصر ، ولا ملوك الروم بروما والقسطنطينية ، ولا اليونان بأنطاكية والاسكندرية ، ولا ملوك الاسلام ودوله العظام كبني أمية بدمشق ، وبني العباس ببغداد ، والعبيديين بأفريقيا ومصر ، والمرابطين والموحدين وبني مرين والسعديين بالمغرب ، ومابديع المنصور بقصر من قصوره ولا بستان المسرة بأحد بساتينه ، فقد كان عنده بجنان حمرية مائة ألف نعدة من شجر الزيتون وحبسه كله على الحرمين الشريفين ، ومرت عليه بعد وفاته العصور وأيام الفترة والفتن والناس يحتطبونه فلم يظهر فيه أثر من ذلك ، ولما بويع السلطان المولى محمد بن عبد الله أحياه وأجرى الماء اليه وأمر باحصاء ما بقي من شجره فوجدوه ستين ألفا فكان رحمه الله يبعث بثمن غلته الى الحرمين تنفيذا لمراد جده وكذا ابنه المولى سليمان رحمه الله .

قال صاحب « البستان » : « ولقد شاهدت الكثير من آثار الدول فما رأيت أثرا أعظم من آثاره ، ولا بناء أضخم من بنائه ولا أكثر عددا من قصوره ، لان هؤلاء الدول كان من اعتنى منهم بأمر البناء غاية أمره أن يبني قصرا ويتأنق في تشييده وتجديده ، وهذا السلطان لم يقتصر على قصر ولا على عشرة ولا عشرين بل جعل مباني العالم كلها في بطن تلك القلعة المكناسية كما قيل : « كل الصيد في جوف الفرا » هذا كلام صاحب البستان رحمه الله . ثم قال .

وكان في سجونه من الاسارى خمسة وعشرون الفا ونيفا ، كانوا يعملون في بناء قصوره منهم الرخامون والنقاشون والنجارون والحدادون والمنجمون والمهندسون والاطباء ، ولم تسمح نفسه قط بفداء أسير .

وكان في سجونه من أهل الجرائم كالقاتل والمحارب والسارق نحو الثلاثين ألفا تظل في العمل مع أسرى الكفار ويبيتون في السجون والاهراء تحت الارض ، ومن مات منهم دفن في البناء حتى لم يبق بالمغرب من أهل الفساد عرق ينبض . ومما مدح به المولى اسمعيل رحمه الله قول الفقيه الاديب أبي عبد الله محمد بن عبد الله الجزولي من قصيدة له

مولاي اسمعيل ياشمس الورى يامن جميع الكائنات فدى له
ما أنت الا سيف حق منتضى الله من دون البرية سله
من لا يرى لك طاعة فالله قد أعماه عن طرق الهدى وأضله

ولنذكر ما سلف في هذه المدة من الاحداث

ففي سنة احدى وسبعين والف توفي الشيخ أبو عبد الله سيدي محمد المفضل ابن الشيخ أبي العباس أحمد المرسي ابن الشيخ الاكبر أبي عبد الله سيدي محمد الشرقي ، كان رحمه الله صالحا خيرا من فضلاء عصره حافظا للقرآن بالسبع ، قد اشتهر قدره في الناس كثيرا ، وكان يفر من ذلك واذا سأله أحد أن يتخذه شيخا يقول : « نحن اخوة في الله والدرهم الكامل ينفق منه » أخذ القراءات عن الفقيه الاستاذ أبي زيد عبد الرحمن بن القاضي وكتب له الاجازة بذلك ، وكان له نصيب من العلوم سوى القراآت ، وانتسب في

الطريق للولي الصالح أبي عبد الله محمد الحفيان الرتبي السجلماسي من اصحاب الشيخ ابي عبيد الشرقي ، وتخرج عليه نجباء من طلبه القراآت وكان رحمه الله كثير الطعام بزاوية جده أبي عبيد الشرقي ، ثم انتقل الى ناحية سلا فسكن باحوازها وبقي هنالك الى ان مات في التاريخ المذكور فحمل الى المدينة المذكورة ودفن بطالعتها قرب المسجد الاعظم ، وقبره اليوم مزارة عظيمة ، وكان له كلام كثير على طريق العروبي الملحون خاطب به الرئيس محمد الحاج الدلائي حين مشت الوشاة بينهما فوقعت من اجل ذلك بينهما مكاتبات ومعاتبات رحمهما الله .

وفي سنة اثنتين وسبعين وألف توفي الشيخ الرباني أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن عبد الله بن حسين المصلوحي دفين تامصلوحت من أعمال مراكش ، وقد تقدم التنبيه على وفاة جده أبي محمد عبد الله بن حسين المذكور ، وكانت له شهرة عظيمة وكان ابتداء أمره أنه تلمذ له طائفة من الفقراء بمراكش ، واجتمع عليه ناس فأنكر ذلك السلطان زيدان بن المنصور وأمره بالقبض عليه فخرج الى قبيلة سكتانة حيث ضريحه اليوم فاستقر بها الى أن توفي ، وكان يقول : « لا يأتينا الا من أمنه الله لان مقامنا هذا مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا » وكان يقول : « دارنا دار سر لا دار علم » وكان اذا دخل شهر المحرم ترك حلق الشعر والزينة فاذا ليم على ذلك قال : « ما فعلنا هذا إلا امتعاضا لقتل الحسين رضي الله عنه وأسفا على ما وقع به » وكان يعمل السماع ويجتمع أصحابه على الحضرة على الكيفية المعهودة وربما تواجد فدخل معهم ، وكانت له مشاركة في العلوم أخذ عن الشيخ المنجور وأبي محمد بن طاهر الحسني وأبي مهدي السكتاني وغيرهم . وتوفي في التاريخ المتقدم عن سن عالية يقال : أناف على المائة وبنيت عليه قبة حافلة وقبره اليوم مزارة عظيمة .

وفي أواخر سنة ثلاث وسبعين وألف مع السنة التي بعدها حدثت مجاعة عظيمة بالمغرب لاسيما فاس وأعمالها أكل الناس فيها الجيف والدواب والآدمي وخلت الدور وعطلت المساجد ثم تدراك الله عباده بلطفه

وفي سنة خمس وسبعين وألف في عاشر رمضان منها وقعت زلزلة عظيمة بفاس وغيرها من بلاد المغرب . قال الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد الهادي الشريف السجلماسي : « وقعت الزلزله في التاريخ المذكور ونحن بمجلس البخاري عند شيخ الجماعة الامام ابي محمد عبد القادر الفاسي رحمه الله ، فقام كل من بالمجلس حتى الشيخ ظنا منا ان السقف سيسقط علينا لان خشبه صوتت ، وخرج سرعان الناس يلتمسون الخبر ، فاخبر بها كل من كان راقدا أو جالسا حتى النائم انتبه ، ومن كان ماشيا لم يشعر بها ، سئل الشيخ عن ذلك وهل هو كما تزعم العامة : من ان الثور الذي عليه الدنيا أو الحوت يتحرك ، فأجاب : بأن ذلك باطل لا اصل له ، وتلا قوله تعالى : « وما نرسل بالآيات الا تخويفا » وقال أيضا ، ذكر بعض الحكماء ان ذلك يقع من اختناق الريح في جوف الارض »

وفي يوم الاثنين الثامن والعشرين من رجب سنة سبع وسبعين وألف توفي البهلول المتبرك به سيدي قاسم بن أحمد بوعسرية المعروف بابن اللونه دفين ضفة وادي ارضم من بلاد آزغار ولم يتزوج قط فلم يكن له عقب هكذا في « نشر المثاني » ولعله تصحيف ، والصواب ما ياتي من أنه توفي سنه سبع وتسعين بمثناة بمهملتين والله أعلم

وفي سنة خمس وثمانين وألف توفي شيخ السنة وامام الطريقة أبو عبد الله سيدي محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الحسين بن ناصر ابن عمرو الدرعي ثم الأغلاتي الشهير بابن ناصر ، نسبة الى جده المذكور في النسب قال تلميذه الشيخ أبو علي اليوسي في فهرسته : كان الشيخ رضي الله عنه مشاركا في فنون من العلم كالفقه والعربية والكلام والتفسير والحديث والتصوف ، عابدا ناسكا ، ورعا زاهدا ، عارفا قائما بالطريقة ، شاربا من عين الحقيقة ، وكان رضي الله عنه مع اكبابه على علوم القوم وانتهاجه منهج الطريقة لا يخل بعلم الظاهر تدريسا وتأليفا وتقييدا وضبطا ، فنفع الله به الفريقين وصحبه الناس شرقا وغربا . فانتفع به الخلق ، قائما بالتعليم والتربية للمريدين بقوله وفعله ، والترقية بهمته ، عن همة عالية وحالة

مرضية وعلم صحيح وبصيرة ونورانية مع التمكن والرسوخ ، فكان اذا تكلم انتقش كلامه في القلب ، واذا وعظ وضع الهناء مواضع النقب . » ثم أطال الشيخ اليوسي في ترجمته ، وذكر له كرامات عديدة ، وقد أفصح عن حاله ووصفه في قصيدته الدالية المشهورة الموضوعة في مدحه ، وأتى فيها من الاجلال لهذا الشيخ والتعظيم بما كان سبب ربحه . ولهذا الشيخ شيوخ وأتباع معروفون في كتب الائمة الذين تعرضوا لبيان ذلك وطريقه المتصلة برسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة أيضا ، وكان والده سيدي محمد ابن أحمد من أكابر الاولياء كثير الاوراد لا يفتر لسانه عن الاذكار حسبما نقله غير واحد والله تعالى أعلم .

قال مؤلفه عفي الله عنه : وهذا الشيخ هو جدنا واليه ننتسب فأنا أحمد ابن خالد بن حماد بن محمد الكبير بن أحمد بن محمد الصغير بفتح الميم بن محمد بن ناصر الشيخ المذكور نفعنا الله به وأفاض علينا من مدده ومدد أمثاله ، وأسلافنا ينتسبون بعد الشيخ المذكور الى سيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، ولست الآن من ذلك على تحقيق ، ولعلنا نحققه في موضع آخر ان شاء الله

وفي حدود التسعين وألف كان انحباس المطر والغلاء . قال الشريف أبو عبد الله محمد بن الطيب القادري في « الازهار الندية » : أن القمح قد بلغ في هذه المدة الى أربعين أوقية للمد بسبب تأخر المطر والمد صاع ونصف . وصلى الناس صلاة الاستسقاء فأول امام خطب فيها القاضي أبو عبد الله محمد العربي بردلة وكررها ثلاث مرات فنزل مطر يسير لم يكف ، ثم أعيدت الصلاة رابعة فكان الخطيب فيها الفقيه أبو عبد الله محمد البوعناني ، ثم أعيدت خامسة والخطيب القاضي بردلة ، ثم أعيدت سادسة والخطيب أبو عبد الله محمد المرابط الدلائي وفيها بلغ القمح ستين أوقية وهو غلاء لم يسمع بمثله ، ثم أعيدت الصلاة سابعة والخطيب أبو عبد الله البوعناني ، ثم أعيدت ثامنة والخطيب الشيخ الولي الزاهد ابو عبد الله محمد العربي الفشتالي ، وفي عشية غده نزل المطر مع رعد وبرق ففرح المسلمون وأكثروا من حمد الله

تعالى ، ثم أعيدت الصلاة تاسعة والخطيب القاضي بردلة ، وخرج يومئذ في جملة الناس شيخ الاسلام وبركة الامة الامام أبو محمد سيدي عبد القادر الفاسي راكبا على حمار جاعلا الاشراف من أهل البيت الطاهر أمامه مستشفعا بهم الى الله تعالى ، فنزل عند الرجوع مطر قليل ، ومن الغد نزل المطر الغزير الكافي النافع فانحطت الاسعار ونزل القمح الى خمس وثلاثين أوقية بعدما كررت الصلاة تسع مرات ، وكانت الصلاة التاسعة يوم الاثنين خامس المحرم فاتح سنة احدى وتسعين والف .

وفي سنة تسع وثمانين وألف في ليلة الجمعة الثاني عشر من شعبان منها توفي الشيخ المولى أبو محمد عبد الله الشريف الوزاني الشهير . وكان عمره يوم توفي خمسا وثمانين سنة ، وتوفي ولده الشيخ المولى أبو عبد الله محمد وقت العشاء ليلة الجمعة الثامن والعشرين من المحرم سنة عشرين ومائة وألف ، وعمره يومئذ ثمانون سنة ، وتوفي ابنه الشيخ القطب المولى التهامي بن محمد طلوع شمس يوم الاثنين فاتح المحرم من سنة سبع وعشرين ومائة والف ، وعمره ست وستون سنة، وتوفي الشيخ مولاى الطيب بن محمد يوم الاحد وقت طلوع الفجر ثامن عشر ربيع الثاني سنة احدى وثمانين ومائة وألف ، وعمره نيف وثمانون سنة ، وتوفي ابنه الشيخ مولاى احمد ضحوة يوم السبت الثامن عشر من صفر سنة ست وتسعين ومائة وألف ، وتوفي ابنه الشيخ مولاى على بن احمد يوم الثلاثاء آخر يوم من ربيع الاول سنة ست وعشرين ومائتين والف وتوفي ابنه الشيخ سيدى الحاج العربي بن على يوم الاربعاء فاتح سنة سبع وستين ومائتين والف . وقد أتينا بوفاة هؤلاء السادة الوازانيين مجموعة هنا لما في ذلك من المناسبة والتقريب ، ويتصل نسبهم بالمولى يملح بن مشيش أخي المولى عبد السلام بن مشيش ثم بالمولى ادريس بن ادريس رضي الله عنهم وأماتنا على محبتهم وحشرنا في زمرتهم .

وفي سنة تسعين والف وقع الوباء العظيم بالمغرب فكان عبيد السلطان يردون الواردين من الآفاق على مكناسة الزيتون كما مر .

وفي سنه احدى وتسعين والف بعد ظهر الاربعاء الثامن عشر من رمضان منها توفي شيخ الجماعة بفاس والمغرب الامام الكبير العالم الشهير الشيخ ابو محمد عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي ، ولا يحتاج مثله رضي الله عنه الى تعريف فان مآثره اشهر من «مفاتيك» ، قالوا : ومع غزارة علمه واتفاع أهل المغارب الثلاثة به لم يتصد لجمع كتاب مخصوص ولا شرح متن من المتون ، وانما كانت تصدر عنه اجوبة يسئل عنها فيجيب ويجيبه وجمعها بعض أصحابه فجاءت في مجلد .

وفي سنة خمس وتسعين وألف توفي الولي الصالح أبو محمد عبد الله العوني دفين سلا من أصحاب الشيخ سيدي محمد المفضل

وفي سنة ست وتسعين والف توفي الشيخ العلامة المشارك أبـو زيـد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي صاحب نظم عمل فاس و «الاقنوم فـي مبادىء العلوم» وغيرهما من التآليف الحسان .

وفي سنة سبع وتسعين والف توفي الشيخ العـارف بالله تعـالى ذو الاحوال الربانية والمواهب العرفانية أبو القـاسم ابن أحمد الموشة السفياني المعروف بأبي عسرية ، لانه كان يعمل بشماله أكثر من يمينه . كـان مـن المولهين في ذات الله تعالى ومن أهل الاحوال والشطحات ، يقال : انه حمل وهو صبي الى الشيخ أبي عبيد الشرقي فبرك عليه ودعا بقرب من مـاء فصبت عليه وقال : لولا انا بردنا هذا الصبي لاحرقته الانوار ، ولذا كان يهتف بأبي عبيد كثيرا وينادي باسمه وينسب جميع ما يظهر على يده له .

وفي سـنة احدى ومائة والف أمر السلطان الناس بأن لا يلبسوا النعال السود ولا يلبسها الا اليهود وتقدم التنبيه على ذلك عقب فتح العرائش .

وفي سنة اثنين ومائة والف توفي الشيخ الامام علـم الاعلام آخـر علماء المغرب على الاطلاق ، الذي وقع على علمه وصلاحه الاتفاق ، أبـو علي الحسن بن مسعود اليوسي نسبة الى آيت يوسي قبيلة من برابر ملوية وأصله اليوسي ، كان رضـي الله عنه غزالي وقته علما وتحقيقا وزهدا وورعا ، قال في فهرسته : كانت قراءتي كلها أو جلها فتحا ربانيا ، ورزقت ولله الحمـد

قريحة وقادة فكنت بادئ سماع ينفعني الله ، فقد أسمع بعض الكتاب فيفتح الله على في جميعه فتحا ظاهرا ، وأبلغ فيهما لم يبلغه من سمعته منه ، ورب كتاب لم أسمعه أصلا غير أن سماع البعض في كل فن صار مبدأ للفتح وتتميما لحكمة الله في سنة الاخذ عن المشايخ ، ولا تستوحش مما ذكرناه ظنـا منك أن الربح أبدا يكون على قدر رأس المال ، كلا ، فقد يبلغ الدرهـم الواحد ألف مثقال وما ذلك على الله بعزيز .

وكان معظم قراءته بالزاوية الدلائية لم يزل مقيما بهـا عاكفا على بث العلم ونشره الى ان استولى عليها المولى الرشيد بن الشريف فنقله الى فاس، فأقام بها مدة ، ثم خرج الى البادية فاستوطن بقبيلته الى أن مات رحمه الله ،

وكان رضى الله عنه متضلعا من العلوم العقلية والنقلية حتى قال فـي تأليفه المسمى «بالقول الفصل في الفرق بين الخاصة والفصل» : «أنـه بلـغ درجة الشيخ سعد الدين التفتازاني والسيد الجرجانـي واضرابهماه وسألـه يوما سائل بمجلس درسه فقال له : «اسمع ما لا تسمعه مـن انسان ، ولا تجده محررا في ديوان ، ولا تراه مسطرا ببنان ، وانما هـو مـن مواهب الرحمن» ولما دخل مراكش تصدر بها لاقراء علم التفسير بجامع الاشراف فمكث في تفسير الفاتحة قريبا من ثلاثة أشهر ، وهو يبدى كل يوم اسلوبا غريبا ، وتحقيقا عجيبا ، فعجب الناس من غزارة مادته مع انه ربما بات فـي ضريح بعض الاولياء والناس معه فلا يطالع كتابا ولا يراجع مؤلفا فاذا أصبح وجلس على الكرسي أطلق لسانه بما يبهر العقول . وكـان الشعر عنـده أسهل من النفس وشعره كله حكم وأمثال كشعر العرب القدماء ، وقصيدته الدالية في شيخه ابن ناصر دالة على امتداد باعه ورسوخ قدمه فـي المعارف الفنون . ولله در الامام أبي سالم العياشي اذ قال :

من فاته الحسن البصري يصحبه فليصحب الحسن اليوسي يكفيـه

وبالجملة فهو آخر العلماء الراسخين ، بل خاتمة الفحول من الرجال المحققين ، حتى كان بعض الشيوخ يقول هو المجدد على رأس هـذه المائة لما اجتمع فيه من العلم والعمل بحيث صار امام وقته وعابد زمانـه رحمه الله

ورضي عنه .

وفي سنة ثلاث ومائة والف في ليلة الاربعاء السابع من شهر ربيع الاول منها توفي الولي الصالح أبو العباس سيدي احمد حجي . قال الشيخ أبو العباس سيدي احمد بن عبد القادر التستاوتي في حقه ما نصه : رجل خيرصالح ولقد اجتمعت به بمكناسة سنة ست وتسعين والف فما رأيت منه الا خيرا ، اه . ولما توفي خلفه ولده ووارث سره وضجيعه في قبره الولي الصالح سيدي أبو محمد عبد الله حجي المعروف بالجزار وضريحهما مزارة شهيرة بسلا .

وفي سنة تسع او عشر ومائة والف توفي الفقيه العدل النوازلي الفارض الحاسب أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابي شعرة السلاوي ودفن قرب ضريح الشيخ ابن عاشر رضي الله عنه .

وفي سنة خمس عشرة ومائة والف توفي الامام الفقيه الاديب الناظم الناثر أبو القاسم ابن الحسين الغريسي ثم السلاوي المعروف بابي زائدة وذلك في جمادى الاولى من السنة ودفن قرب ضريح الشيخ ابن عاشر رضي الله عنه .

وفي سنة ثمان عشرة ومائة والف في ضحى يوم الاربعاء الثامن والعشرين من المحرم منها كسفت الشمس كسوفا كليا وسمى ذلك العام عام الظليماء .

وفي سنة تسع عشرة ومائة وألف توفي الشيخ الامام العلامة الهمام ذو التصانيف المفيدة في كل فن، الحجة المتبرك به حيا وميتا أبو سرحان سيدي مسعود جموع الفاسي ثم السلاوي وذلك يوم الثلاثاء سابع جمادى الاولى من السنة ودفن بزاوية الشيخ سيدي أحمد حجي داخل مدينة سلا

وفي سنة عشرين ومائة وألف توفي الولي الصالح العابد الناصح أبو العباس أحمد بن عبد الله معن الاندلسي نزيل المخفية من فاس حرسها الله. وفي هذه السنة أيضا كان احداث قراءة المسمع الحديث المتضمن لامر الناس بالانصات وقوله : أنصتوا رحمكم الله ثلاثا عند خروج الامام يوم الجمعة

من المقصورة وجلوسه على المنبر

وفي سنة اثنين وعشرين ومائة وألف وذلك وقت عصر الثلاثاء الثاني والعشرين من صفر منها توفي الولي الصالح سيدي أبومحمد عبد الله بن سيدي أحمد حجي المعروف بالجزار ودفن بإزاء قبر أبيه كما مر .

وفي يوم الاربعاء العشرين من ربيع الثاني من السنة المذكورة توفي الفقيه العلامة أبو عبد الله محمد بن الامين الحاج محمد الصبيحي السلاوي ورثاه الشيخ أبو العباس سيدي أحمد بن عبد القادر التستاوتي بقوله :

جزعنا وان كنا على العلم أنه اذا ما أراد الله أمرا تعجلا

لفقد الامام المجتبي العالم الرضى الصبيح ومن في وقته قد تنبلا

والا فمختار الاله اختيارنا ونرجو له خيرا عميما مكملا

ورثاه أيضا صديقه الملاطف الشيخ أبو العباس أحمد بن عاشر الحافي السلاوي رحم الله الجميع

وفي سنة سبع وعشرين ومائة وألف ليلة الاربعاء فاتح رجب منها توفي الولي الصالح العالم العامل العارف الشهير الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد القادر التستاوي من كبار أصحاب الشيخ ابن ناصر ومن حفدة الشيخ أبي عبد الله محمد بن مبارك الزعري المتقدم الذكر ، ومآثر هذا الشيخ أشهر من أن تذكر ، وزواياه عميمة النفع والبركة بالمغرب ، وكانت وفاته بمكناسة الزيتون وضريحه بها شهير عند روضة الشيخ سيدي عبد الله بن حامد رضي الله عنهم ونفعنا بهم .

وفي سنة تسع وعشرين ومائة والف في الثامن عشر ربيع الاول منها توفي الشيخ القدوة الامام السني أبو العباس سيدي أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي وهو ولد الشيخ ابن ناصر المتقدم وخليفته ووارث سره وفضله رضي الله عنه أشهر من أن ينبه عليه ، ومن ذلك ما حكاه الشيخ أبو علي الحسن بن محمد المعداني في كتابه الروض اليانع الفائح في مناقب الشيخ أبي عبد الله الصالح ، قال : حدث بعض العلماء الاجلة : أنه لما دخل الشيخ أبو العباس أحمد بن ناصر الدرعي المدينة المشرفة في حجته الاخيرة جلس

تجاه الحجرة النبوية والناس يزدحمون عليه لاخذ العهد وتلقين الاوراد وهو منبسط لذلك فقلت في نفسي ان هذا الرجل مغرور راض عن نفسه ، كيف يتصدى في هذا المكان الذي تخضع فيه الملوك وجميع الانس والجن والملائكة واذا طلعت الشمس اخفى السراج ، قال : فكاشفني بما في نفسي والتفت الي وقال : « والله ما جلست لما ترون حتى أمرني النبي صلى الله عليه وسلم . وما أذعنت له حتى هددت بالسلب . قال : « فسقطت على يديه أقبلها وقلت له : « ياسيدي أنا تائب الى الله تعالى فدعا لي وانصرفت » ومما حكاه صاحب الكتاب المذكور قال : « حدث الرجل الصالح البركة الفقيه الناصح سيدي محمد بن ابراهيم المجاصي قال : كان السلطان المولى اسمعيل بن الشريف رحمه الله قد استدعى الشيخ سيدي احمد بن ناصر ، وكان به حنق عظيم عليه ، وعزم اذا وصل اليه أن يفعل به مكروها لا تدرى حقيقته غير ان الامر شديد ، فجاء الى الشيخ جماعة من العلماء الاعلام وأصحابه الملازمين له ، وقد تخوفوا عليه وعلى انفسهم غاية ، فكلموا الشيخ في ذلك واستفهموه ليعلموا ما عنده من عادة الله تعالى مع اوليائه من النصرة لهم والذب عنهم فلم يسمعوا منه كلمة ، ثم راجعوه في ذلك حتى هابوه وسكتوا عنه ، وقدم الشيخ المذكور على السلطان فلما انتهى الى قصة آكراي قرب مكناسة الزيتون اذا برجل مجاطي يقال له : الحاج عمرو لقيه هنالك ، فلما رآه الشيخ نزل عن فرسه ليسلم عليه فقال الشيخ : « ما الخبر ياولدي ؟ » فقال الرجل : « ما الخبر ياسيدي : والله لوددت أن سيدي لم يصل الى هنا ولم يخرج من داره ، يعني أن الامر عظيم . فقال له الشيخ رضي الله عنه بلسان العناية الربانية : « ولا ما يشوش ، اذا كان في رقبتك شبر وأشار بيده فاعمل فيها ذراعا ومد ذراعه ، ففرح العلماء الذين معه وكل من حضر بتلك المقالة ، وتيقنوا الامن على الشيخ وعلى أنفسهم لما يعلمون من عادة الله الكريمة معه فكان الامر كما قال ، فان السلطان جاء اليه بنفسه وهو في روضة الشيخ أبي عثمان سعيد بن أبي بكر ، وتلقاه بالقبول والتعظيم والتبجيل والتكريم . وصافحه بيده ، وجلس معه في داخل القبة ساعة ، ولما خرج السلطان رحمه

الله من عنده جعل يأتي بالماء إلى أصحابه ويقول : « زوروا سيدي أحمد ابن ناصر يا الناس زوروا سيدي أحمد بن ناصر يا الناس » ويكررها من صميم قلبه ، قال سيدي محمد بن ابراهيم : « فلما انصرف السلطان من عند الشيخ رضي الله عنه جئت اليه وقلت له : ياسيدي انا نخاف أن يشتغل السلطان بضريح الشيخ سيدي عبد الرحمن المجذوب ويطول بنا المقام » فقال لي : « لا تبقى الا هنا وبعد غد تنصرف الى بلادنا ان شاء الله » فكان الامر كما قال بعد أن جاء الامر من السلطان يأمره بالنزول بضريح الشيخ المجذوب فقال : « لا أنزل الا هنا » فبقي في موضعه ثم بعث اليه السلطان يأمره بالتوجه الى بلاده معظما مكرما » اه .

وفي سنة تسع وعشرين ومائة وألف في ليلة عيد الفطر منها توفي الفقيه العالم القاضي أبو العباس أحمد بن العلامة أبي الحسن علي المراكشي وصلي عليه من الغد ودفن بالموضع المسمى بالذاري من رباط الفتح .

وفي سنة احدى وثلاثين ومائة وألف في ليلة الاحد ثامن عشر المحرم منها توفي الشيخ الصالح أبو علي الحسن بن عبد الله العايدي الصغيري ودفن بزاوية من حومة السويقة من سلا وفرغ من بناء قبته في رجب من السنة بعدهما .

وفي سنة ثلاث وثلاثين ومائة وألف يوم الاثنين خامس عشر رجب منها توفي الفقيه العلامة خاتمة المحققين وآخر قضاة العدل بفاس الشيخ أبو عبد الله محمد العربي بن أحمد بردلة الفاسي ، وفي التاريخ المذكور توفي الشيخ العلامة المشارك به أبو العباس أحمد بن سليمان ذو التآليف العديدة في اللسان وقبره بحضرة مراكش رحمه الله .

وفي سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف كانت جائحة الجراد بالعدوتين سلا ورباط الفتح وأحوازهما وهي التي تسمى في لسان المغاربة بالمرود فكان كالسيل العظيم لم يترك ورقة خضراء الا أكلها وكان ذلك في شوال من السنة المذكورة .

وفي سنة تسع وثلاثين ومائة وألف يوم الاربعاء ثاني عشر صفر منها

توفى الشيخ العارف بالله تعالى سيدي محمد الصالح ابن الشيخ العارف بالله تعالى سيدي محمد المعطى بن سيدي عبد الخالق بن سيدي عبد القادر ابن الشيخ الاكبر سيدي محمد الشرقي ، ومناقبه قد تكفل بها كتاب « الروض الفائح في مناقب الشيخ أبي عبد الله الصالح » لابي علي المعدانى وفى هذه السنة ضحى يوم السبت ثامن ذى القعدة منها توفى الفقيه العلامة المحقق سيدى أبو بكر بن على الفرجى المراكشي ثم السلاوى واحتفل الناس لجنازته وازدحموا على نعشه حتى كادوا يقتتلون عليه ودفن قرب داره بزاوية سيدي مغيث من طالعة سلا حرسها الله .

الخبر عن الدولة الاولى لامير المومنين المولى ابى العباس احمد بن اسماعيل المعروف بالذهبى رحمه الله

لما توفى أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله فى التاريخ المقدم اجتمع قواد العسكر البخاري وقواد الودايا وأعيان الدولة وكتابها وقضاتها وبايعوا المولى أبا العباس أحمد بن اسمعيل المعروف بالذهبى لبسط يده بالعطاء ، قال أكنسوس : بايعوه باشارة العبيد الشبيهة بالجبر ولم يكن ذلك عن عهد من أبيه وكتبوا ببيعته الى الآفاق . ولما اتصل بأهل فاس خبر موت السلطان كان أول من بدأوا به أن قتلوا قائدهم أبا على الروسي ، ثم بايعوا السلطان المولى أحمد وكتبوا بيعتهم وتوجه بها أعيانهم الى مكناسة فدخلوا على السلطان المولى أحمد وأدوا البيعة والطاعة فقبلهم ولم يظهر لهم سوءا بما ارتكبوه من قتل قائدهم ، بل أعطى العلماء والاشراف جائزة البيعة وولى عليهم القائد المحجوب العلج وردهم مكرمين .

ثم قدم عليه قواد القبائل والامصار وأعيانها من أهل الحواضر والبوادى مبايعين ومؤدين الطاعة فجلس للوفود وأجاز كلا على قدر مرتبته ، وردهم الى بلادهم ، وتفرغ لشأنه فافتتح عمله بقتل عمال أبيه وأركان دولته ، فقتل

على بن يشى البقلى أمير البربر ، وتنى بأحمد بن على أمر الاعمال الفاسية وما اتصل بها من بلاد الهبط ، والصحيح أن أحمد بن على المذكور كان عند بعة المولى أحمد فى السجن فدس اليه على بن يشى من ذبحه فيه فسامحه الله عليه السلطان فقدمه وكان جزاؤه من جنس عمله ، وقتل السلطان أيضا الباشا ابن الاشقر ومرجان الكبير قائد عبيد الدار وصاحب بيوت الاموال ، وكان لنظره ألفان ومائتان من الفتيان ، كلها موزعة على أبواب القصور وكل واحد من هؤلاء الخصيان له عبدان وثلاثة وأكثر يخدمونه .

واعلم أن المولى أحمد رحمه الله كان مستبدا عليه فى كثير من الاحوال يشير العبيد عليه فيفعل ومامثل من قتل من رؤساء الدولة الاباشارتهم، وقتل جماعة من القواد والكتاب سوى من تقدم، وضاق على بيوت الاموال ومخازن السلاح والكسى فأمر باخراج ذلك وتفرقته على العبيد وقواد الجيش وأعطى من ذلك فسوق الكفاية وعم العلماء والاشراف والطلبة بالنوال وخص أفرادا من العسكر بالوفر فاغتبط الناس به وحمدوه رحمه الله .

اغارة القائد أبى العباس احمد بن على الريفى على تطاوين وما دار بينه وبين الفقيه ابى حفص عمر الوقاش

كان القائد المجاهد أبو العباس أحمد بن على الريفى من [illegible] المجاهدين هو وأبوه من قبله بالثغور الهبطية أيام السلطان المولى اسمعيل رحمه الله وكانت له ولأبيه اليد البيضاء فى فتح طنجة والعرائش وغيرهما [illegible] بعضه فكانت له بذلك وجاهة كبيرة فى الدولة خصوصا ببلاد الهبط ، وكان بتطاوين يومئذ الفقيه الاديب أبو حفص عمر الوقاش من بيوتاتها وأهل الرياسة بها ، كان أولا كاتبا مع السلطان المولى اسمعيل رحمه الله ، وكانت له المنزلة العالية عنده ، ثم لما ضعف عن الخدمة السلطانية بكبر سنه ولاه على

تطاوين وأعمالها ، فحدثت بينه وبين القائد أبي العباس الريفي منافسة أوجبتها المجاورة والمعاصرة ، فكان يبلغ كل واحد منهما عن صاحبه ما يحفظه ، واستمر الحال على ذلك الى أن توفي السلطان المولى اسمعيل رحمه الله وأفضى الامر الى ابنه المولى أحمد فضيع الحزم وأهمل أمر الجند حتى سقطت هيبة السلطان من قلوب الولاة في النواحي ، فانتهز أبو العباس الريفي الفرصة في أهل تطاوين وزحف اليها في جيش كثيف ، ودخلها على حين غفلة من أهلها وحاول الفتك فيهم ، فبرز اليه الفقيه أبو حفص الوقاش في أهل تطاوين وحاربه فانتصر عليه ، وأوقع به وقعة أعظم مما كان أضمر له وقتل من اخوانه عددا كثيرا ، ونجا القائد أبو العباس بجريعة الذقن .

ولما اتفق للفقيه أبي حفص هذا الفتح الذي لم يكن له في حساب استخفه النشاط وغلبت عليه حلاوة الظفر حتى طمع في الملك وفاه من ذلك بما كان ينبغي له ولكل عاقل كتمانه ، فقال قصيدته المشهورة ينعى فيها على أهل الريف فعلهم وينتقص دولتهم ويفتخر على أهل فاس فمن دونهم ، ويخبر عن نفسه بما يؤول اليه أمره ، فزرى بأدبه على كبر سنه ، مع أنه كان من أهل الأدب البارع والعلم والرياسة والقصيدة المشار اليها هي قوله :

بلغت من العلياء ماكنت أرتجي * وأيامنا طابت وغنى بها الطير
ونادى البشير مفصحا ومصرحا * هلم أبا حفص فأنت لها الصدر
تهنيت سحبا لست أرقب بينه * وما راعني اذ ذاك زيد ولا عمرو
شرعت بحمد الله للملك طالبا * وقلت وللمولى المحامد والشكر
أنا عمر المعروف ان كنت جاهلا * فسل تجد التقدم عندي ولا فخر
أنا عمر الموصوف بالبأس والندى * أنا عمر المذكور في ورد الخضر
ظهرت لاحيي الدين بعد اندراسه * تطاوني من أمسى يساق له الامر
ولم يبق ملك يستقر قراره * فمنى النهى النعم الأريج والبحر
أنا عمر المشهور في كل غارة * أنا البطل المقدام والعالم الحبر
صففت الأعادي وانقدت لغيرها * وعن قليل يعظم الجاه والقدر
وجئت بعدل للأعاجم ناعتا * أنا الثاني المذكور بعدهما وتر

يعني أنه ثالث العمرين وقد كان يصرح بذلك ثم قال :

فمرطوط والرحمون والكوط عصبتي * ورانون كنزي والعمير به الشهر
أولئك أنصاري وارباب دولتي * وأهلي واصهاري هم الانجم الزهر
وقد دام بالديوان مجدي وسؤددي * وفخري في الاقطار باد كما الفجر
هلالي بدا لما هلالي أجابني * وغيلان اذ لبى بـه عظم الوفر
ودولة أهل الريف حسا سرقتي * فلم يبق بالتحقيق عندي لها خبر
أذقناهم لما أتـوا شر بأسنا * فابوا سراعا والصوارم والسمر
نطير الاكف والسواعد منهم * هنا تحقق للامام بنا النصر
يخفي حبيب آب عنا كبيرهم * وما فاته منا نكال ولا خسر
فمن ذا يضاهيني وملكي وافر * وذكري مضمون بـه البر والبحر

الى غير هذا مما لا غرض لنا في جلبه وقد اجابه الفقيه أبو عبد الله محمد بن بحة الريفي ثم المراكشي بقصيدة يقول فيها :

في صفحة الدهر قد خطت لنا عبر * منها ادعاء الحمار أنـه بشر
من مرعه القفا ومما رأى عجبا * حمر يصاحب دهيره الكبر

وهي طويلة الا ان قائلها لم يحكم صناعة الشعر فبدا ركاكها .

ولما اتصل خبر هذه الوقعة بأمير المؤمنين المولى أحمد رحمه الله أعرض عن الفريقين ودخل داره وعكف على لذاته وترك الناس وشأنهم ، وثار ببلاد الغرب والقصر واعماله فساد كبير بين القبائل واصحاب المخزن ، وهلك في ذلك بشر كثير وسقطت هيبة الخلافة وانحل نظام الدولة بالمرة لاسيما مع ما دهاها من قتل رجالها القائمين بأمورها ، وكان ذلك منتهى مراد الحبيب ، فقد كان علي بن شي أمير الامراء ورئيس البربر وغيرهم ، وكان أحمد بن علي أمير جبال مرموشة وبني وراين وعرب الحياينة وبرابرة غياثة والجبال فكان رديف علي بن شي ومباريه في نصح الدولة وجباية الاموال ، وكان ابن الاشقر امير الزراهنة وعلى يديه أعشار القبائل كلها من اهل الغرب وبني حسن وغيرهم رديفا للاولين ، وكان القائد مرجان صاحب بيوت الاموال وبيده دفتر الدخل والخرج عارفا بقدر ما يدفعه العمال كل سنة ،

فلما أتى عليهم القتل رحمهم الله خف على الرعية ما كانوا يحملونه من ثقيل وطأتهم ، واستراحوا ممن كان يحولون بينهم وبين الفساد ويزجرهم عن القبيح ، خصوصا البربر فانهم كانوا في اقماع المحابس فخرجوا منها بمهاليك على بن يشى ، واخذوا في اشتراء الخيل واقتناء السلاح ... ، وعادت هيف الى ادبانها ، وتبعهم على ذلك غيرهم من قبائل العرب فكأنما كانوا على ميعاد ، وامتدت ايدى النهب في الطرقات ، وكثرت الشكايات بباب السلطان فما وجدت الناس من يشكيهم هذا حال مكناسة وأعمالها ، فأما فاس فقد كفى الودايا أمرها ونابوا عن البربر في العيث باطرافها وعظم الخطب واشتد الامر

ثم دخلت سنة أربعين ومائة وألف ففي المحرم منها اغار الودايا على سوق الخميس من فاس فنهبوا وقتلوا وقبضوا على طائفة من أهل فاس فأودعوهم السجن بفاس الجديد ، فبعث أهل فاس جماعة من أشرافهم الى السلطان بمكناسة يشكون اليه ما نالهم من جور الودايا فلما وصلوا اليهما وثب عليهم محمد بن علي بن يشى قبل أن يجتمعوا بالسلطان فسجنهم أيضا فلما اتصل بأهل فاس ما جرى على اخوانهم بمكناسة أخذهم ما قدم وما حدث فاغلقوا عليهم أبواب مدينتهم وشمروا لحرب الودايا فكتب الودايا الى السلطان يعلمونه بأن أهل فاس قد شقوا العصا وخرجوا عن الطاعة فسرب السلطان اليهم العساكر بكل صارم وذابل ، وتفاقم الامر واختلط الحابل بالنابل ، وركب المدافع والمهاريس والمجانيق لحصار فاس ، واستمر القتال الى أن بعث السلطان أخاه المولى المستضيء في جماعة من أشراف مكناسة ومعهم أشراف فاس الذين سجنهم محمد بن علي بن يشى لتلافي الامر وعقد الصلح بين الودايا وأهل فاس ، فانعقد الصلح ونهض عسكر السلطان الى مكناسة ، فما ساروا يوما او يومين حتى انتقض ذلك الصلح وعدا الودايا على حصار فاس ورميها بالكور والنفط ، واستمر الحال على ذلك الى أن قدم من جانب السلطان القائد أبو عمران موسى الجرارى ساعيا في الصلح ، فاجتمع بأهل فاس وفاوضهم في ذلك فأذعنوا وبعثوا معه جماعة من الاعيان والعلماء والاشراف يفدون على السلطان ليتم لهم ذلك بعد أن أخذوا جماعة من أصحاب أبى

عمران توثقا باخوانهم ، ولما قدم أولئك الوفد مكناسة منعوا من الدخول على السلطان ورجعوا الى فاس مخفقين ، واستمر الامر على حاله الى أن كاتبهم عبيد الديوان يطلبون منهم موافقتهم على عزل السلطان المولى أحمد وتولية أخيه المولى عبد الملك صاحب السوس فأجابوهم الى ذلك وطاروا به كل مطير وأكرموا وفدهم وحالفوهم على الوفاء ورجع العبيد الى مكناسة شاكرين ، ففاوضوا من بها من قواد الجند وتذاكروا فيما وقع فيه الناس من الفساد وانقطاع السبل وتعذر الاسباب ، وتحققوا بما أتوه من سوء التدبير في تقديم المولى أحمد لكونه كان ضعيف المنة غير مطلع بأعباء الخلافة فأجمعوا على عزله واستبدال غيره به ، ولما تم أمرهم على ذلك بعثوا الى أخيه المولى عبد الملك جريدة من الخيل وكتبوا اليه كتابا يستحثونه للقدوم وأعلموه بما أجمع عليه رأيهم فأجاب وأقبل مسرعا نحو مكناسة ، ولما انتهى الى وادي بهت واتصل خبره بالعبيد دخلوا على السلطان المولى أحمد وقبضوا عليه وأخرجوه من دار الملك مخلوعا ، وسجنوه بداره التي كان سكن بها قبل البيعة خارج القصبة ، وكان ذلك في شعبان سنة أربعين ومائة وألف .

الخبر عن دولة أمير المومنين المولى أبي مروان عبد الملك ابن اسماعيل رحمه الله

لما خلع السلطان المولى أحمد رحمه الله وسجن خارج القصبة كما مر اجتمع من الغد الجيش كله وركبوا لملاقاة المولى أبي مروان عبد الملك بن اسمعيل فاجتمعوا به خارج مكناسة وأدوا واجب الطاعة وزفوا عليه ودخلوا به الحضرة في زي الملك وأهبة السلطان ، ثم حضر أعيان الدولة وأمراؤها وقضاتها وعلماؤها وأشرافها فبايعوه ، وكتب بيعته الى الآفاق ، ومن الغد قدم عليه أعيان فاس من العلماء والاشراف وغيرهم ببيعتهم فدخلوا عليه وبايعوه ،

ثم أقامت عليه الرماة المنتدبة من حواضر الغرب فرماوه فصبر لهم ولاقاهم وقاتلهم بما يعجب من الصبر الى أن خرج من دمائهم، ورتب أخاه المولى أحمد المخلوع فأمر به الى فاس كي يسجن بها ثم بعثه الى تافيلالت ووجهه الى سجلماسة.

قال في «الازهار الندية»: لما بعث السلطان المولى أبو مروان بأخيه المولى أحمد المخلوع الى تافيلالت كتب الى عامله بها أن يسجنه بها، فلما بلغ ذلك الى المولى أحمد فر الى زاوية الشيخ أبي عثمان سيدي سعيد أحنصال، وكان مقدم الزاوية يومئذ السيد يوسف بن الشيخ سيدي سعيد المذكور، وكان يتكلم في الحدثان، فقال للمولى أحمد: إن أمرك سيرجع الى الملك، فكان كما قال، ورجا الناس أن يكون السلطان المولى أبو مروان كأبيه، وأن يسير فيهم بسيرته فيمد عليهم، فخاب الظن وأخفق المسعى

وابن اللبون اذا ما لز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

وأمسك الله يده عن العطاء فلم يسمح لعسكر ولا لوفود بدرهم، فكان ذلك من أكبر الاسباب في اختلال أمره وتفسخ دولته، فطلب العسكر البخاري منه جائزة البيعة على العادة فبعث اليهم بأربعة آلاف مثقال، وكان راتبهم على عهد السلطان المولى اسمعيل رحمه الله خمسة آلاف مثقال، ولما بويع السلطان المولى أحمد زادهم في الراتب خمسين ألفا، فلما وصلت اليهم جائزة المولى أبي مروان سقط في أيديهم وعلموا أنهم لم يصنعوا شيئا في بيعته، وتناجوا بعزله واضمروا ذلك وتحينوا وقت الفرصة فيه، ونما اليه ذلك عنهم فأخذ حذره وصار يلاطف قبائل العرب ويستميلهم ويحرضهم على اجتياح كلمتهم كي يفتنوه يوما ما، ظنا منه أنهم يقاومون العبيد، ثم كتب الى البربر أيضا يحرضهم بالعبيد ويغري العبيد بالبربر، وقال لهم في جملة من ذلك: انه لا يستقيم لنا أمر الا بعد الايقاع بهؤلاء البربر، ويأمرهم بالاستعداد لغزوهم، وكتب الى أهل فاس يأمرهم أن يجعلوا رماتهم الى محاربة البربر وأخذ في التضريب بين العسكر والبربر، واطلع العبيد على خبثه فخلعوا عنه بيعة حضر الرماني، واتفقوا على عزله ورد أخيه المولى

السعيد الملك المستكاه بنيسه عنه ، وأكبروه على المولى أبي مروان وسموه الكي كان أنسى حالا وملاءة من أخيه المولى أحمد لتوجيه وحزمه ، وكان قد عزم على تطهير الحضرة ومسالك الدولة من أقذار العبيد وتحكمهم على أوليائها إلا أنه لم يحكم التدبير في ذلك فعاجلوه قبل أن يعاجلهم .

ولما تحقق المولى أبو مروان بما عزم عليه العبيد من خلعه بعث إلى الرئيس الشيخ البركة مولاي الطيب بن محمد الوزاني واعظا ومذكرا لأنهم وعظهم ووعدهم وحذرهم أن يفعلوا ، ونهاهم عن الخروج عن السلطان واتباع [illegible] السلطان ، ووعظهم في ذلك من سخط الله فما زادهم إلا غرورا ، ثم بعثوا سرية من الخيل إلى سجلماسة ليأتوا بالمولى أحمد ، وفي أثناء ذلك ركب العبيد من الديوان وأغاروا على مكناسة فلم [illegible] ثم اقتحموا المدينة فنهبوها واستباحوا حرماتها ، وقتلوا من ظفروا به من أهلها ، ثم حاصروا دار الملك ليقبضوا على السلطان المولى أبي مروان فلم يجدوه لأنه لما سمع بما نواه العبيد بمكناسة ركب في جماعة من أصحابه وفر إلى فاس ، فدخل ضريح المولى إدريس رضي الله عنه واستجار به ، وبعث إلى أهل فاس يستجير بهم فوعدوه الدفاع عنه والقيام بنصره .

ولما علم العبيد بفرار المولى أبي مروان إلى فاس وما وعدهم به أهلها سجنوا رؤساءهم الذين كانوا قد قدموا مكناسة بقصد عزل المولى كما تقدمت الإشارة إليه ، وثقفوهم حتى يقدم السلطان المولى أحمد من سجلماسة فيرى فيهم رأيه . وكان ذلك في ذي الحجة سنة أربعين ومائة وألف .

الخبر عن الدولة الثانية لامير المومنين المولى ابي العباس أحمد الذهبي رحمه الله

لما راسل العبيد المولى احمد بن اسمعيل بسجلماسة وأعلموه بما عزموا عليه من عزل أخيه ورد الملك اليه بادر بالقدوم الى مكناسة فدخلها في التاريخ المتقدم ، وحضر أعيان الدولة من القواد والقضاة والكتاب ، وبايعوه البيعة الثانية وكتبوا بذلك الى الآفاق ، ثم دخل دار الملك وفرق الاموال والكسى في العسكر والعلماء والاشراف وبالغ في ذلك فعيا مما نقمه العبيد على اخيه ، وكان فعل أخيه أقرب الى الصواب لو هذب الوسط ، وأحكم أمره ورتبه ترتيب ذو الحزم ، ولكن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

حصار أمير المومنين المولى احمد لفاس والسبب في ذلك

لما بويع المولى أحمد البيعة الثانية قدم عليه الوفود من القبائل والامصار فأكرم وفادتهم ، وتخلف عنه أهل فاس فلم يقدم عليه أحد منهم لانه لما قدم من سجلماسة وأعلم بمكان اخيه منهم وبمكان رماتهم المثقفين بمكناسة أمر بسجنهم والتضيق عليهم فأوجسوا منه شرا وحذروه ، ولانهم كانوا قد ارتكبوا العظيمة اولا في قتل أبي علي الروسي ونهب داره وماله ومال المخزن الذي كان تحت يده ، فكانوا يتوقعون سطوة السلطان المولى أحمد بهم اول ما بويع ، ثم لم يلتفت اليهم لشغله بنفسه ، فلما عادت الدولة اليه ارتابوا به وحادوا عن طاعته وتقدموا الى المولى عبد الملك وجددوا له البيعة وأعلنوا بنصره والقيام بأمره ، ثم ورد عليهم كتاب السلطان المولى أحمد يأمرهم أن يسلموا اليه أخاه ويدخلوا فيما دخل فيه الناس أو يأذنوا

بحربه ، فجهروا بالخلاف وأغلقوا الابواب ووطنوا انفسهم على الحصار ، ثم بعث اليهم السلطان القائد اليديني قائد الرماة المسجونين بمكناسة وأمره أن يعرض عليهم الدخول فى الطاعة ويسرح لهم اخوانهم المسجونين ، وحمله كتابا اليهم يتضمن ذلك وغيره ، فلما فرغ القائد المذكور من قراءة كتاب السلطان عليهم وثبوا عليه فقتلوه ثم جروه برجله وصلبوه على البوتة التى بحومة الصفارين ثم وثبوا على الحاج الخياط عديل فقتلوه على باب داره وخرج الشريف أبو محمد عبد الله بن ادريس الادريسى فى كتيبة من الخيل والرماة الى زواغة فأغار على سرح الودايا واستاق من البقر والغنم شيئا كثيرا ، فدخل به فاسا وبيع بأبخس ثمن وتوزعته الايدى ، فبيعت البقرة بست موزونات والشاة بموزونة على ما قيل ، وهاجت الحرب بين أهل فاس والودايا ، ثم نهض السلطان المولى أحمد فاتح محرم من سنة احدى وأربعين ومائة وألف فى عسكر العبيد وودايا مكناسة ، فزحف الى فاس ونزل عليها ثانى يومه ونصب عليها المدافع والمهاريس وآلات الحصار ، واشلى العسكر على بساتينها وبحائرها فانتسفوا ثمارها واجتاحوا غللها ، وأمر الطبجية بموالاة الكور والبنب والحجارة عليها ليلا ونهارا ففعلوا ، ودام ذلك الى أن عمها الخراب وتهدم الكثير من دورها وهلك عدد وافر من رجالها ، بعضهم فى القتال وبعضهم بالهدم والحجارة ، واستمر الحصار نحو خمسة أشهر فضاق بهم الحال وضعفوا عن القتال ، وقلت الاقوات وارتفعت الاسعار ، فاذعنوا للطاعة وصالحوا المولى احمد على اسلام اخيه المولى عبد الملك اليه وتمسكه منه على الامان ، فبعث السلطان المولى احمد الى أخيه المولى عبد الملك يخيره بين التغريب الى سجلماسة والمقام بالحرم الادريسى ، فاختار المقام بالحرم .

ثم ان السلطان تقدم الى أهل فاس فى أن لا يجتمع أحد منهم بأخيه ولا يجالسه ولا يكلمه ولا يبيع من أحد من أصحابه شيئا ولا يشترى منه ، ومن فعل شيئا من ذلك فانه يعاقب ، فلما رأى المولى عبد الملك ما عامله به أخوه من التضييق بعث وفدا الى العبيد يطلب منهم ان يؤمنوه ويخرج معهم

إلى حين تماثلوا ، فقبض عليه الباشا سالم الدكالي في خمسين من العسكر وجاءهم به إلى الأندلسي إذ لا يعرفه منكرون ، فخرجوا به حتى قدموا به على أخيه ، فلما مثل بين يديه أمر به أن يحمل إلى مكناسة فتوجهوا به ، فوصل إلى مكناسة وسجن بدار الباشا مساعد ، ثم دخل السلطان المولى أحمد من بعد دخلا إلى مكناسة ومعه جيوشه في مرض موته ، ولما أحس من نفسه بالموت أمر بخنق أخيه المولى عبد الملك فخنق ليلة الثلاثاء أول يوم من شعبان ، ثم توفي السلطان المولى أحمد يوم السبت خامس شعبان المذكور سنة إحدى وأربعين ومائة وألف فكان بين وفاتهما ثلاثة أيام رحمهما الله .

واعلم أن ما ذكرناه من هذه الأخبار منسوب إلى هذا صاحب البستان وفيه أبو عبد الله أكنسوس منزل المولى بالنص ، ووجدت بخط جدنا من جهة الأم وهو الفقيه الأستاذ أبو عبد الله محمد بن قاسم الأندلسي الحجري الجباري عرف بابن زروق ، وكان حيا في هذه المدة ما نصه :

بويع المولى أحمد بن إسماعيل المعروف بالذهبي يوم وفاة والده رحمه الله بعد أن ثار بالمغرب والقصر وعموره فساد كبير من الغلاسل وأحمد ابن المحزن ، وهلك في ذلك بشر كثير ، وبعد مكثه من الملك سنة واحدة وثمانية أشهر خلع ، وبويع أخوه المولى عبد الملك في الآخر من رجب سنة إحدى وأربعين ومائة وألف ، وهو بالسوس الأقصى بمدينة تارودانت ، ثم دخل على دار المملكة بالحضرة المكناسية ليلة السابع والعشرين من رمضان المعظم من السنة المذكورة ، ثم ثار عليه أخوه المولى أحمد المخلوع في عاشر المحرم فاتح سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف ، واقتحم عليه دار الملك من مكناسة عنوة ، ووقع فساد كبير بالمدينة المذكورة ، وهلك بشر كثير في الحرب ، ومنهم من قال ... وفر المولى عبد الملك ناجيا بنفسه إلى فاس ، ثم حاصره بها المولى أحمد نحوا من أربعة أشهر حتى خرج إليه على الأمن فأسره وسجنه بمكناسة ، ثم قتل المولى عبد الملك صبرا مخنوقا في أواخر رجب المذكور أيضا بعد ... والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر .

قالوا وكان المولى أحمد رحمه الله لقبه الناس بالأمين من الرشيد

العباسي في زيه ولهوه واكبابه على شهواته وتضييع الحزم والجد حتى فسدت الاحوال وتراكمت الاهوال ، وذكر معاصروه أنه لم يكن شهد حربا قط قبل خلافته وكان مع ذلك جوادا مثلافا فآلت به الامور الى ما ذكرنا ولله الامر من قبل ومن بعد .

الخبر عن دولة امير المومنين المولى عبد الله بن اسماعيل رحمه الله

كان المولى عبد الله بن اسمعيل ، وهو ولد الحرة خاثي بنت بكار المغفري أيام خلافة اخيه المولى احمد منحاشا الى اخيه المولى عبد الملك ومقيما معه بلاد السوس ، فلما خلع المولى احمد وبويع المولى عبد الملك وقدم مكناسة تقدم المولى عبد الله في ركابه ، واستمر مقيما بها الى ان ثار العبيد بالمولى عبد الملك وفر الى الحرم الادريسي ، فخرج المولى عبد الله من مكناسة الى سجلماسة ، واقام بداره بها الى ان توفي السلطان المولى أحمد في التاريخ المتقدم ، فاجتمع أعيان الدولة من العبيد والودايا وسائر القواد والرؤساء واتفقوا على بيعة المولى عبد الله بن اسمعيل ، وهو يومئذ بسجلماسة ، فنادوا باسمه واعلنوا بنصره في المحلة ومكناسة ، وبعثوا جريدة من الخيل للاتيان به وكتبوا مع ذلك الى أهل فاس يعزونهم عمن هلك من اخوانهم أيام الحصار ، ويحضونهم على الموافقة على بيعة المولى عبد الله بن اسمعيل .

ولما وصل الكتاب الى فاس قرىء على منبر جامع القرويين فأجابوا بالموافقة ان حضر ، ولما وصلت الخيل الى المولى عبد الله واعلموه بما اتفق عليه الناس في شأنه أقبل مسرعا حتى نزل بظاهر فاس بالموضع المسمى بالمهراس ، فخرج أعيان فاس من العلماء والاشراف وغيرهم لملاقاته فسلموا عليه واستبشروا بقدومه فسر بهم والان لهم القول ووعدهم بالجميل ، وأعلمهم بانه من الغد يدخل لحضرتهم لزيارة المولى ادريس رضي الله عنه ،

فرجعوا مسرورين مغتبطين . ومن الغد أخـذوا زينتهم ولبسوا أسلحتهم ونشروا ألويتهم وخرجوا لميعاده ، فركب السلطان فرسه وركب معه خاصته وأهل موكبه ، وفي جملتهم حمدون الروسي عدو أهـل فاس ، وتقـدم السلطان فدخل على باب الفتوح وتوسط المدينة ، فرأى بعض سماسرة الفتن من أولاد ابن يوسف ،حمدون الروسي . وكان قد قتـل أباهم حسبما مر ، فصمدوا اليه ، فلما رآهم تنحى عنهم قليلا فتبعوه ، فعلم أنهم عزموا على اغتياله ، فركض فرسه الى السلطان وهو على قنطرة الرصيف ، واخبره خبر أولاد ابن يوسف ، وخص وعم بالارجاف في حق أهـل فاس ، فعدل السلطان عن قصده ، ورجع على طريق جامع الحوت ثم على جزاء ابن عامر وخرج على باب الحديد الى فاس الجديد ولم يزر ، ولم يعلم الناس موجب الرجوع عن الزيارة الى ان شاع الخبر بذلك ، فمشى علماء فاس وأشرافها الى السلطان ورفعوا اليه بيعتهم ، واعتذر اليه بعض الفقهاء بان ما وقع في جانب حمدون انما هو من بعض السفهاء ، فاعرض السلطان عن ذلك وصم عن سماعه .

وكانت البيعة التي رفعها أهل فاس من انشاء الفقيه العالم الوجيه أبي العلاء ادريس بن المهدي الشاط المنافي ، نسبة الى عبد مناف بن قصي ، وهذا الفقيه هو الذي كان السلطان المولى اسمعيل رحمه الله بعثه قاضيا على تادلا مع ابنه المولى أحمد الذهبي حين ولاه عليها كما مر ، ونصها :

الحمد لله الذي جعل العدل صلاحا للملك والرعية والعباد ، كما جعل الجور هلاكا للحرث والماشية والبلاد ، وسدد العادل بعنايته وأعد للجائر ما هو معلوم له يوم المعاد ، وجعل المقسطين على منابر من نور يوم القيامة كما جعل القاسطين في العذاب والحسرات والانكاد ، فأسعد الملوك يوم القيامة من سلك مع الرعية سبيل السداد ، وأصلح ما أظهره الجائر في الارض من الفساد ، نحمده أن تفضل علينا بامام عادل ، ونشكره ان حكم فينا من لا يصغي في الحق لقول عاذل ، تولى علينا الخليفة من نسل الشفيع يوم التناد ، ونشهد ان لااله الا الله وحده لا شريك له لا يسأل عما يفعل يؤتي الملك

من يشاء وينزع الملك ممن يشاء في أي وقت شاء واراد ، ونشهد أن سيدنا ونبيا ومولانا محمدا عبده ورسوله الشفيع في امته يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولا يقبل من القاسطين فداء بطريف ولا تلاد ، صلى الله عليه وعلى آله الذين أظهروا الشريعة ومحوا الظلم محو المداد ، أما بعد حمد الله الذى آمر بطاعة اولى الامر ، ووعد من نصر دينه بالظفر والنصر ، فقال عليه السلام : «ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية» وفي صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم قال : «من أراد ان يفرق أمر هذه الامة وهو جميع فاضربوا عنقه بالسيف كائنا من كان» . وفي صحيح مسلم ايضا عنه صلى الله عليه وسلم قال : «من اتاكم وامركم جميع على رجل واحد وأراد أن يفرق جماعتكم فاقتلوه» . وفي صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كره من أميره شيئا فليصبر فان من خرج عن السلطان شبرا مات ميتة جاهلية» . وفيه أيضا عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع أميرى فقد أطاعني ومن عصى أميرى فقد عصاني» . وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه لابن عقبة لعلك لا تلقاني بعد اليوم فعليك بتقوى الله تعالى والسمع والطاعة للامير وان عبدا حبشيا » .

واتفق أئمة الدين على ان نصب الامام واجب على المسلمين وان كان من فروض الكفاية ، كما ان القيام بذلك من الواجبات كما دلت عليه نصوص الاحاديث والآيات : وقال الشاعر :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا

ولما كان من امر الله سبحانه ما اراده وقدره ، فقبض اليه خليفته وأميره ، دهش المسلمون وخافوا من توالي الشرور والفتن فتوجهوا الى الله سبحانه في ان يغمد عنهم السيوف ، وطلبوا من فضله المعهود ان يصرف عنهم ضروب المحن والحتوف ، فأجاب الكريم الدعوات ونفس الهموم والكربات ، ونشر رحمته ، وازاح نقمته ، فصارت القلوب ناعمة بعد بؤسها ، والوجوه

ضاحكة بعد عبوسها ، والشرور والفتن قد ادبرت ، وأعلام الامن والعافية قد اقبلت ، فوفق الله جيوش المسلمين للاعمال المرضية ، والهمهم لما فيه صلاح الدنيا والدين والراعي والرعية ، فاقتضى نظرهم السديد ، ورأيهم الموفق الرشيد بيعة من في افق السعادة قد طلع ، وظهر في سماء المعالي بدره وارتفع ، الامام الهمام العلوي الهاشمي العدل في الاحكام ، الموصوف بالكرم والشجاعة والشهامة ، والحزم والنجدة والزعامة ، المتواضع لله المتوكل في جميع اموره على الله ، أمير المؤمنين*مولانا عبد الله بن الشريف الجليل، الماجد الاصيل أمير المؤمنين مولانا اسمعيل ، بن مولانا الشريف ، فبايعوه اعزه الله على كتاب الله وسنة الرسول ، واقامة العدل الذي هو غاية المأمول، بيعة التزمها القلوب والالسنة ، وسعت اليها الاقدام والرؤوس خاضعة مذعنة، لا يخرجون له عن طاعة ، ولا ينحرفون عن منهج الجماعة ، أشهدوا على أنفسهم عالم الطويات ، المطلع على جميع الخفيات ، قائلين انا بايعناك وقلدناك لتسير فينا بالعدل والرفق ، والوفاء والصدق ، وتحكم بيننا بالحق ، كما قال تعالى لنبيه في محكم وحيه : «ياداود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق» وقال تعالى وقوله الحق: «ومن اوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما» وقال تعالى : «ولا تكن للخائنين خصيما» وهذه الرعية تطلب من ربها ان يعين مالكها ويساعده ، ويقذف الرعب في قلب من يريد أن يعانده ، وان يفتح عليه ما عسر على غيره ، ويمده بعزيز نصره ، انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير ، وبيده القوة والحول ، نعم المولى ونعم النصير، شهد بذلك على نفسه ومن معه العبد الفقير المذنب الحقير مملها وكاتبها ادريس بن المهدي المشاط بمحضر فلان وفلان ، وجمهور الفقهاء والاعيان في يوم الاثنين سابع رمضان سنة احدى واربعين ومائة والف .

ثم سافر السلطان في الحين الى مكناسة كما نذكره .

■

حدوث النفرة بين أمير المؤمنين المولى عبد الله وأهل فاس والسبب في ذلك

قد قدمنا ما كان من وسوسة حمدون الروسي للسلطان المولى عبد الله في جانب أهل فاس واعتذار بعض الفقهاء لدى السلطان عن ذلك ، ثم ان السلطان أمر أهل فاس ببعث ثلاثة منهم تكون معه على العادة ، فبعثوا الخمسمائة التي كانت تغزو مع الملوك قبله ، فذهبت معه الى مكناسة .

ولما استقر بالحضرة قدم عليه أهل الديوان وأعيان القبائل ووفود الحواضر والبوادي ، ففرق المال ولم يحرم أحدا سوى أهل فاس ، فانه لم يعطهم شيئا ، ثم حضر عيد الفطر فقدمت وفود الامصار ليشهدوا العيد مع السلطان على العادة ، وقدم وفد فاس بهذا الغرض وحضروا صلاة العيد مع السلطان بالمصلى ، ولما قدم الناس هداياهم بعد رجوع السلطان الى قصره قدم أهل فاس هديتهم على العادة فأعطى الناس وحرمهم ثانيا .

قلت : ولست أشك في ان شيطانا من شياطين الانس كان موكلا بهذا السلطان يغريه بأهل فاس ، ويوغر صدره عليهم ويفسد ما بينه وبينهم ، والا فكيف تقتضي السياسة أن يعمد ملك كبير الى أخص رعيته وأولها وصميمها فيفسد ضمائرها عليه ويزرع بغضه في قلوبها ، وهب انهم أساءوا الادب أليس التغافل مطلوبا في مثل هذا ما أمكن لا سيما من مثل السلطان ، وقد كان المنافقون يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيحلم عنهم ، وقال له بعض أصحابه : «ألا تقتلهم ؟» فقال له صلى الله عليه وسلم : «كيف يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه» ومن الحكم المأثورة قولهم : «التغابي يدفع شرا كثيرا» وقال الشاعر :

ليس الغبي بسيد في قومه * لكن سيد قومه المتغابي

ومن الغد أمر السلطان باحضار أهل فاس بالمشور ثم خرج عليهم

فقاموا اليه وأدوا واجب التحية ، فقال لهم : يا أهل فاس ، كاتبوا اخوانكم يسلموا الينا البساتين والقصبات فانها للمخزن ومن وظائفه فان أبوا فاني آتيهم واهدم عليهم تلك القرية، فأجابوا بالسمع والطاعة وعادوا الى رحالهم.

ولما كان المساء اتخذوا الليل جملا وأسروا ليلتهم كلها ولم يصبحوا الا بباب فاس ، فاجتمعوا باخوانهم وقرروا لهم مقالة السلطان وما نوى عليه في حقهم ، فاجتمع اعيانهم وتفاوضوا في شأنهم وشأن السلطان وأحضروا نسخة البيعة وتصفحوا شروطها وقالوا : انا لم نبايعه على هذا الذى يعاملنا به ثم أعلنوا بخلعه والامر لله وحده .

حصار المولى عبد الله مدينة فاس

لما أعلن أهل فاس بخلع السلطان المولى عبد الله عزموا على الحرب ووطنوا أنفسهم على الحصار ، ونادوا في المدينة من أراد الخروج الى بلده ومأمنه من غير أهل البلد فيتهيأ في ثلاث ، ثم أغلقوا ابواب المدينة واستعدوا للقتال .

ولما سمع السلطان بخبرهم تهيأ لغزوهم فأخذ أهبته وخرج من مكناسة في الخامس والعشرين من شوال سنة احدى واربعين ومائة والف ، فنزل على فاس ووزع الجنود عليها من كل ناحية ، وأطلق يد الجيش يعيث في أطرافها من تخريب الصنائع وقطع الاشجار وافساد المزارع ، وأمر بقطع الوادي فانحبس عنهم ماؤه ، وزحفت العساكر فكان القتال على كل باب سائر النهار فاذا كان المساء أمر الطبجية والاعلاج بارسال الكور والنفط وحجارة المنجنيق ، فكان الناس لا يستريحون بالنهار ولا ينامون بالليل ، واشتد الكرب وريع السرب ، واستمر الحال الى ان دخلت سنة اثنين واربعين ومائة والف فازداد الامر شدة ، وارتفعت الاسعار وانعدم

الاودان ، وكثر الهرج ، فبعثوا الى السلطان في الصلح ، فقال : على تسليم البساتين والقصاب، فأبوا وتحصنوا ، ثم بعد ذلك وقع الصلح على يد القائد أبي عبد الله محمد السلاوي ضريح المولى ادريس رضي الله عنه، واستصحب معه جماعة من أشراف فاس وعلمائها الى السلطان وهو بفاس الجديد ، فأكرم مقدمهم ووصلهم بألف دينار وكساهم ، وولى عليهم الحاج أبا الحسن علي السلاوي ، فدخل الوالي المذكور القصبة ثاني ربيع النبوي سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف ، وشحن البساتين والقصاب بالقائدة من أصحابه وافتتح عمله بقتل الشيخ دحمان المجاد من رؤساء فاس ، ولما اتصل خبره بالسلطان عزله ، وولى على فاس أحد اولاد حمدون الروسي المعروف بالبادسي ، ثم بعد مدة يسيرة عزله وولى عبد النبي بن عبد الله الروسي ، ثم لما عزم على النهوض الى مكناسة عزله أيضا وولى عليهم عدوهم حمدون الروسي ، وارتحل في العشرين من ربيع الاول من السنة .

وفي هذه السنة بعث السلطان ولده المولى محمدا مع امه السيدة خناثي الى الحجاز بقصد حج البيت ، والمولى محمد يومئذ دون بلوغ ، وفي نشر المثاني : «وفي هذه الحجة كانت سنة ثلاث بعدها قال : «ان ام السلطان المولى عبد الله ، وهي السيدة خناثي بنت بكار المغفرية ، التمست من ولدها المذكور السفر الى المشرق بقصد حج بيت الله الحرام فأجابها الى ذلك وهيأ لها جميع ما تحتاج اليه ، ووجه معها ولده الذي أيد الله به الدنيا والدين بعده سيدي محمد بن عبد الله فحج معها في هذه السنة يعني سنة ثلاث وأربعين ومائة والف .

■

نهوض السلطان المولى عبد الله الى قتال البربر وايقاعه بهم

لما استقر السلطان المولى عبد الله بمكناسة وتفقد حال البربر وجدها قد عادت الى حالها الاول من ركوب الخيل واقتناء السلاح والعبث في الطرقات ، فأمر العبيد بالاستعداد لغزوهم وتمهيد البلاد والتقصير من بأوهم فخرج الى تادلا وصمد الى آيت يمور الذين كانوا قد نزلوا بها وأضروا بأهلها حين نفتهم آيت ومالو عن رأس ملوية وغلبوهم عليه فنزلوا تادلا وأوقدوا نارا فكثر شاكيهم بباب السلطان ، فنهض اليهم على ما سبق ، ولما أحسوا بدنوه منهم فروا أمامه ودخلوا بلاد آيت يسرى فتبعهم الى أن أوقع بهم على وادي العبيد ، وقتل منهم آلافا وانتهبهم وعاد الى تادلا ظافرا . والله غالب على أمره .

ذكر ما صدر من السلطان المولى عبد الله من العسف المخل بالسياسة والتناقض المغير في وجه الرياسة

لما عاد السلطان المولى عبد الله الى تادلا قتل عشرين رجلا من أعيان رماة أهل فاس ، وكتب الى اخوانهم يعتذر عن قتل من قتل منهم ويأمرهم بتجديد بعث آخر وتوجيهه اليه فبعثوا طائفة من رماتهم وجيهوها بعد أن عرضها القائد حمدون الروسي برأس الماء ، ثم من الغد قتل القائد حمدون المذكور عبد الواحد تير ، ومحمد بن الاشهب من أهل فاس بباب السجن وأمر بجرهما في سكك المدينة ، ثم أصبح غاديا على أبواب فاس فشرع بالهدم فهدم باب المحروق وباب الفتوح وباب الجيسة وباب بني مسافر وباب الحديد ، وحمل مصاريعها كلها الى فاس الجديد ، وفي أول يوم من المحرم من سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف شرع حمدون الروسي في هدم سور

مدينة فاس وجر الانقاض التي بها الى فاس الجديد . وفي أثناء ذلك ورد كتاب من السلطان تضمن العفو عن أهل فاس والرضا عنهم ، فاراتاب حمدون الروسي وفر الى زرهون ، ثم قفل السلطان من تادلا فأقام بمكناسة مدة يسيرة وخرج غازيا بلاد السوس فقدمها ومهدها وعاد مؤيدا منصورا ، وفي هذه السنة أمر ببناء باب منصور العلج بمكناسة فجاء في غاية الضخامة والفراهة وأكمل سوق القصبة فجاء على ما ينبغي والله أعلم .

هدم السلطان المولى عبد الله مدينة الرياض من حضرة مكناسة وما اتصل بذلك

كانت مدينة الرياض زينة مكناسة وبهجتها اذ كان بها آثار أكابر دولة أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله ، وبها دور العمال والقواد والكتاب وسائر أعيان الحضرة الاسماعيلية ، بل كل من كان له وظيف في خدمتها السلطانية بنى داره بها وتنافس الاكابر والرؤساء في تشييد الدور وتجديد القصور ، وتناهوا في ذلك حتى كان لدار علي بن يشي الفيلالي أربع وعشرون حلقة يجمعها باب واحد ، وكانت دار القائد عبد الله الروسي وأولاده على ذلك المنوال بل أعظم ضخامة وأكثر حضارة حتى كأنها حومة مستقلة ، وكان لأمثالهما من القواد مثل ذلك أو قريب منه فحدثوا بها الآثار العظيمة والمعالم الفخيمة ، وبنى كل عامل مسجدا في حومته ، وكان بوسطها المسجد الاعظم الاسماعيلي ومدرسته وحمامه وفنادقه وأسواقه الموقوفة عليه ، وكانت تنفق بها البضائع التي لا تنفق في غيرها فأتى عليها من أيام النحوس يوم ركب السلطان المولى عبد الله عند فجره ، ووقف على تل عال يشرف منه عليها وأمر النصارى والشعانبة بهدمها ، فتسارعوا اليها وشرعوا في هدمها من كل ناحية والناس نيام ، فلم يرعهم الا بيوتهم تتساقط

بدء اختلال أمر السلطان المولى محمد بن عربية وما تسبب عن ذلك

لما فرق السلطان المولى محمد بن عربية على العبيد ما عنده من المال ثم يقنعهم ذلك ، واستزادوه فأطلق عفا الله عنه أيدى النهب فى أموال المسلمين ، وأخذ هو فى استخراج الحبوب والأقوات من دور أهل مكناسة ، وبحث عنها فى الأهراء والمطامير وكل من ذكر له أن عنده قمحا أو شعيرا قبض عليه ، وصادره الى أن يظهر ما عنده ، وكل من جلب من أهل البادية حبا أخذ منه كرها فكثر الهرج وعمت الفتنة وفر الناس من مدينتهم وعم النهب خارجها وانقطعت السبل ووقع الناس فى حيص بيص والامر لله وحده .

إغارة السلطان المولى عبد الله على الاصطبل من مكناسة وما نشأ عن ذلك

ثم ان السلطان المولى عبد الله الذى كان مقيما عند ابربر قدم ذات ليلة فى جماعة من أصحابه حتى دخل الاصطبل وقتل من وجد به من العبيد وحرق أخصاصهم ورجع عوده على بدئه ، ولما نذر به السلطان المولى محمد ابن عربية نادى فى الناس بالنفير وركب فى خيله ورجله وقصد السلطان المولى عبد الله وهو بالموضع المعروف بالحاجب ، ولما رأى العساكر مقابلة اليه والخيل تعادى خلفه فر بنفسه وترك ابنيته بما فيها فانتهبها العبيد وتبعوه الى أن بلغوا وادى ملوية فتوغل فى الجبال ولم يقفوا له على أثر ، ولما قفلوا راجعين اعترضهم ابربر وتسايلوا عليهم من المخارم والشعاب ، فصدقوهم القتال وهزموهم واستلبوا ما معهم من الاثقال ورجعوا بخفى حنين .

قال فى « البستان » : « ولما انتهوا الى أحواز صفرو بعث المولى محمد ابن عربية جماعة من جيشه الى من هنالك من المستضعفين من أهل المزارع

نقيبا عارفا بأهل اليسار ، فجمعوه لهم حتى كانوا بين يديه فأمر بسجنهم ، ثم وظف عليهم أولا خمسمائة ألف مثقال وزعها على التجار وأهل اليسار دون غيرهم من العشرة آلاف الى الالف ، ثم شرع في قبض المال الموزع ومن تراخى منهم في الدفع ضرب وسجن ، ومن تغيب من أهل اليسار حبس ولده أو أخوه أو زوجته الى أن استوفى العدد المذكور ثم عطف على أهل الصنائع والحرف وأرباب الاصول من الفلاحين وغيرهم فوزع عليهم قدرا وافرا من الالف الى المائة وما دون ذلك حتى لم يبق في المدينة أحد الا وقد غرم ، ففر الناس الى البوادي والقرى والجبال ، ومنهم من رحل الى السودان وتونس ومصر والشام حتى لم يبق بفاس الا النساء والذرية ومن لا عبرة به من الرجال حتى ان الذين كانوا بالسجن فلما خرجوا منه فروا بأنفسهم ولم يعرجوا على أهل ولا ولد ، وأقام محمد بن علي على هذا العمل بفاس ثلاثة عشر شهرا وكلما اجتمع له [illegible] بعث به الى السلطان بمكناسة ، وكانت هذه الخطوب كلها فيما بين سنة ثلاث وأربعين الى سنة خمس وأربعين ومائة وألف .

بعث السلطان المولى عبد الله جيش العبيد الى فزاز وايقاع أهله بهم

وفي سنة ست وأربعين ومائة وألف جهز السلطان المولى عبد الله جيشا من العبيد يشتمل على خمسة عشر ألفا من الخيل وعقد عليه للقائد قاسم بن ريسون ، وأضاف اليهم ثلاثة آلاف من جيش الودايا وعقد عليهم للقائد عبد الملك بن أبي شفرة ووجههم الى جبال أيت ومالو [illegible] عسكر الجيش وادي أم الربيع على قنطرة البروج ونزلوا ببسيط [illegible] البربر أن أظهروا الفرار أمامهم وتوغلوا في الجبال فتبعهم [illegible] الى أن توغلوا في تلك الجبال وتسنموا أوعارها ، والبربر [illegible]

وهم يتبعونهم الى ان حان وقت المساء فبعث البربر ليلا طائفة منهم لسد الثنايا والانقاب التي دخل منها جيش السلطان ، فأحكموا سدها بشجر الارز والحجارة ، ولما اصبحوا هجموا على الجيش من كل ناحية وصدقوهم القتال الى أن ردوهم على أعقابهم ، فلما انتهى العبيد الى الثنايا التي دخلوا منها وألفوها مسدودة دهشوا وخشعت نفوسهم وازدحموا عليها بعد أن ترجلوا وتركوا الخيل والسلاح والابنية فيها من الاثاث ، فنهب البربر جميع ذلك ، ثم جردوا باقي العسكر من الثياب ، ولم يقتلوا أحدا ورجع العبيد الى مكناسة راجلين متجردين من المخيط والمحيط فكان ذلك من أقوى الاسباب التي بغضت السلطان المولى عبد الله للعبيد ، لان ذلك كان باشارته يزعمهم مع اسرافه في قتل رؤسائهم كما سيأتي ، ومع ذلك فقد أنعم عليهم بالمال والكسى ووعدهم باخلاف جميع ما ضاع لهم ورجعوا الى مشرع الرملة ممتعضين لتلك الفعلة .

ثورة العبيد على السلطان المولى عبد الله وفراره الى وادي نول وما نشأ عن ذلك

لما كانت سنة سبع وأربعين ومئة وألف فسد ما بين السلطان المولى عبد الله رحمه الله وبين العبيد لاسرافه في قتلهم حتى كاد يأتي على عظمائهم ، وكان ذلك منه جزاءا لهم على قتلهم لاخيه المولى عبد الملك ، حسبما سبق اذ كان ما بينه وبينه صالحا كما مر ، فقتل منهم كل من سعى في قتله أو شارك فيه أو وافق عليه ، حتى بلغ عدد من قتل منهم أزيد من عشرة آلاف ، فأجمعوا على خلعه وقتله ودس اليه بعضهم بما عزموا عليه في شأنه ، ففر ليلا من مكناسة ولم يصبح الا بحلة آيت أدراسن فاجلسوا مقدمه وتباروا في اكرامه .

ولما عزم على النهوض عنهم ركبوا معه وصحبوه الى تادلا ثم ودعوه ،

وعادوا الى بلادهم ومضى هو الى مراكش ومنها ذهب الى السوس فنزل بوادي نول على أخواله المغافره ، وكان معه يومئذ ولداه المولى أحمد في سن البلوغ والمولى محمد السلطان بعده صغيرا وأقام عند المغافرة نحو ثلاث سنين ، واما والي فاس محمد بن علي بن يشى فانه لما اتصل به فرار السلطان من مكناسة فر هو ايضا عن فاس ليلا ولم يصبح الا بزرهون فاطمأن بها جنبه وكان ما نذكره .

الخبر عن دولة امير المؤمنين ابى الحسن علي بن اسمعيل المعروف بالاعرج رحمه الله

لما فر امير المومنين المولى عبد الله بن اسمعيل من مكناسة الى وادى نون اجتمع عبيد الديوان واتفقوا على بيعة المولى أبي الحسن علي بن اسمعيل المعروف بالاعرج ، وكان يومئذ بسجلماسة ، فكتبوا اليه بذلك وبعثوا بالكتاب مع جريدة من الخيل لتأتي به فأقبل مسرعا ، ولما وصل الى مدينة صفرو لقيه بها أعيان فاس وأشرافها وعلماؤها فبايعوه ففرح بهم وأكرمهم ، وعادوا في صحبته الى فاس الجديد فولى عليهم مسعودا الروسي وذلك في ربيع الثاني سنة سبع وأربعين ومائة وألف ، وأمره أن لا يقبض منهم الا الزكوات والاعشار الشرعية وما جرت به العادة من الهدايا الخفيفة .

وكان رحمه الله موصوفا بالحلم والعقل موفقا في الدماء فستره الله في آخر أمره وأجمل خلاصه ثم نهض الى مكناسة ولما قدمها بايعه الجيش بها البيعة العامة هكذا في « البستان » .

ورأيت بخط جدي للام الفقيه الاستاذ أبي عبد الله محمد بن قاسم ابن زروق الحسني الادريسي ما نصه : « وفي اليوم الاول من جمادى الاولى من سنة سبع واربعين ومائة والف ثار عبيد الرملة على أمير المؤمنين المولى عبد

الله بن اسمعيل ونقضوا بيعته وأعلنوا بنصر أخيه المولى على ولـــد عائشة مباركة ، وخرج لهم المولى عبد الله عن دار الملك بمكناسة بعد أن أخذ مما كان بها مما أعجبه من خيل وعدة ومال من غير قتال ولا محاربة ، ودخل أخوه المولى على دار الملك بمكناسة يوم الجمعة تاســـع جمادى الثانية مـــن السنة المذكورة وكتبه في الثاني عشر من الشهر المذكور محمد بن زروق كان الله له بمنه. » اهـ كلامه بحروفه .

ولما استقر السلطان المولى أبو الحسن بمكنـــاسة قدمت عليه الوفـــود ببيعاتهم وهداياهم من جميع البلدان فأجازهم ، وفرق المال على الجيش الى أن نفذ ما عنده واحتاج فقبض على الحرة خناثي بنت بكار أم السلطان المولى عبد الله فاستصفى ما عندها ثم امتحنها لتقر بما عسى أن تكون قد أخفتـــه فلم يحصل على طائل ، وكانت هذه الفعلة معدودة من هناته عفا الله عنه .

قال أبو عبد الله أكنسوس : « وخناثي هذه هي أم السلاطين أعزهم الله وكانت صالحة عابدة عالمة حصلت العلوم في كفالة والدها الشيخ بكار ، وقال : « رأيت خطها على هامش نسخة من الاصابة لابن حجر وعرف بــه بعضهم فقال : هذا خط السيدة خناثي أم السلطان المولى عبد الله بلا شك » اهـ

ثورة اهل فاس بعاملهم مسعود الروسي وانتقاضهم على السلطان ابى الحسن رحمه الله

ثم أن مسعودا الروسي عامل فاس عدا على الحاج أحمد بودي رئيس المحتسبين نفسه ، وأمر بجره الى باب المحروق اذ كان هو الـــذي سعى في دم أخيه أبي على الروسي عقب وفاة السلطان المولى اسمعيل كما مر ، فلما ارتكب مسعود هذه الفعلة اجتمع أهل فاس وأخذوا أسلحتهم وتقدموا الى قتال مسعود فمنعوه بصاحبه ، ففر مسعود ولم يدركوه فحلقوا عـــلى السجن فكسروه وقتلوا الحرس والاعوان الذين به وسرحوا المساجين الى

حال سبيلهم . ولما اتصل خبرهم بالسلطان المولى أبـي الحسن غض الطرف عنهم وبعث اليهم أخاه المولى المهتدي ومعه القائد غانـــم الحاجى ، وكتب اليهم يقول : انى قد عزلت عنكم مسعودا الروسى ووليت عليكـــم غانمـا الحاجي فلم يقبلوه ، ورجع من الغد الى مكناسة ثم رجعوا بصائرهم باشارة أهل المروءة منهم ، وبعثوا جماعة من العلماء والاشراف بهدية كبيرة مـــع المولى المهتدى الى السلطان تلافيا لما فرط منهم ، ولما دخلوا على السلطـان قبض هديتهم وعدد عليهم ذنوبهم ثم أمر بهم الى السجن . ولما انتهى الخبر الى أهل فاس قامت قيامتهم وأغلقوا أبواب المدينة وأعلنــوا بالخلاف ثـــم عطفوا على أصحاب مسعود الروسى وكل من كان له به اتصال فقتلوهم فى كل وجه ، وأنشبوا الحرب مع الودايا فى كل ناحية .

وفى رمضان من السنة المذكورة قدم من عند السلطان القائد أبـــو محمد عبد الله الحمرى من قواد العبيد فاجتمع بأهل فاس واعتذر اليهـــم عن السلطان وطلب منهم أن يبعثوا معه جماعة منهم الى السلطان لرتق هذا الفتق فاسعفوه ، وبعثوا طائفة من علمائهم وأشرافهـم وأصحبوهم هديـــة نفيسة الى السلطان ، وكتب عبد الله الحمرى الى السلطان يعتذر اليه عنهـم ويشفع لهم عنده ، فدخلوا على السلطان وعاتبهم ثم عفا عنهم ، وسرح لهـم اخوانهم الذين كانوا فى السجن وولى عليهم عبد الله الحمرى . ثم لما دخلت سنة ثمان وأربعين ومائة وألف عزله وولى عليهم عبد الله بن الاشقر وسكنت الهيعة واستقام الامر بعض الشىء .

غزو السلطان ابى الحسن اهل جبل فازاز فى جيش العبيد وهزيمتهم اياه

لما كانت أواخر سنة ثمان وأربعين ومائة وألف أخذ السلطان أبو الحسن في الاستعداد وتجهيز العساكر لآيت ومالو وكان ذلك منه إسعافا للعبيد ليأخذوا بثأرهم من البربر في الوقعة السابقة أيام السلطان المولى عبد الله ، فخرج اليهم في المحرم فاتح سنة تسع وأربعين ومائة وألف في جيش كثيف من العبيد فلما نذروا بإقباله اليهم ودنوه منهم أظهروا الفرار أمامهم مثل الفعلة الاولى ، فصاروا يتأخرون ويتبع آثارهم فينزل منازلهم الى أن عبروا وادي أم الربيع ودخلوا في الجبال ، فعبر السلطان خلفهم وتقدم العبيد الى الجبال والاوعار فاقتحموها عليهم فلما توسطوها كرت البربر عليهم وانقضوا عليهم من الثنايا انقضاض العقبان ، وأحاطوا بهم من كل وجه فولوا منهزمين وازدحموا على الثنايا وسلكوا سبيلهم في المرة الاولى من ترك الخيل والسلاح والابنية والآلات والنجاة بمجرد أعناقهم ، وسلبهم البربر حتى من الثياب ولم يتعرضوا للسلطان في موكبه وخاصته الى أن عبر وادي أم الربيع فرجعوا عنه ، ولما دخل مكناسة طالبه العبيد بالكسوة والسلاح والراتب فلم يكن عنده ما يعطيهم فشغبوا عليه ومرضوا في طاعته .

وقد أجمل صاحب نشر المثاني هذه الاخبار فقال : وفي هذه السنة يعني سنة تسع وأربعين ومائة وألف أهلك الله كل من خرج على السلطان مولاي عبد الله وقويت الفتن وارتفعت الاسعار وانحبست الامطار وقاسى الناس الشدائد من الغلاء وقل الادام وانقطع اللحم وهلكت رقاب كثيرة ولم يزل الامر في شدة وفر الناس كل فرار .

تحرك السلطان المولى عبد الله من السوس وفرار السلطان ابي الحسن الى الاحلاف وما كان من امره الى وفاته

لما كان شهر ذي الحجة من سنة تسع وأربعين ومائة وألف ورد الخبر بأن السلطان المولى عبد الله قد أقبل من وادي نول ووصل الى تادلا فاهتز العبيد له ، وتحدثت فرقة منهم برده الى الملك وخالفهم سالم الدكالي في جماعة من شيعته ، وقالوا : « لا نخلع طاعة مولانا علي » اذ كان سالم هذا وأصحابه هم الذين تسببوا في خلع المولى عبد الله وتولية أخيه المولى علي .

ثم ان شيعة المولى عبد الله قويت وكثروا أصحاب سالم وأعلنوا ببيعته ففر سالم فيمن معه من القواد الى زاوية زرهون مستجيرا بها .

ولما سمع بذلك السلطان المولى أبو الحسن فر من مكناسة الى فاس الجديد فصده الودايا عن الدخول اليها فعدل الى قنطرة وادي سبو فنزل هنالك يوما أو بعض يوم الى أن قضى بعض اربه ثم أصبح غاديا الى تازا فاحتبها ، ثم انتقل عنها الى عرب الاحلاف فأناخ بديارهم ففرحوا به وأكرموه وصاهروه ، وأقام بين أظهرهم عدة سنين معرضا عن الملك وأسبابه الى أن رجع الى مكناسة فاستوطنها باشارة أخيه السلطان المولى عبد الله حين وفد عليه بدار الدبيغ من فاس سنة تسع وستين ومائة وألف ، فأعطاه مالا وجنات ومزارع مما كان لجانب المخزن بمكناسة وبعثه الى داره بها ، فأقام يسيرا ثم وثب عليه العبيد فقبضوا عليه وبعثوا به الى أخيه السلطان المولى عبد الله وقالوا : « ان هذا قد أفسد علينا بلادنا » فأخذه وسرحه الى تافيلالت فاستقر بها الى ان مات رحمه الله كما سيأتي .

الخبر عن الدولة الثانية لامير المؤمنين المولى عبد الله بن اسمعيل رحمه الله

لما فر السلطان المولى أبو الحسن من مكناسة الى الاخلاق اجتمعت كلمة العبيد والوداايا على بيعة السلطان المولى عبد الله فبايعوه وهو بتادلا ، وتبعهم على ذلك أهل فاس وسائر القبائل ، ثم ان سالما الدكالي الذي بزرهون كتب الى أهل فاس يقول لهم : « ان الديوان قد اتفق على خلع المولى عبد الله وبيعة سيدي محمد بن اسمعيل المعروف بابن عريبة والمشورة لعلمائكم » فاجابوه بأن قالوا : « نحن تبع لكم » فلما سمع أهل الديوان بما فعله سالم الدكالي وما تقوله عليهم خرجوا من المحلة الى زرهون وقبضوا على سالم الدكالي ومن معه من القواد وبعثوا بهم الى السلطان المولى عبد الله بتادلا ، فاستفتى فيهم القاضي أبا عنان ، وكان يومئذ معه ، فأفتاه بقتلهم فقتلهم . ثم نميت مقالة سالم الدكالي الى المولى محمد بن عريبة وهو بتافيلالت فظن أن الامر صحيح ، فأقبل مسرعا الى أن وصل الى مدينة صفرو ، فوجد الناس قد بايعوا السلطان المولى عبد الله وراجعوا طاعته فسقط في يده ، ثم دخل فاسا مستخفيا وأقام بدار الشيخ أبي زيد عبد الرحمن الشامي ، وكان صديقه معتقدا له ، وكان أبو زيد يعده بالملك .

ولما أقبل السلطان المولى عبد الله من تادلا خرج للقائه أهل فاس وفيهم الاشراف والعلماء ، وكذلك أهل مكناسة ، فوافوه بقصبة أبي فكران ولما مثلوا بين يديه عاتبهم وعدد ما سلف منهم ثم أمر بأعيانهم فقتلوا ، وفعل مثل ذلك بأعيان مكناسة واستباحهم ، وعزل قاضيهم أبا القاسم العميري ورجع أشراف فاس وعلماؤها مذعورين مما نابهم بعد أن ولى السلطان عليهم محمدا بن علي بن يشي ، واستمر هو مقيما بقصبة أبي فكران ولم يتقدم الى فاس لعدم ثقته بهم .

الخبر عن دولة امير المومنين المولى محمد بن اسمعيل المعروف بابن عربية والسبب فيها

لما فعل المولى عبد الله بأعيان فاس ومكناسة ما فعل من القتل والاستباحة وأقام منكمشا بقصبة أبي فكران تبعث رؤوس الفتنة من الودايا بفاس الجديد وأخذوا في نهب الطرقات ثم أغاروا في يوم خميس على سرح فاس وأجلاب سوقها فاستاقوها حتى لم يتركوا لهم بقرة ولا شاة ولا بهيمة غيرهما .

ولما رأى أهل فاس ما نزل بهم اجتمعوا وتحالفوا على خلع السلطان المولى عبد الله وبيعة أخيه المولى محمد بن عربية فمشوا اليه وهو بدار الشيخ أبي زيد الشامي فأخرجوه وأخذوا عليه العهود ثم بايعوه في عاشر جمادى الاولى سنة خمسين ومائة وألف ، وهيأوا له كل ما يحتاج اليه من خيل وسلاح وآلة حرب وتبادروا في طاعته وخدمته ، وكتبت بيعته في خامس عشر الشهر المذكور ، وكتب عليها الفقهاء خطوطهم وامتنع بعضهم من ذلك ، وقالوا : « بيعة السلطان المولى عبد الله في أعناقنا فلا نخلعها » فعزلوا عن الخطط وامتحنوا ، ثم كتب أهل فاس الى عبيد الديوان يعرفونهم ما صنعوا ويطلبون منهم موافقتهم فاجابوهم الى ذلك وبايعوا السلطان المولى محمد بن عربية وتم أمره .

ولما رأى السلطان المولى عبد الله أن أمر أخيه قد تم فر الى جبال البربر وأقام هنالك ثم فتحت أبواب فاس وانتقل السلطان المولى محمد الى فاس الجديد ، ومن الغد نهض الى مكناسة فاحتل بها وبايعه العبيد البيعة العامة وقدمت عليه الوفود من سائر الاقطار بهداياهم فاجازهم وفرق ما كان عنده من المال على العبيد وكان ما نذكره .

بدء اختلال امر السلطان المولى محمد بن عريبة وما تسبب عن ذلك

لما فرق السلطان المولى محمد بن عربية على العبيد ما عنده من المال لم يقنعهم ذلك ، واستزادوه فأطلق عفا الله عنه أيدي النهب في أموال المسلمين ، وأخذ هو في استخراج الحبوب والأقوات من دور أهل مكناسة غصبا ، وبحث عنها في الاهراء والمطامير وكل من ذكر له أن عنده قمحا أو شعيرا قبض عليه ، وصادره الى أن يظهر ما عنده ، وكل من جلب من أهل البادية حبا أخذ منه كرها فكثر الهرج وعمت الفتنة وفر الناس من مدينتهم وعم النهب خارجها وانقطعت السبل ووقع الناس في حيص بيص والأمر لله وحده .

اغارة السلطان المولى عبد الله على الاصطبل من مكناسة وما نشأ عن ذلك

ثم ان السلطان المولى عبد الله الذي كان مقيما عند البربر قدم ذات ليلة في جماعة من أصحابه حتى دخل الاصطبل وقتل من وجد به من العبيد وحرق أخصاصهم ورجع عوده على بدئه ، ولما نذر به السلطان المولى محمد ابن عربية نادى في الناس بالنفير وركب في خيله ورجله وقصد السلطان المولى عبد الله وهو بالموضع المعروف بالحاجب ، ولما رأى العساكر مقبلة اليه والخيل تتعادى خلفه فر بنفسه وترك ابله بما فيها فانتهبها العبيد وتبعوه الى أن بلغوا وادي ملوية فتوغل في الجبال ولم يقفوا له على أثر ، ولما قفلوا راجعين اعترضهم البربر وتسايلوا عليهم من المخارم والشعاب ، فصدقوهم القتال وهزموهم واستلبوا ما معهم من الأثقال ورجعوا بخفي حنين .

قال في « البستان » : « ولما انتهوا الى أحواز صفرو بعث المولى محمد ابن عربية جماعة من جيشه الى من هنالك من المصطفين من أهل المزارع

وغيرها من القرى وأمر بقطع رؤوسهم وبعثها الى فاس موهما أنها رؤوس البربر ، اه والله أعلم .

بقية اخبار السلطان المولى محمد بن عربية وما تخللها من الهرج والشدة

لما قفل السلطان المولى محمد بن عربية من خرجته في اثر أخيه المولى عبد الله وكان حيث ذكرنا بعث أخاه المولى الوليد بن اسمعيل الى فاس ، وأمره بضرب البعث عليهم توصلا الى ما في أيديهم من المال بحيث أن من أعطى المال منهم يقيم بداره ، ومن أبى يخرج في البعث ، فتحير الناس وقدم المولى الوليد حضرة فاس وقبض على الحاج أبي جيدة براده ، وكان مترباه فقتله وأخذ أمواله وباع أصوله ، وقبض على الحاج عبد الخالق عديل فأخذ أمواله ، ثم تسلط على أهل الزوايا وكل من ذكر له أنه من أهل اليسار الى ان استوفى غرضه ، ثم سار الى مكناسة ففعل بأهلها مثل ذلك حتى لم يسلم منهم الا القليل ، هذا والناس في محنة عظيمة من المجاعة والخوف ونهب الدور بالليل بحيث كان أهل اليسار لا ينامون ، وصار جل الناس لصوصا ، والوصفان يمشون في الجنان خارج المدينة ويغيرون على القصارين بوادي فاس ، وبعد أن صار الناس يقصرون كانهم بمعصودة انتهوه منهم بها ، بل تناولوا القفل من الفنادق والسلطان معرض عن جميع ذلك لا يلتفت اليه ، ولقد هلك في هذه المدة من الجوع جم غفير أخبرني صاحب المارستان أنه كفن في رجب وشعبان ورمضان ثمانين ألفا وزيادة سوى الذين كفنهم أهلهم وعشيرتهم . وبالجملة فقد كانت أيام المولى محمد بن عربية هذا أيام نحس ووبال على المسلمين ، وكذا أيام أخيه المولى المستضيء الذي اليه يساق الحديث ، وكل ذلك والله تعالى أعلم من استيلاء العبيد على الدولة وتنوء افتياتهم عليها وتحكمهم في أعياصها طوع أهوائهم و...

أغراضهم ، اذ معلوم انه لا ينشأ عن كثرة الخلع والنوبة الا هـذا وشبهه ، نسأل الله تعالى اللطف والحفظ في الاهل والدين والمال في الحال والمآل .

وقد تكلم صاحب « نشر المثاني » على هذه السنة أعني سنة خمسين ومائة وألف فقال : « وفي هذه السنة هزم جيش الثائرين على مولاى عبد الله يعني العبيد هزيمة عظيمة بعد أن صدر منهم فساد كبير وذلك على يد البربر ، وارتفعت الأسعار جدا وجعل اللصوص يهجمون على النـاس في دورهم ليلا ويقتلونهم وهم يستغيثون فلا يغاثون ، وبلغ الخوف الى أبواب الدور المتطرفة بفاس نهارا فلا يستطيع أحد أن يخرج عن باب مصمـودة في العدوة ولا عن باب القصبة القديمة في الطالعة ولا عن حومة الخفارين بباب عجيسة ، وكثر الهدم في الدور لأخذ خشبها وكثر الخراب وخلت الحارات فتجد الدرب مشتملا على عشرين دارا وأكثر وكلها خالية . وفي هذه المدة قتل الفقيه العلامة أبو الفداء بعيش الشاوي بداره بالدوح وقتله كان سبب خلاء الدوح وافتضح أهل المروءة من الناس ومن يظن به الدين ، وكل من قدر على الفرار فر من فاس ، وقل من سلم منهم بعد خروجه عن البلد ، وخرج جماعة وافرة من أهل فاس الى تطاوين ومـا والاها لطلب الميرة اذ كان الله تعالى قد سخر العدو الكافر بحمـل الطعـام الى بلاد المسلمين ، فاشترى أهل فاس منه شيئا كثيرا لكن امتنع الحمالون من حمله لهم ومنعوهم ، فشكوهم لوالي تلك البلاد ورئيسها حينئذ أحمد بن علي الريفي فأظهر لهم النصح وأبطن الغش لانحرافه عن السلطان ومن يتعلق به ، فسلط الحمالين وهم عبيده بداوة فازدادوا امتناعا وتعاصيا حتى بقي أهل فاس معتقلين بسببهم نحو ستة أشهر ، فهلك بسبب ذلك خلائق لا يحصون جوعا ، وكلهم في عهدة أحمد بن علي الريفي ومن أتلفه مال ولا متاع في طلب القوت ، ولولا أن الله سخر العدو الكافر بجلب الميرة للمغرب لهلك أهله جميعا فيما أظن ، وذلك كله من شؤم الفتن والخروج على الملوك .

وأما الأصول والسلع فلم يكن شيء منها يبلغ عشر ثمنه المعتاد ، ولم يقيض الله لهذا المغرب راحة حتى منّ برجوع السلطان مولاي عبد الله ،

هذا كلام صاحب « نشر المثاني » وهو الفقيه المؤرخ سيدي محمد بن الطيب ابن عبد السلام القادري . وقد حكى هذه الاخبار عن معاينة لانه كان يومئذ حاضرها وشاهدها .

ثم دخلت سنة احدى وخمسين ومائة والف ، والناس في شدة ، وفي الرابع والعشرين من صفر منها ثار العبيد على السلطان المولى محمد بن عربية فقبضوا عليه ، وعلى قائده على فاس الشريف أبي محمد عبد المجيد الشامري ووضعوا في رجل كل واحد منهما قيدا ، وأخرجوا ابن عربية وعياله من دار الملك الى داره التي على وادي ويسلن بجنان حمرية ، ووكلوا به جماعة من العبيد يحرسونه ، وكتبوا الى أخيه المولى المستضيء ابن اسمعيل بتافيلالت يستدعونه للقدوم عليهم ليملكوه .

الخبر عن دولة امير المومنين المولى المستضيء بن اسمعيل رحمه الله

لما قبض العبيد على السلطان المولى محمد بن عربية أعلنوا ببيعة أخيه المولى المستضيء بن اسمعيل ، وكتبوا بذلك الى الافاق ، فساعدهم الناس عليها وبعثوا جريدة من الخيل على عادتهم لتأتي به ، فاقبل مسرعا ، ولما انتهى الى مدينة صفرو لقيه أهل فاس بها في أشرافهم وعلمائهم وأدوا بيعتهم ورجعوا معه الى فاس الجديد . فاراح به ، وولى عليهم القائد أبا العباس أحمد الكعيدي فاستتاب الكعيدي عليهم من قبله شعشوع اليازغي والحال ما حال والظلم ما زال ، ثم ارتحل السلطان المولى المستضيء الى مكناسة فاحل بها وبايعه العبيد البيعة العامة ، وقدمت عليه وفود القبائل والامصار بهداياهم فقابلهم بما يجب واستتب أمره .

ذكر ما صدر من السلطان المولى المستضيء من العسف والاضطراب

لما استقر السلطان المولى المستضيء بمكناسة كان أول ما بدأ به أن بعث بأخيه المولى محمد بن عربية مقيدا الى فاس ، ومنها الى سجلماسة فسجن بها ، وبعث بقائده السيد عبد المجيد الشامري والشيخ أبي زيد عبد الرحمن الشامي يسجنان بفاس الجديد ، ونهبت دار الشامري وصودر الى أن مات تحت العذاب ومثل به ، ثم بعث السلطان كتابه الى أهل فاس ولكن رسم أن يقرأ بفاس الجديد ويحضر أعيان أهل فاس لاستماعه فارتابوا وتغيبوا ولم يحضر منهم الا نحو العشرين فقبض عليهم وسجنوا هنالك ، ثم وظف عليهم مال ثقيل لم يقوموا به .

وافتقرت الدولة في أيام هذا السلطان واحتاج الى المال تقطع عنه لسان العبيد ، فأخذ في البحث عما في المخازن الاسماعيلية التي لم يلتفت اليها الملوك قبله ، فوقع على خزين من الحديد فاستخرجه وباعه ، ووقع على الخزين الكبير ، وفيه آلاف من قناطير الكبريت ، فباعها أيضا ، ووجد شيئا كثيرا من ملح البارود والشب والرخام وغير ذلك مما كان يجلب الى الحضرة من غنائم أجناس الفرنج فباع ذلك كله ، ثم اقتلع شراجب القبة الشطرنجية ، وكانت من نحاس مذهب ، واقتلع الدرابيز التي عن يمينها وشمالها من الحديد المتخذ من باب الرخام الى قصر المولى يوسف ودفعها لاهل الذمة ، وألزمهم أداء ثمنها فأجحف بهم ، ثم أنزل المدافع النحاسية التي كانت بأبراج الحضرة فكسرها وضربها فلوسا فما أغنى ذلك شيئا ، وقتل في هذه المدة نيفا وثمانين رجلا من عرب بني حسن ، وسلط العذاب على مساجين أهل فاس ليغرموا المال فغرموا ما قدروا عليه ، ثم أمر بالقبض على تجار أهل فاس ليشتروا أصول مساجينهم فعذبوا الى أن أدوا بعض المال ، وعجزوا ، وأفتى العلماء أن هذا البيع الواقع في هذه الاصول صحيح تقديما لخلاص الانفس على الاموال .

ثم قبض هذا السلطان على شريف من الاشراف العراقيين من أهــل حومة كرنيز اتهمه بان الحرة حنانى بنت بكار استودعته مالا فضرب وامتحن ثم ولى على فاس المولى أبا حفص عمر المدنى وكان رفيقه وجليسه ، فاستناب المولى ابو حفص على فاس رجلا يقال له ابـن زيان الاعور ، وتقدم اليــه فى مصادرة أشراف فاس واستصفاء أموالهم ، فامتثل ابن زيان امره وما قصر، وكان الحامل لابى حفص على هذا ان داره بفاس كانت قد نهبت أيــام المولى محمد بن عربية ولم ينكر ذلك احد من أهل فاس ، فحقدها أبـو حفــص عليهم الى ان اداله الايام منهم فى هذه المرة ، ففعل ابن زيان مــا فعـــل ، فأمر السلطان المولى المستضيء بالقبض على ابن زيان وأن يطاف به على حمار والسياط فى ظهره وهو يقول : «هذا جزاء من يؤذى الاشراف» فطيــف به ثم ازيل رأسه وعلق على باب المحروق ، هذا والاشراف لا زالــوا فـــى العذاب ، ثم أمر بمساجين أهل فاس فحملوا اليـــه فى السلاسل والاغلال ثــم قتلوا بباب القصبة عن آخرهم ، وأمر باخراج ولد مامى مــن الحــرم الادريسى فلما وصل اليه قتله ، وأسرف المولى المستضيء فى القتل والعسف وأراد أن يتشبه بأخيه المولى عبد الله الذى جرد السيــف وبسط الكــف فعطى سخاؤه عيبه ، وهيهات، فقد كان المولى المستضيء مسيكا مهزوم الراية، على ما قيل ، تغمدنا الله واياه والمسلمين بالرحمة والعفــو والغفران ، ثــم قتل القائد غانما الحاجى ، ووالى مكناسة القائد سعدون ، وستة مــن أولاد الزياتى أصحاب السجن .

ثم ان السلطان المولى عبد الله اغرى البربر الذين كــان مقيما فيــهم بشن الغارات على النواحى والعبث فى طرقاتهم ففعلــوا ، وانقطعت السبــل وتعذر المعاش ، وكان المولى زين العابدين بن اسمعيل محبوسا عند أخيــه السلطان المولى المستضيء فأمر باخراجه واحضاره بين يديــه فاحضر وضرب ضرب التلف ، وبعث به مقيدا الى تافلالت ليسجن مع بعض اشرافها ، فبعث العبيد جماعة منهم فانتزعوه من يد حامليه وبعثوا به الى القائد أبـى العباس أحمد الكعيدى بثنى يازغة ، وتقدموا اليه فى الاحتفاظ به والاعتناء بشأنه .

ايقاع الباشا ابي العباس احمد بن علي الريفي بأهل تطاوين

قد قدمنا ما كان من اغارة الباشا أبي العباس أحمد بن علي الريفي صاحب طنجة على أهل تطاوين ، وهزيمة أبي حفص الوفاش نـــه وفتكـه بأصحابه فاستحكمت العداوة بين الريفي والوفاش من يومئذ ، وبقي الريفـي يتربص به الدوائر ويترصد له الغوائل الى أن بويع السلطان المولى المستضيء في هذه المدة ، فلم يقدم عليه أحد من أهل تطاوين ولا دخلوا فـي بيعتـه فوجد أبو العباس الريفي السبيل بذلك اليهم وأغرى بهـم السلطان المذكور ودس اليه أنهم شقوا العصا وخالفوا الامر ، مع ما كان قد تقـدم عن الفقيه أبي حفص في تلك القصيدة من التصريح بخلع الملك ، فجمع ذلك في المولى المستضيء ، وكتب اليه يأمره بالايقاع بأهل تطاوين ، فاغتنمها أبـو العباس الريفي واقتحم تطاوين في جموعه على حين غفلة من اهلها وانتهبها ، وقتـل من أعيانها نحو الثمانمائة ووظف على من بقي منهم مالا ثقيلا وهدم أسوارها ونظمها في سلك ما كان مستوليا عليه وبنى بها دار الامارة الموجودة الآن .

شغب العبيد على السلطان المولى المستضيء وفراره الى مراكش

لما كان منتصف ذي القعدة من سنة اثنتين وخمسين ومائة والف شغب العبيد بمكناسة على السلطان المولى المستضيء وتآمروا في عزلـه ومراجعة طاعـتـه أخيه المولى عبد الله ، ولما أحس المولى المستضيء بما أجمعوا عليه خرج مـن مكناسة في شيعته وانصاره قاصدا ضريح الشيخ أبي محمد عبد السلام بـن مشيش رضي الله عنه ، فتبعه المولى عبد الله في جمع مـن العبيد فأدركـوه ببعض الطريق فكر عليهم وقاتلهم حتى رجعوا عنه ، ومضى لوجهـه الى أن

وصل الى صحة فأقام بها نحو الشهرين عند أحمد بن علي الريفي ، ومنها توجه الى مراكش لأنهم كانوا قد بايعوه ، وكان أخوه المولى الناصر نائبا عنه بها ، ولما استقر بمراكش كاتب قبائل الحوز يستصرخهم على أخيه المولى عبد الله ويستنفرهم للخروج معه اليه ، فتقاعدوا عنه لأن عبدة والرحامنة وأهل السوس كانوا شيعة للمولى عبد الله ، ولم يبق في حزب المولى المستضيء الا أهل دكالة أخواله وبنو حسن عرب الغرب ، ولما رأى المولى المستضيء تقاعد قبائل الحوز عنه أقام بمراكش يزجي الأيام الى سنة خمس وخمسين ومائة وألف ، والباشا أبو العباس الريفي صاحب طنجة يفتل للعبيد في الذروة والغارب الى ان بايعوه ثانية بعد أخيه المولى زين العابدين، وبعد خلع السلطان المولى عبد الله حسبما نذكره بعد ان شاء الله .

مراجعة العبيد طاعة السلطان المولى عبد الله ودخولهم في دعوته

قد قدمنا ان السلطان المولى عبد الله كان مقيما في هذه المدة عند البربر وانه تبع المولى المستضيء عند خروجه من مكناسة ثم رجع عنه ولما بلغه خبر مسيره الى مراكش سار في اعتراضه الى ان بلغ قصبة وادي آلزم فلم يقف له على خبر فأقام يتجسس أخباره الى ان اتفق العبيد على بيعته وهو بآلزم ، فبايعوه أوائل سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف ، وكتبوا بيعتهم وبعثوا بها اليه مع بعض خاصتهم ، وكتبوا مع ذلك الى أهل فاس والودايا في الموافقة ، فوافقوهم وبايعوا السلطان المولى عبد الله وخطبوا به على منابرهم وزينت فاس،ولما انتهى الحال الى هذا الحد فر الوزير ابو الحسن علي العميري من مكناسة اذ كان وزير المولى المستضيء ، واحترم اخوه القاضي أبو القاسم العميري بضريح بعض صلحاء مكناسة ، وبعث أهل فاس جماعة من أشرافهم وعلمائهم ببيعتهم الى السلطان المولى عبد الله ومعهم جماعة من التجار وحجاج الركب الحجازي

بهداياهم ، هذا كله ، والسلطان لا زال مقيما بقصبة آلزم ، وتولى العبيد بمكناسة النقض والابرام لتأخر مجيء السلطان ، وظهر منهم الادلال والاستبداد على الدولة ، وبعثوا من قبلهم القائد أبا محمد عبد الله الحمري واليا على فاس وقالوا : عن أمر الديوان ، وكثر القطاع بالطرقات واللصوص بالمدينة وعادت حيف الى أديانها .

مجيء السلطان المولى عبد الله الى مكناسة وما ارتكبه من اهلها

وفي خامس عشر رجب سنة ثلاث وخمسين ومائة والف تحرك السلطان المولى عبد الله من آلزم وقدم مكناسة فقبض على قاضيها الفقيه ابي القاسم العميري ، والسيد ابي العباس احمد الشدادي ، والعباس بن رحال ، والفقيه المليتي وأزال عمائمهم وفضحهم وقال لهم : «كيف تزوجون حرمي من أخي وانا حي» ونكل بهم النكال الشديد ، ثم أمر بسحبهم الى السجن ، وأعطى دار القاضي العميري أحد العبيد ، وقال لهم : من أراد منكم دارا بمكناسة فليأخذها ، فامتدت أيدي العبيد الى الناس حتى صاروا يقتسمون بالابواب ويقول العبد لصاحب الدار : دار سيدي قد اعطاني دارك أو أعطني ايتاه ، فيفتدي منه بالمال ، ولحقهم من العبد فوق ما يوصف ، ومن شكى منهم عوقب وسجن ، والسلطان مقيم بباب الريح لم يدخل القبة التي كان بها المولى المستضيء .

وولى في هذه المدة على فاس شيخ الركب الحاج عبد الخالق عديل ، وولى على قضائها الفقيه أبا يعقوب يوسف بن ابى عنان ، وتقدم اليه في أن يعزل القضاة والخطباء الذين خطبوا بالمولى المستضيء في سائر البلدان .

واما الودايا فانه لم يقدم على المولى عبد الله منهم أحد ولا بايعوه وكذا الباشا أحمد بن على الريفي واهل الريف والفحص وقبائل الجبل فاغتنم المولى عبد الله لذلك ، ثم شفعت الحرة خناثي أم السلطان في قومها الودايا وبعث اليه جماعة منهم فقبلهم وعفا عنهم .

ايقاع ابي العباس احمد بن علي الريفي بقبائل الغرب وما تخلل ذلك

وعلى اثر ما تقدم بلغ السلطان المولى عبد الله ان القائد أبا العباس احمد بن علي الريفي قد أغار على اعمال القصر الكبير ، وانتهب أموالا كثيرة لاهل الغرب وشيعتهم ممن تبين على رأيه في الخروج عن طاعة السلطان ، فبعث المولى عبد الله جيشا كثيفا من عبيد مشرع الرملة ينزلون بالقصر الكبير لحراسته وحراسة أعماله ، فلما سمع بذلك الريفي فرق العطاء على جيشه وتهيأ للنهوض الى العبيد ، فوردت عليه شرذمة من الودايا واخرى من عبيد مكناسة واخبروه بان ذلك الجيش قد رجع ، لان ذلك الوقت لم تجتمع فيه كلمة لاحد لا من الرعية ولا من الجيش .

وكان السلطان المولى عبد الله قد وجه عامله القائد أبا العباس احمد الكعيدي عاملا على عرب الحياينة واهل جبل الزبيب لجباية الزكوات والاعشار ، فلما توسط بلاد الحياينة عدوا عليه فقتلوه ، ولما اتصل خبره بالسلطان المولى عبد الله اغتم لذلك غما شديدا لانه كان عماد دولته فانحل نظامها بموته ، وفسدت الطرقات وكثر النهب في كل موضع .

ثم ان السلطان أمر المسخرين الذين معه بنهب زروع أهل مكناسة فوقع من ذلك شر عظيم ، وذلك أوائل سنة أربع وخمسين ومائة والف ، ثم وظف عليهم وظائف كثيرة من دفع المؤنة له ولأصحابه واعطاء الصاكة للبناء بباب الريح وغير ذلك فتشفعوا اليه مرارا فلم يقبل . والله تعالى أعلم .

شغب العبيد على السلطان المولى عبد الله وفراره ثانية الى البربر

لما كان شهر ربيع الاول من سنة أربع وخمسين ومائة والف شغب العبيد على السلطان المولى عبد الله وهموا بخلعه والايقاع به ، فحذرته بذلك امه الحرة خناثى بنت بكار ، ففرت من مكناسة الى فاس الجديد ، ومن الغد تبعها ابنها السلطان المولى عبد الله ونزل برأس الماء ، فخرج اليه الودايـة وأهل فاس واجلوا مقدمه واهتزوا له ، فاستعطفهم السلطان وقال لهـم : «انتم جيشي وعدتي ويميني وشمالي واريد منكم ان تكونوا معي على كلمة واحدة» وعاهدهم وعاهدوه ورجعوا ، وفي اثناء ذلك بلغه أن احمد بن علي الريفي قد كاتب عبيد مشرع الرملة وكاتبوه واتفق معهم على خلع السلطان المولى عبد الله وبيعة اخيه المولى زين العابدين ، وكان يومئذ عنده بطنجـة وانهم وافقوه ، فوجم لها السلطان المولى عبد الله ، ثـم استعجل أمر المولى زين العابدين ففر المولى عبد الله الى بلاد البربر كما سيأتي ان شاء الله .

الخبر عن دولة امير المومنين المولى زين العابدين بن اسمعيل رحمه الله

كان ابتداء أمر السلطان المولى زين العابدين انه قدم مكناسة في أيام أخيه المولى المستضيء ، فلما سمع به أمر بسجنه قبل أن يجتمع بـه فسجن مدة ثم أمر يوما باخراجه وضربه فضرب ، وهو في قيـده ، ضربا وجيعا أشرف منه على الموت كما مر ، ومع ذلك فلم يتعلق بكامنـة ، ثـم رده الى السجن ، ثم أمر بعثه مقيدا الى سجلماسة كي يسجن بها مع بعض الاشراف المسجونين هنالك، فلما سمع بذلك قـواد رؤوسهم من العبيد بعثوا من رده من سفره الى فاس ومن هنالك بعثوا به الى القائد أبي العباس أحمد الكعيدي بني يارغة وأمروه أن يحتفظ به مكرما مبجلا .

ثم لما فر المولى المستضيء عن مكناسة وراجع العبيد طاعة السلطان المولى عبد الله دخل المولى زين العابدين مدينة فاس فاطمأن بها ، وبشر بولاية المولى عبد الله وخلع المولى المستضيء ، ثم ذهب الى مكناسة واقام بها مدة ، ثم سار الى طنجة فقدم على صاحبها الباشا أحمد بن علي الريفي فاكرم وفادته وأحسن مثواه ، واستمر مقيما عنده الى ان كاتب عبيد الديوان في شأنه ووافقوه في بيعته ، فبايعه الباشا احمد وبايعه أهل طنجة وتطاوين والقصر والجبال وخطبوا به على منابرهم ، ثم هيأ له الباشا احمد كتيبة من الخيل من عبيد الديوان وغيرهم ، وبعثهم معه الى مكناسة فدخلها في ربيع سنة اربع وخمسين ومائة والف وبويع بها البيعة العامة وقدمت عليه وفود القبائل والامصار فقابلهم بما يجب ، وتم أمره .

وفر السلطان المولى عبد الله من رأس الماء ودخل بلاد البربر ، ولم يقدم على المولى زين العابدين أحد من الودايا ولا من أهل فاس ، وكان فيه أناة وحلم لم يظهر منه عسف ولا امتدت يده الى مال احد الا أنه قليلة ذات يده نقص العبيد من راتبهم فكان ذلك سبب انحرافهم عنه كما سيأتي .

بقية اخبار المولى زين العابدين وانقراض امره

لما استقر السلطان المولى زين العابدين بحضرة مكناسة وتم أمره أقام بها نحو الشهرين ، ثم تهيأ لغزو الودايا واهل فاس الذين تخلفوا عن بيعته ، فنهض اليهم في جيش العبيد منتصف جمادى الاولى سنة أربع وخمسين ومائة والف . ولما بات جيشهم بسيدي عميرة بقصد حصار فاس اختلفت كلمة العبيد ، ومن الغد قوضوا ابنيتهم وارتحلوا الى مكناسة وكفى الله الودايا واهل فاس شرهم . الا انهم حرقوا بيادر الزرع التي كانت للودايا بالخميس ، ولما وصلوا الى مكناسة نهبوا ثمار جناتها وأفسدوا ما قدروا عليه منها ، وانصرف جمهورهم الى مشرع الرملة ، والذين دخلوا مكناسة

مع السلطان طالبوه في الراتب وشددوا في اقتضائه ، فلم يكن عنده ما يرضيهم به فشغبوا عليه ومرضوا في طاعته .

هذا ، والسلطان المولى عبد الله مقيم بجبال البربر مطل على الحضرة ومتحفز للوثبة ، فلما علم بما المولى زين العابدين فيه من الاضطراب نزل من الجبل وتقدم حتى دخل فاسا الجديد وذلك في سادس عشر جمادى الآخرة من السنة ، فلقيه الودايا وأهل فاس واهتزوا لقدمه وطاروا به سرورا ، ثم خرج من يومه الى دار الدبيبغ فاحتل بها .

ولما اتصل خبره بأخيه المولى زين العابدين ضاق ذرعه وخشيت نفسه ، واصبح غاديا من مكناسة الى حيث يأمن على نفسه معرضا عن الملك وأسبابه ، فكان ذلك آخر العهد به الى ان توفي رحمه الله .

الخبر عن الدولة الثانية لأمير المومنين المولى عبد الله رحمه الله

لما فر السلطان المولى زين العابدين عن مكناسة اجتمع العبيد واتفقوا على ان يراجعوا طاعة السلطان المولى عبد الله ، فبعثوا طائفة من قوادهم ووجهوها اليه فقدموا عليه منتصف رمضان من السنة المذكورة ، وهو بدار الدبيبغ ، فحيوه ، وأخبروه بان اخوانهم قد خلعوا المولى زين العابدين وبايعوه ، فسر المولى عبد الله بقدومهم وخرج الودايا الى العبيد فاختلطوا بهم وسروا بمقدمهم ، وأجروا الخيل في ميدان المسابقة واللعب بالبارود ، وزينت مدينة فاس ، وجددت البيعة العامة من الودايا وأهل فاس وقبائل العرب والبربر . واستمر الحال على ذلك الى آخر ذي القعدة من السنة فكان ما نذكره .

مجيء المولى المستضيء من مراكش ومحاربته لأخيه المولى عبد الله وما يتبع ذلك

لما اجتمعت كلمة العبيد والودايا وسائر أهل بلاد الغرب على طاعة السلطان المولى عبد الله أقام رحمه الله بدار الدبيبغ ، واستمر الحال على ذلك الى آخر ذي القعدة من سنة أربع وخمسين ومائة والألف ، فارتاب العبيد بمقامه هنالك ورفضه المقام بين أظهرهم بمكناسة التي هي دار الملك يومئذ ، فقلبوا له ظهر المجن ، على عادتهم ، واستدعوا المولى المستضيء من مراكش ليبايعوه .

واتصل خبرهم بالمولى عبد الله وأنهم قد بعثوا الخيل الى المولى المستضيء لتأتي به ، فأخذ السلطان من ذلك المقعد المقيم ، وشمر عن ساعد الجد وأخذ في تأليف قبائل العرب والبربر ، ووصل يد بعضهم ببعض ، ثم ألف بينهم وبين الودايا وأهل فاس وآخى بين الجميع فأعطوه صفقة أيمانهم بأنهم يموتون دونه فتم له منهم ما أراده ، وفي أثناء ذلك قدم الحاج أحمد السوسي من مراكش ودخل فاسا فتحدث عنه بأنه قد دس الى أهل فاس في مراجعة طاعة المولى المستضيء والتمسك بدعوته ، ونمي ذلك الى السلطان المولى عبد الله فأمر بقتله فقتل .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة وألف ففي المحرم منها زحف المولى المستضيء من مراكش الى بلاد الغرب ودخل مكناسة في جيش العبيد وبني حسن وغيرهم ، وقدم في ركابه الوزير أبو الحسن العميري ، وأخوه القاضي أبو القاسم ، وفي آخر المحرم المذكور ورد كتاب من عند القائد أبي العباس أحمد الريفي الى أهل فاس يدعوهم الى بيعة مخدومه المولى المستضيء والدخول في طاعته ، فصموا عن ذلك ونبذوه .

وفي ربيع الاول من السنة المذكورة زحف المولى المستضيء في جيش

العبيد الى فاس وعسكر بظهر الزاوية خارجها ففر السلطان المولى عبد الله من دار الدبيغ الى آيت دراسن ، ومن الغد هاجت الحرب بين العبيد وبين الودايا وأهل فاس والحياينة وشراقة وأولاد جامع . وهلك فيها من الفريقين عدد كثير . وفى رابع ربيع الثانى قدم السلطان المولى عبد الله بجر أمم البربر خلفه من زمور وبنى حكم وجزوان وآيت ادراسن وآيت ومالو فى عدد لا يحصيهم الا خالقهم ، وفى شارة من اللباس وشكة من السلاح تسر الصديق وتسوء العدو .

ولما عاين المولى المستضىء وعبيده تلك الجموع وعلموا أنهم لا طاقة لهم بحربهم اتخذوا الليل جملا وأسروا الى مأمنهم ونجو بأنفسهم وأصبحت الديار منهم بلاقع ، فسر الناس بذلك وشكروا الله على انفضاض تلك الجموع بلا قتال .

وفى سادس جمادى الاولى من السنة توفيت أم السلطان الحرة خناثى بنت بكار المغفرية رحمها الله ، وكانت فقيهة أديبة ، ودفنت بقبور الاشراف من فاس الجديد .

وفى جمادى الثانية منها حدثت فتنة بفاس بين الحاج عبد الخالق عديل والشريف المولى أبى عبد الله محمد الغالى الادريسى فشكاه عديل الى السلطان فأمر بالقبض عليه فعاذ الشريف بضريح جده رضى الله عنه ، فألزم السلطان أهل فاس اخراجه ، فضيقوا عليه الى أن طلب الامان فأمنوه وساقوه الى السلطان فوبخه ثم ضربه وسجنه ثم أمر أهل فاس بقتل أصحابه فقتلوهم .

هدية السلطان المولى عبد الله رحمه الله الى الحرم النبوى على مشرفه افضل الصلاة والسلام

وفى هذه السنة أعنى سنة خمس وخمسين ومائـة وألف سافـر الركب المغربى الى الحرمين الشريفين فبعث معه أمير المومنين المولى عبد الله رحمه الله هدية نفيسة فيها ثلاثة وعشرون مصحفا بين كبير وصغير محلاة بالذهب مرصعة بالدر والياقوت ، ومن جملتها المصحف الكبير العقبانى الذى كان الملوك يتوارثونه بعد المصحف العثمانى الذى كـان عند بنى أميـة بالاندلس، وانتقل الى هذه العدوة المغربية على يد عبد المومن بن على حسبما مر الكلام عليه مستوفى ، وأما هذا المصحف العقبـانى فهو مصحف عقبـة ابن نافع الفهرى الصحابى المشهور فاتح المغرب ، كان نسخه بالقيـروان من المصحف العثمانى على ما قيل ، وبقى متداولا بين أهل المغرب الى أن وقع بيد الاشراف السعديين ، وأخذ فيه المنصور منهم العهد لولده الشيخ عـلى اخوته كما مر .

ولما وصل الى هذا السلطان رحمه الله غربه من المغرب الى الحـرم الشريف فعاد به الدر الى وطنه والابريز الى معدنه ، قال الشيخ أبو عبد الله المسناوى رحمه الله : « قد وقفت على هذا المصحف حين أمـر السلطـان المولى عبد الله رحمه الله باخراجه وبعثه الى الحجرة الشريفة فظهر لى أن تاريخ كتبه بالقيروان فيه نظر لبعد ما بينهما » اه وبعث السلطان رحمـه الله معه ألفين وسبعمائة حصاة من الياقوت المختلف الالوان للحجرة النبوية على الحال بها أفضل الصلاة وأزكى التحية وتقبل الله مـن السلطان عملـه وأجزل ثوابه آمـين .

مشايعة الباشا أبي العباس الريفي للمولى المستضيء على المولى عبد الله وزحفه الى فاس وما يتصل بذلك

لما دخلت سنة ست وخمسين ومائة وألف أقبل الباشا أبو العباس أحمد بن علي الريفي في جموع الخمس والجبل والريف قاصدا فاسا وأعمالها حتى نزل بالعسال من مزارع فاس ، وذلك في الثاني والعشرين من المحرم منها ، وراود أهل فاس على الانحراف عن طاعة مولاي عبد الله فأبوا .

وأقبل المولى المستضيء في جموع العبيد ، وعليهم القائد دانع بن النوبي ، حتى نزل قريبا منه في الثاني والعشرين من صفر ، ولما زحف هذان الجيشان الى فاس اضطربت نواحيها ودهش الناس من هول هذا الريفي لأنه جاء في استعداد لم يعهد مثله ، وأبرز الحياينة وشراقة وأولاد جامع الى أسوار فاس ، ونزلت محلاتهم داخلها وخارجها وبعثروا مزارعها وجناتها وانتهبوا مواشيها ، وهلك الكثير منها جوعا وهزالا ، وماجت الفتنة موج البحر ، وارتفعت الأسعار ولقي الناس كل شدة ، وفي كل صباح ومساء ترعد المدافع وتقرع الطبول بمحلتي المولى المستضيء ، والريفي ، فاستعد الناس للحرب ، وركب السلطان المولى عبد الله من دار الدبيبغ في نحو عشرة من الخيل ، وأسرع الى آيت ادراسن ، وهم بسهب عشار ، فدخل محلة عبد الله بن يشي منهم وقلب سرجه وسط جموعهم فالتف عليه من حضر منهم ، وقالوا : « ما الذي نابك مولانا ؟ » فقال : « جئتكم لتنصروني على هذا الجبلي الذي كان خديمنا وعبدنا وأطغاه ما جمع من المال في خدمتنا ثم أراد أن يفضحنا وجرأ علينا أخونا المستضيء وأراد الاستيلاء على بلادنا وهي في الحقيقة بلادكم وما قصد الا اهانتكم وأنتم أحق من ينصر أهل البيت ولا يتحمل العار وعليكم السلام . » ثم ركب فرسه ورجع عوده على بدئه فلم يبت الا بدار الدبيبغ ، ومن الغد زحف أحمد الريفي الى بلاد

الحياينة ظنا منه أنهم لا زالوا مقيمين بها ، فلما لم يجد بها أحدا رجع الى محله الذي كان به ، ومن الغد كانت حرب خفيفة بينه وبين الودايا ومن لافهم من الحياينة وشراقة وأولاد جامع ، ثم من الغد ركب أحمد الريفي في رماته وتقدم حتى وقف على كدية تامزيزت سوق القنطرة وعبرت جموعه لاروزات ، ثم عبر المولى المستضيء في جموع العبيد وخلفوا رماتهم ومدافعهم وأثقالهم بالمحلة ، وركب المولى المستضيء كتائبه وصف جنوده بذلك البسيط وزحف الودايا وأهل فاس والحياينة وشراقة وأولاد جامع ، وجاءت البربر بجموعها فأشرفوا عليهم بالعين المقبوة الى دار ابن عمرو ، ولما وقعت عينهم على جموع المولى المستضيء ووزيره الريفي بذلك البسيط صاحوا بهم وشدوا عليهم شدة رجل واحد فكانت الهزيمة،واستحر فيهم القتل والسلب وازدحموا على القنطرة وتساقطوا في الوادي فهلك الكثير منهم والبربر في أثرهم يقتلون ويسلبون،وأما الريفي فانه لما رأى الهزيمة عليه لم يزد على أن ركب فرسه ونجا برأس طمرة ولجام على الحالة التي وصفها أبو الطيب اذ قـــال :

لا يأمن النفس الاقصى فيدركه   فيسرق النفس الادنـى ويغتنـم

ولم يعرج هؤلاء ولا أحد من المنهزمة على المحلة حتى انتهى اليها البربر فتركوا اتباع المنهزمة واشتغلوا بنهبها فأتوا على ما فيها من الاخبية والكراع والاثاث الفاخر ، ولم يتركوا بها الا المدافع والمهاريس وآلتها من كور ونفـ وبارود ، فإن القائد أبا عزة صاحب الشربيل وقف على ذلـك حتى حازه ، وعاد الناس وقد امتلأت أيديهم من الغنائم ، فلقيهم طوائف من البربر لـم يكونوا قد شهدوا الوقعة فاستلبوا ما بايديهم .

قال صاحب «البستان» : حدثني السلطان المرحوم سيدي محمد بـن عبد الله عن هذه الوقعة ، وكان قد شهدها وهو في سن البلوغ ، قـــال : « بعثني والدي مع أخوالنا الودايا فلما هبت رياح النصر وانهزم العدو في ساعة واحدة وكنت يومئذ في خمسين فارسا بين ودايا وأصحاب تقدمنا الى المحلة فوقفنا على قبة الباشا أحمد وأحرزناها ، ثم أمرت الحمـارة فحملوا

لنا من صناديق الريال على عشرين بغلة ومن الملف والكتان على ثلاثين جملا لعرب بداوة أصحاب الابل ، وحملوا لنا قبتين احداهما لاحمد الريفي والاخرى أظنها لمولى المستضىء ، وأما العرب والبربر والودايا وأهل فاس فقد أخذت كل طائفة بناحية تحمل ما قدرت عليه ، ثم لما انفصلنا عن المحلة قافلين لقينا كثير من البربر الذين لم يحضروا الوقعة وبعض ما خالفونا طاروا بما في أيدينا حتى لم ندر أين البغال ولا الابل ، وانفرد بكل بغلة وجمل جماعة من الخيل خمسون أو ستون أو أكثر ، ولم يجتمع منا اثنان وعدنا كما جئنا ، وهكذا وقع لكل من انتهب شيئا من حزبنا الا من دخل مع البربر في حصتهم ، ولما فرغ الناس من النهب اشتغل عبيد السلطان بجمع الرؤوس فكان عددها ما بين أبيض وأسود نحو التسعمائة ، فبهما رأس القائد فاتح بن النويص ، ثم بعث السلطان المولى عبد الله البغال لجر تلك المدافع والمهارس وحمل الكور والنب فسيق ذلك كله الى دار الدبيبغ ثم بعث بغالا أخرى لحمل البارود وكان ثلاثمائة برميل في كل واحد قنطار من البارود الجيد فادخل ذلك كله لخزين فاس » قال السلطان المرحوم سيدي محمد بن عبد الله في حديثه : « وكان هذا أول بعث بعثني فيه والدي وأول حرب شهدتها وأنا يومئذ في سن البلوغ وكان لي ولوع باللعب بالرمح والمطاعنة به الى أن مهرت فيه » اهـ كلامه .

ولما اجتاز المنهزمة بجبل الزبيب اعترضهم أهله وقاتلوهم فقتلوا في جملتهم سيدي محمد بن المستضيء يظنونه من أهل الريف ، ثم خلص الريفي وأصحابه الى طنجة بعد غصص الريق وكان أمر هذه الوقعة فتحا عظيما على أمير المؤمنين المولى عبد الله وشيعته .

قال في « نشر المثاني » : « فراجع طائفة من العبيد طاعة مولاي عبد الله ، وجاءته قبائل الغرب بالهدايا من كل ناحية فتألفهم والآن لهم القول، وأمر العبيد بالمسير الى طنجة لحرب الريفي فساروا ثم رجعوا ولم يلقوا كيدا » .

معاودة احمد الريفي غزو فاس وما كان من امره مع السلطان المولى عبد الله الى حين مقتله

لما وصل أحمد الريفي الى طنجة أخذ في اخلاف ما ضاع له وتقويه من خيل وسلاح وأخبية ونحوها وجدد لجيش العبيد من ذلك ما جدده لاهل الريف وأخذ في الاستعداد لمعاودة غزو فاس ، وأقسم أن لا يأكل لحما ولا يشرب لبنا حتى يدخل فاسا وينهبها كما انتهبوا محلته .

وبعث الى سلطانه المولى المستضيء بمائتي فرس ومائتي خباء وألف مكحلة وخمسين ألف مثقال يفرقها على العبيد يتقوون بها ، وضرب له موعدا يجتمعون فيه على حرب السلطان المولى عبد الله وشيعته من الوداية وأهل فاس فكان أمر الريفي فيما أنفقه كما قال تعالى : « فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » .

ولما كان شهر جمادى الاولى من سنة ست وخمسين ومائة وألف خرج أحمد الريفي من طنجة قاصدا حضرة فاس فى أكمل شكة وأحسن استعداد ، ولما انتهى خبره الى السلطان المولى عبد الله لم يسعه التخلف عن لقائه ، فكتب الى عرب الحياينة وشراقة وأولاد جامع ، وكتب الى عرب الغرب من سفيان وبني مالك وسائر شيعته يستنفرهم ويحضهم على نصرته ، وفرق الراتب على العبيد والوداية وزرارة ، وأخرج أهل فاس بعثهم الذي عينوه على العادة ، وكتب السلطان الى آيت أدراسن وجروان يخبرهم بعزمه على مصادمة الريفي وجمعه ، ويقول لهم : « ان أردتم المال والغنيمة فانهضوا للنهوض الى طنجة » . فخف ناس منهم وقدم عليه منهم ألفان من الخيل وأكثر منها رماة .

ثم خرج السلطان من فاس أواخر جمادى الاولى ونزل على وادي سبو وأقام به الى ان عرض عساكره ورتبها فجعل رماة عبيده ورماة أهل فاس يدا واحدة وعقد عليهم للقائد أبي عزة صاحب الشرابيل ، وجعل

الودايا وزرارة وأهل السوس خيلهم ورماتهم رحى واحدة وعقد عليهم لحاجبه القائد عبد الوهاب اليموري ، وسار على هذه التعبية فلقيه شراقة وأولاد جامع وأولاد عيسى فجعلهم رحى واحدة وعقد عليهم للشيخ أبي العباس احمد بن موسى الشرقي ، ولما عبر وادي ورغة لقيه أهل الحرب في جموعهم ينتظرونه هنالك فباتوا معه تلك الليلة بعين قرواش ومن العبيد جعل بني مالك في رحى وعقد عليهم لقائدهم أبي سلهام الحمادي ، وجعل سفيان في رحى وعقد عليهم لقائدهم عبد الله السفياني ، وسار على هذه التعبية في ظل النصر والسعادة .

وأما المولى المستضيء في العبيد وبني حسن فانه لما بلغه نهوض السلطان المولى عبد الله من فاس حالفه الى مكناسة دار الملك فدخلها على حين غفلة من أهلها وعاث وانتهب ، وفعل فيها بنو حسن الافاعيل من سبي النساء والذرية وغير ذلك ، ثم تدارك أهل مكناسة أمرهم وتجمعوا لحرب عدوهم فقاتلوا بني حسن في وسط المدينة وردوهم على أعقابهم وقتلوا منهم مالا يحصى ورجعوا منهزمين ، وأما أحمد الريفي فانه زحف الى القصر في جموع لا تحصى من أهل الريف والفحص والجبل وأهل العرائش والقصر والخلط وطليق وبداوة وغيرهم ، وأقام ينتظر سلطانه المولى المستضيء وجمعه .

ولما ابطأ عليه واتصل به خبر زحف السلطان المولى عبد الله اليه ارتحل من القصر عامدا نحوه فالتقى الجمعان عشية ذلك اليوم بدار العباس على وادي لكس . وقال في « نشر المثاني » : كان التقاء بالموضع المسمى بالمنزه من أحواز القصر في رابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسين ومائة وألف .

ولما تراءى الجمعان هم جيش السلطان المولى عبد الله بالنزول ، فقال السلطان رحمه الله : « لانزول الا على الغنيمة او الهزيمة » ثم عبر اليهم في جنوده وأعجلهم على النزول وصمد اليهم في كتيبة من أحواله وعساكره فخالط مقدمتهم فقضها ، وكان فيها أهل الفحص وبداوة وطليق والخلط

ثم ظهرت كتيبة أهل الريف التي فيها قلب العسكر وحده ، وفيهـا الباشا أحمد بن علي ، فحمل عليها السلطان حملة ثانية ألحقها بالمقدمة ، وتقوضت جموع الريفي من كل جانب وانهزموا للحين ومروا على وجوههم لا يلوى حميم على حميم ، ومضى جيش السلطان في أثرهم يقتلون ويسلبون الى أن جنهم الليل ، وقتل الريفي في المعركة ، وبقيت الابنية والاثقال بيد السلطان كما هي ، فنزل بها بدار العباس ، وعادت العساكر مساء بالغنائم وبرأس الباشا أحمد بن علي الريفي ، عرفه بعضهم من القتلى فازال رأسه وأتى به السلطان فسر به ، وبعث به الى فاس فعلق بباب المحروق ، وانقضى أمل أحمد الريفي وذهبت أيامه و «كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » . وقد خلف هذا الريفي آثارا كثيرة بطنجة وتطاوين وأعمالها من أبنية وغيرها تشهد بعلو همته رحمه الله .

زحف السلطان المولى عبد الله الى طنجة واستيلاؤه عليها

لما فرغ السلطان المولى عبد الله رحمه الله من أمر الريفي أصبح غاديا يؤم طنجة ولما شارفها خرج اليه رجالها يحملون المصاحف على رؤوسهم والصبيان يحملون الالواح بين أيديهم مستشفعين تائبين فعفا عنهم الا من كان من بطانة احمد الريفي ، ودخل السلطان طنجة واستولى عليها وامر بالاحتياط على دار الريفي ومتاعه ، ثم أمر الخواجا عديلا في جماعة من تجار فاس باحصاء ما بدار الريفي فدخلوها وتطوفوا خزائنها واستخرجوا ما فيها من مال وسلاح وسروج وكسى وملف وكتان وفرش وخرثي وأثاث يفوق الحصر ، فأحصي ذلك كله وأحصى العبيد والاماء والخيل والبغال وجميع الماشية من ابل وبقر وغنم فحيء من ذلك بشيء كثير فأعطى الماشية كلها للبربر ، ثم أطلق يد الجيش على الامراس فانتشلوا ما فيها من قمح وشعير وأتوا عليه ، ثم تتبع حاشية الريفي من عمال وكتاب وغيرهم ممن كان له

به اتصال فاستصفى ما عندهم من المال والذخيرة الى ان استوفى غرضه .

وكان هذا الريفي قد رسخ مجده بطنجة وأعمالها ، وعظمت ثروته لامتداد الدولة له ولابيه بها منذ الفتح ، فكان ظفر السلطان المولى عبد الله بخزائنه من باب الظفر بالكنوز القارونية ، وقدمت عليه في أثناء ذلك وفود القبائل التي هنالك فعفا عنهم وأمنهم واقام رحمه الله بطنجة أربعين يوما وانقلب راجعا الى فاس مؤيدا منصورا وبالله التوفيق .

اعتراض المولى المستضيء للسلطان المولى عبد الله وعود الكرة عليه ومقتل بني حسن

لما انهزم المولى المستضيء من مكناسة بعد ايقاعه باهلها خرج الى حلة بني حسن وأقام بين أظهرهم فاتصل به خبر مقتل ناصره ووزيره على أمره احمد الريفي ففت ذلك في عضده ، وهد أركانه ، ثم لما بلغه فتح طنجة واستيلاء السلطان عليها استأنف جده وارهف حده وأخذ في تحريض العبيد وبني حسن على تجديد العث والنهوض لاعتراض اخيه السلطان المولى عبد الله مرجعه من طنجة ، فخرج كبير بني حسن يومئذ ، وهو قاسم أبو عريف ، يطوف في أحيائها ويستنفر جموعها ، وخرج المولى المستضيء في ثلة من وجوه العبيد الى مشرع الرملة فحشر بها عشرة آلاف فارس من عبيده ، ووافاه قاسم أبو عريف بمثلها من بني حسن ، فكان مجموع الجيشين عشرين الفا سوى من انضاف اليهم ، ثم ساروا لاعتراض السلطان ، ولا علم له بهم .

وقدم المولى المستضيء أمامه الطلائع والعيون فعادوا اليه بخبر السلطان وأنه بات تلك الليلة بدار العباس فصبحه المولى المستضيء في جموعه على حين غفلة منه ، فلم يرع السلطان المولى عبد الله الا نواصي الخيل مقبلة اليه،

قدماً جنده على عجل ، واقام الرماة حوالى المحلة ، ثم صدم القوم في الخيل ، واتشب القتال فلم تكن الا ساعة حتى انهزم بنو حسن وولوا الادبار ، وكانوا ميمنة الجيش ، وثبت المولى المستضيء والعبيد في الميسرة ، فصمد اليه السلطان وصدقه القتال فهبت ريح النصر وتمت الهزيمة على المولى المستضيء وعبيده ، ومروا على وجوههم لا يلوون على شيء ، فجرد السلطان مع القائد أبي عزة صاحب الشربيل كتيبة من الخيل في أثرهم وتقدم اليهم أن لا يقتلوا احدا من العبيد وانما يجردونهم لا غير . فلم يقتل أحد من العبيد في هذه الوقعة ، واستحر القتل في بني حسن فهلك منهم ما ينيف على الالف ، وانتهب منهم أكثر من خمسة آلاف فرس ومن السلاح مثل ذلك ، وهذه الوقعة هي التي خضدت شوكة بني حسن وفلت من غربهم ، وتجنب المولى المستضيء في فئتهم وأقام بمحلهم ينتظر أن تدول له دولة لانهم كانوا شيعته كأهل دكالة واهل مراكش ، وكان اخوه المولى الناصر خليفته على مراكش كما مر .

وقفل السلطان المولى عبد الله الى فاس الجديد فاحتل بها وفرق المال على اخوانه وعبيده ولبسهم لاهل فاس ، وأقام بدار الدبيبغ الى ان دخلت سنة سبع وخمسين ومائة والف فقدم عليه في شهر ربيع الثاني منها جماعة من قواد العبيد تائبين خاضعين منتصلين مما فرط منهم ، فعاتبهم وقال لهم : لا كلام اليوم بيني وبينكم حتى أقطع دابر بني حسن ومن معهم من شيعة المستضيء ، ثم عفا عنهم واعطاهم الراتب وأمرهم بتقدمهم عليه الى مكناسة بقصد غزو بني حسن ، فعادوا الى مشرع الرملة عازمين على ذلك ، واخذ هو في الاستعداد ايضا ، ونهض من فاس في جيش العبيد والودايا وأهل فاس والحياينة وشراقة واولاد جامع وعرب الغرب ، ولما انتهى الى مكناسة وافاه بها عبيد مشرع الرملة في وجوههم واهل الحل والعقد منهم فجددوا التوبة واستأنفوا البيعة بمحضر القضاة والعلماء واعطوا صفقة الطاعة من عند آخرهم ، والله غالب على امره .

نهوض السلطان المولى عبد الله الى بلاد الحوز وتدويخه اياها واجفال المولى المستضيء عنها

كان المولى المستضيء في هذه المدة مقيما عند بني حسن كما قلنا ، ولما بايع العبيد السلطان المولى عبد الله واجتمعت كلمتهم عليه خرج في طلبه وطلب شيعته من بني حسن ، فسلك طريق الفج ليحول بين بني حسن والشعاب فصبحهم ببسيط زبيدة وهم غارون ، والمولى المستضيء بين أظهرهم، فلم يرعهم الا الخيل تجوس خلال بيوتهم وتسوق أنعامهم وشاءهم وتنتهب أثاثهم ومتاعهم ، فانفضوا في كل وجه وتفرقوا شذر مذر ، وافلت المولى المستضيء رحمه الله بجريعة الذقن ، وتوزعت العساكر السبي .

وجاء بنو حسن يهرعون الى السلطان طالبين عفوه فأمر بالكف عنهم ورد عليهم سبيهم وترك لهم خيلهم ، ومضى الى قبائل دكالة اذ اتصل به ان المولى المستضيء قد فر اليها ، فلما نزل قصبة ابي الاعوان ونزلت عساكره أمامه بذلك البسيط من دكالة فر أهلها مع المولى المستضيء الى الغلول ونزلوا قرب دمنات ، وشرعت عساكر السلطان في انتشال الحبوب من الامراس واستخراج الدفائن من الهميل وتخريب القرى وتقطيع الاشجار ، وكلما فرغت من ناحية انتقلت الى غيرها مقتفية في ذلك البسيط تحسو السنة ، والسلطان مقيم بالقصبة الى ان اكتسح أرض دكالة وتركها أنقى من الراحة ليس بها ما يأكله الطائر أو يلتقطه الطائر ، ثم انتقل الى بلاد السراغنة ولما توسطها قدمت عليه وفودها ووفود سائر قبائل تلك الجبال بمؤوناتهم وهداياهم فقبلهم وعفا عنهم ، ثم انتقل الى ناحية دمنات ففر أهل دكالة ، والمولى المستضيء أمامه الى جبال سفيوة فتحصنوا بها ، وكانت سفيوة قد بايعته ودخلت في دعوته ، فتقدم السلطان المولى عبد الله حتى نزل بوادي الزات فقدمت عليه هنالك عرب الرحامنة وزمران وسائر أهل الحوز ، وكانوا متمسكين بطاعته ، فنزلوا معه بالوادي المذكور ، وعاثت العساكر في بلاد

مسفيوة واوسعوها نهبا وتخريبا ، واخرب في ذلك كله قائمة مع المولى المستضيء على ساق ، الى ان صار وادي الزات آخرب من جوف حمار . ثم انتقل السلطان الى وادي كجي فعاثت فيه العساكر على عادتها ، وعجز أهل الدفاع فهدمت حصونهم وحرقت قراهم وقطعت أشجارهم ، وصار وادى كجي أوحش من وادى الزات ، فطلبوا الامان واعلنوا بالطاعة ، وجاءوا مستشفعين بصبيانهم . فقال لهم السلطان : «على شرط أن تأتوا بالمستضيء» فقالوا : «انه قد فر بالامس ولو كان عندنا لاتيناك به» فقبلهم وعفا عنهم . ثم جاء أهل دكالة بنسائهم وذراريهم وقالوا : «هذه نساؤنا واولادنا لك ، وأما المال فقد ذهب وما عندنا ما نفديه فافعل بنا ما بدا لك» فعفا عنهم وأذن لهم في الرجوع الى بلادهم . وكان ذلك أواخر سنة سبع وخمسين ومائة والف .

ولما دخلت سنة ثمان وخمسين بعدها ارتحل عن بلاد مسفيوة ونزل بقصبة آلصم باشمام الصاد زايا وبها قدم عليه وفد مراكش كما يأتي :

واما المولى المستضيء فانه لما فر من مسفيوة قدم مراكش ، وحاول الدخول اليها فصده أهلها عنها ورفضوا دعوته ، وأعلنوا بنصر السلطان المولى عبد الله بمرأى منه ومسمع فلم يبق له حينئذ بمراكش مطمع ؛ وكان أخوه المولى الناصر قد مات يومئذ فاخرجوا اليه أثاثه فتسلمه منهم وكر راجعا الى بلاد الفحص ، فلم يزل تلفظه أرض الى أرض الى ان احتل بطنجة قانعا من الغنيمة بسلامة المهجة وسياتي تمام خبره بعد ان شاء الله .

وفادة أهل مراكش على السلطان المولى عبد الله بآلصم واستخلافه ولده سيدى محمدا عليهم

لما طرد أهل مراكش المولى المستضيء عن بلادهم تآمروا فيما بينهم وأجمعوا الدخول في طاعة السلطان المولى عبد الله وعينوا جماعة من وجوههم واوفدوها عليه وهو بقصبة آلصم فانتهوا اليه وقدموا بيعتهم، واخبروه بما كان من المولى المستضيء وما عاملوه به من الصد والابعاد فقبلهم وعفا عنهم بعد العتاب ، ثم طلبوا منه هم وقبائل الحوز أجمع ان يطأ بلادهم ويدخل مصرهم فوعدهم بذلك ، ولم يبرح من مكانه الى ان وفدت عليه قبائل الدير كله ، فلما تفقد الجيش الذى خرج به من مكناسة وجد أكثره قد فر ولم يبق معه من العسكر المخزني الا النصف ، واما القبائل فلم يبق معه منهم الا أعيانهم في الاخبية لطول الغيبة وكثرة الحروب وقلة الزاد ، فلم يمكنه التقدم الى مراكش على تلك الحال ، وانما تألفهم بأن دفع لهم ولده المولى محمدا رحمه الله وقال لهم : «اني استخلفته عليكم» فرضوا به وقرت أعينهم، فكان ذلك اول ما انغرست شجرة الدولة العلوية بمراكش حتى صارت حضرتها ودار ملكها بعد ان كانوا لا يبغون بمكناسة بدلا .

ثم بعث السلطان ولده المولى احمد وكان اسن من المولى محمد خليفة عنه برباط الفتح ، واضاف اليه قبائل الشاوية وبنى حسن ، ثم أذن السلطان لعامل فاس عبد الخالق عديل في الرجوع الى فاس فمرض بالطريق ومات بعد ان دخل فاسا ودفن بزاوية سيدى عبد القادر الفاسي .

ثم رجع السلطان الى مكناسة على طريق تادلا بعد ان أقام ببلاد الحوز سنة كاملة فقدمها في شهر ربيع الثاني سنة ثمان وخمسين ومائة والف ، ولما شارف مكناسة لم يدخلها ونزل بقصبة ابي فكران ، فقدم عليه بها جماعة من المجاهدين أهل الريف من طنجة فوق المائة ومعهم زوجة الباشا أحمد الريفي وولداها منه . فقدمت هدية عظيمة ، فقبض السلطان الهدية وقبل

الولدين ومن معها من أهل الريف ، ثم قتل معهم ثلاثمائة من بني حسن كانوا قدموا عليه للتهنئة ، فكان ذلك سبب نفرة الناس عنه ، فسامت عنه الاحدوثة وكثرت القالة من الجيش والرعايا حتى فى الاسواق ، وانقبض الناس عنه حتى أهل فاس فضلا عن غيرهم .

مكر السلطان المولى عبد الله باعيان البربر واخفار ذمة محمد واعزيز فيهم ثم اطلاقهم بعد ذلك

لما صدر من السلطان المولى عبد الله ما صدر من قتل اهل الريف وبني حسن وانقبض الناس عنه ، انقبض فى جملتهم البربر فلم يأته منهم أحد ، وكانوا قد حرثوا باحواز مكناسة ، فلما ادرك زرعهم امر السلطان العبيد بانتهابه ، فعمدوا اليه وحصدوه ودرسوه وأكلوه ، فازدادت نية البربر فيه فسادا .

ولما رأى انقباضهم عنه كاتب كبيرهم محمدا واعزيز وكانت بينهما خلة ومصافاة حتى كان يقول له : «أنت أبي» اذ كان محمد واعزيز هذا هو الذي حشد له جموع البربر وشايعه على عدوه أحمد الريفي حتى قتله ، فكتب اليه يلومه على انقباضه عنه وتخلف قبيله عن الحضور ببابه مع أنهم شيعته ومواليه ، فلما ورد عليه كتاب السلطان لم يسعه التخلف عن اجابته، واستشار فى ذلك قومه فلم يوافقوه فراجعهم ، فقالوا : «الا ترى الى ما وقع بمن وفد عليه من غيرنا» فقال : «لا ترون الا الخير» ولم يزل بهم حتى غلبهم على رأيهم ، وتفرقوا عنه لجمع الهدية وتعيين الوفد فجمعوا من ذلك ما قدروا عليه ثم أتوه فاعادوا عليه القول وحذروه الغدر ، فقال : «هذا لا يكون ولستم مثل اولئك» ، فما وسعهم الا اجابته ، واقبلوا معه حتى انتهوا الى قصبة ابي فكران حيث هو السلطان ، فاجتمعوا بالحاجب أبي محمد عبد الوهاب اليموري فلما رآهم بهت ، وتحركت منه الرحم البربرية لكنه لم

يمكنه ردهم بعد بلوغهم الى ذلك المحل ، وكانوا نحو المائة ، كلهم أعيان فرجلوا عن خيولهم ووضعوا اسلحتهم ، ثم دخلوا على السلطان المولى عبد الله فوجدوه جالسا على كرسيه بوسط القلعة ، فادوا واجب التحية فاجابهم وامرهم بالجلوس فجلسوا بين يديه ، ثم دخل الحرس والزبانية فوقفوا على رؤوسهم وأحاطوا بهم ، واخذ السلطان في معاتبتهم على ما يرتكبونه في الطرقات والغارات على المستضعفين من الاعراب وغيرهم وانتهاب بضائع التجار ، وما كانوا يعاملون به عساكر الملوك من النهب والسلب ، وعدد عليهم الخسائف القديمة والافعال الذميمة ، ثم أمر الحرس بالقبض عليهم فانقضوا عليهم انقضاض العقبان ، ولم يكن بأسرع من ان القوا بين يديه مقرنين في الحبال ، ولم يقبض على محمد واعزيز من بينهم ، فقال له : «يامولانا أغدرا بعد أمان ولست من أهله ؟» فقال له : «ان هؤلاء القوم قد حادوا عن الدين وحل مالهم ودمهم لخروجهم عن الطاعة وشقهم عصا الجماعة وقد أعياني أمرهم وما عدت الى هذا الامر بعد خروجي منه الا من أجلهم ، أردت أن اقابل هذا التيس الاسود «يعني العبيد» بهذا الكبش الابيض «يعني البربر» واستريح من غصة من هلك منهما وأتمسك بالآخر ، ولولا انك بمنزلة والدي ما أطلعتك على ما في ضميري فقم في حفظ الله ولا بأس عليك» فقال محمد واعزيز : «والله لا أقوم ولا اكون الا مع اخواني حيثما كانوا فان هلكوا هلكت معهم ويكون لك غدرك ، وان سلموا سلمت معهم ولا يتحدث الناس أني سقتهم الى الذبح ورجعت أنا سالما ، فبأي وجه أسير الى أولادهم ؟ وأي ارض تحميني من عشيرتهم ؟ والى أين أقصد ؟ فان كان لا بد من القتل فقتلك لي معهم أجمل بي ، ولا اثم عليك في ذلك ولا عار ، لاني أنا الذي سقتهم اليك وأرحتهم عليك بعد أن عرضوا على هذا كله فلم أقبل منهم» فلما سمع السلطان هذا الكلام العالي وتمكنت منه سورة الحفيظة حل بتدبيره ثم التفت الى الحاجب عبد الوهاب وقال : «يا عبد الوهاب لاخير في الرجل يقول للرجل أية ثم لا يشفعه في جماعة من قبيله خلوا عنهم» . فسرحوهم وخرجوا كأنما نشروا من القبور

فركبوا خيلهم وساروا الى حللهم ولسان حالهم ينشد ما قاله الاعرابي الذي بال بواسط فضربه الحجاج وسجنه ثم أطلقه :

اذا نحن جاوزنا مدينة واسط خرئنا وبلنا لا نخاف عقابا

زحف البربر الى السلطان المولى عبد الله بابي فكران وفراره الى مكناسة

لما خلص جماعة البربر الى حللهم أقبلوا على محمد واعزيز وعاتبوه على ما حملهم عليه من الوفادة على السلطان والقرب منه حتى جرى عليهم ما جرى ، مع أنهم كانوا فى غنى عن ذلك كله ، وقالوا له : نحن منا وبعثنا ولابد لنا من الاخذ بالثار ، فقال : « شأنكم وما تريدون » فخلصوا نجيا ، وتفاوضوا فى شأنهم الى أن اجمع رأيهم على غزو السلطان لمضى ثلاث ومن تخلف عنها احرقت خيمته ، فقال لهم محمد واعزيز : « اياكم والطرقات ثم افعلوا ما بدا لكم » فتفرقوا لحللهم واستعدوا للحرب ، وأقبلوا فى اليوم الرابع يجرون الشوك والمدر فلم يرع السلطان ، وهو بابى فكران الا الرايات قد اطلت عليه من الحاجب ، والخيل تسيل بها الاودية والشعاب، فلم يسعه الا أن حمل أثقاله وأركب عياله وجعلهم أمامه مع رحى من رماة المسخرين وأردفهم رحى أخرى من الخيل ، ثم تلاهم هو فى موكبه وردفته رحى ثالثة من خيل العبيد جاءت من خلفه ، وانحدر فى بطن الوادى وتفرق الجند عن يمين الوادى ويساره وسار السلطان على هذه التعبية ، وكلما دفعت خيل البربر على المسخرين من الجند أطلقوا عليهم شؤبوبا من الرصاص فيسقط منهم الاربعون والخمسون ، واذا دفعت خيلهم على رحى الخيل فكذلك ، وعلى موكب السلطان فكذلك ، وهكذا الى أن دخل باب القزدير فاحتل بمكناسة ، وهلك من العبيد فى هذه الوقعة نحو الثلاثمائة ، ومن البربر على ما قيل نحو الخمسمائة ، وجمعوا قتلاهم

فكنوهم في اخبية العبيد اذ كانت بأيديهم ولم يرجعوا بسوى ذلك ، وكانت هذه الوقعة أواسط سنة تسع وخمسين ومائة وألف .

واعلم أنه قد وقع هنا لفظ الرحى ولفظ المسخرين وغير ذلك ، وهي ألقاب لطوائف من جيش هذه الدولـــة السعيدة فلا بد من بيان الاصطلاح في ذلك تتميما للفائدة فنقول : ان الجيش السلطاني اليوم بهذه الدولـــه الشريفه ينقسم أولا الى ثلاثــة أقسام : أصحاب ومسخرين وجيش . فأما الاصحاب فهم : طائفة من الجند تلازم السلطان حضرا وسفرا لا يفارقونــه بحال ، وهم أرباب الوظائف المخزنية ، منهم الكتاب الذين هم الى نظــر الوزير الاعظم ، ومنهم أرباب الفراش ، ومنهم القهارمة القائمون على طعام السلطان وشرابه ، ومنهم أرباب الوضوء ، وغير هؤلاء ممن يطول ذكرهم وكل طائفة برئيسها . واما المسخرون فهم : ملازمـــون للسلطان حضرا وسفرا أيضا ، وشأنهم أن يكونوا فرســـا في الغالب ، وقـــد يكون فيهم الرماة ، وهم أهل الشوكة والغناء ، وهم الموجهون في المهمات لان عليهم المدار في الامور المخزنية كما يقتضيــه تسميتهم بالمسخرين ، واذا ركب السلطان في سفر أو نحوه انقسموا قسمين ، فالعبيد منهم يكونون خلفـــه لانهم الموالى ، والوادايا وشراقة يكونون أمامه . وأما الجيش فهـــو : أهل الجمع كما يقتضيه لفظه ومنه تنتخب الطوائف السابقة وهو عسكر السلطان الذي يحويه ديوانه الا أن معظمه يكون متفرقا في حلله وبلاده الا اذا أراد السلطان غزوا فيوجه على ما يحتاج اليه منه ، اما الجميع أو البعض ويكون ذلك مناوبة على ما هو معروف عندهم . وأما الرحى فهي : عبارة عن ألف من الجيش خيلا أو رماة وربما زادت أو نقصت بحسب ما يتفق والله أعلم.

شغب العبيد على السلطان المولى عبد الله وانتقاله الى فاس وانتقال عبيد الديوان من مشرع الرملة الى مكناسة

لما وصل العبيد الذين كانوا مع السلطان المولى عبد الله بأبي فكران الى مكناسة واجتمعوا باخوانهم الذين كانوا هنالك تكلموا بما في أنفسهم على السلطان من الغيظ وبثوا بما في صدورهم عليه من الاحنة ، وقالوا انه قد قال لمحمد واعزيز : « أردت أن أصدم هذا التيس الاسود بهذا الكبش الابيض » ودارت بينهم هذه الكلمة وأخذت منهم كل مأخذ ، وقالوا : « لم يبق لنا شك في أن هذا الرجل لا غرض له الا في هلاكنا فانظروا لانفسكم أو دعوا » ثم كتبوا الى عبيد الديوان يخبرونهم بما صدر من السلطان في جانبهم ويستشيرونهم في أمره ، فجاء بعض عيون السلطان من عبيد مكناسة اليه وأخبروه بما دار بين العبيد ، وبما كتبوا به الى أهل الديوان فطير السلطان بالكتابة الى ودايا فاس الجديد يقول لهم : « ان كانت لكم حاجة بابن أختكم عبد الله فاقدموا عليه الساعة » ثم أخذ في جمع أثاثه وتنضيده وحمل ماله وشده واسراج خيله والتهاس رحله ، وقال لحاشيته : « غدا ان شاء الله نرجع الى أبي فكران » فلما كان وقت العشاء وصل الى باب القرمدين من جيش الوداية أربعمائة فارس فاخرج اليهم السلطان أثاثه وماله وعياله ، ثم ركب في حاشيته وأسروا ليلتهم ولم يصبحوا الا بفاس الجديد فدخل السلطان داره وأمن على نفسه . وأما عبيد الديوان فانه لما بلغهم كتاب اخوانهم الذين بمكناسة وقرأوه قالوا : « انه لا يحمل بنا المقام في وسط بني حسن لا ننفع اخواننا ولا ينفعوننا » فاجمعوا الرحيل والانتقال الى مكناسة ، وبعد ثلاث انتقلوا اليها وأعمروا مشرع الرملة ، واستراحت تلك البلاد من عيثهم لاسيما سلا وأحوازها فانهم كانوا قد أزعجوا أهلها ولاقوا منهم عرق القربة .

ولما وصلوا الى مكناسة نزلوا بالمدينة وبالقصبة وبالاصطبل وبريمة

وبهدراش وبالرحاب التسعة فملأوها واجتمعوا باخوانهم واطمأن جنبهم

ولما كان عيد الفطر من سنة تسع وخمسين ومائة وألف قدم على السلطان بفاس جماعة من قوادهم مع القاضي والفقهاء والاشراف من أهل مكناسة فحضروا معه العيد على العادة وطلبوا منه أن يرجع الى مكناسة وتنصلوا مما بلغه عنهم واعتذروا اليه ، فوعدهم الرجوع وأعطاهم مالا وانصرفوا الى منازلهم . ولما كانوا بالجديدة قرب مكناسة اعترضهم البربر وجردوهم وأخذوا ما معهم ولم يتركوا الا القاضي أبا القاسم العميري على بغلته ، وأصبح الوفد على باب مكناسة عراة ينظر بعضهم الى بعض .

اجلاب محمد واعزيز على السلطان المولى عبد الله وانتقاض اهل فاس والقبائل عليه

لما رجع البربر الى بلادهم من وقعة أبي فكران كتب كبيرهم محمد واعزيز الى أهل فاس يتظلم من السلطان المولى عبد الله ويخبرهم بما اتفق له معه من اخفار ذمته وعزمه على الفتك باخوانه ويدعوهم مع ذلك الى أن يكونوا معه يدا واحدة ، فأجابوه الى ذلك ودخلوا في حزب البربر . ثم كتب واعزيز بمثل ذلك الى عرب الغرب من سفيان وبني مالك ، وكبيرهم يومئذ حبيب المالكي ، فقالوا : « نحن لكم بيع وحربنا حربكم وسلمنا سلمكم » وانتقضت الفتوق على السلطان من كل جهة وهاجت الحرب بين الودايا وأهل فاس ، وبعد أيام ورد الخبر بأن ركب الحاج قد وصل الى تازا ، وهو محصور بها ، فاستغاث أهل فاس بالبربر ليأتوهم باخوانهم ، فجردوا منهم خمسمائة من الخيل الى تازا ، فمروا في طريقهم بشرب الحياينة فانضموا اليهم ودخلوا في حزبهم وساروا بأجمعهم الى تازا فخلصوا الركب الذي بها وقدموا بهم الى فاس ، فدخلوا على باب الفتوح

ونزل البربر والحياينة بالزيتون ، ودخل جماعة منهم المدينة لقضاء أغراضهم .

وفي أثناء ذلك أغار عليهم الوداية فقصوهم وقتلوا منهم كثيرا ، فأمرهم السلطان أن يعلقوا رؤوسهم على سور قصبة شراقة ففعلوا ، ثم بدا لأهل فاس في مراجعة طاعة السلطان فبعثوا اليه في ذلك ، فأجابهم بأن يقدموا عليه فخرج اليه العلماء والأشراف والأعيان ، فلما مثلوا بين يديه عدد عليهم أفعالهم ووبخهم وشرط عليهم شروطا منها أن يعطوه زرع أهل الغرب المخزون عندهم وأن يهدموا دورهم ويبنوا بأنقاضها دار الدبيبغ ، ويختاروا احدى خصلتين اما أن يكونوا جيشا واما أن يكونوا نائبة ، فقالوا: « نجتمع على هذا الأمر مع اخواننا ويكون الجواب » . ولما رجعوا من عنده أغلقوا أبواب مدينتهم وقالوا : « لا نقبل شيئا من ذلك كله » ، وعادت الحرب جذعة وارتفعت الأسعار وعظمت الأخطار . وفي سابع ذي الحجة من سنة تسع وخمسين ومائة وألف نهب عامة فاس قناطير المخزن التي كانت بمنزل التجارين على يد الأمين الحاج الخياط عديل وأرادوا مصادرته على مال المخزن الذي عنده فافتدى منهم بثلاثة آلاف مثقال فأطلقوه بعد القبض عليه ، وكانت القناطير ثلاثة آلاف قنطار فرقوها على رماتهم يعيدوا بها عيد الأضحى ، واستمرت الحرب بينهم وبين الوداية وسائر شيعة السلطان الى أن دخلت سنة ستين ومائة وألف .

وفي أوائل جمادى الأولى منها قدمت قبائل البربر وقبائل الغرب لمتابعة أهل فاس على حرب السلطان ، فنزل محمد واعزيز في برابرته بمحل الطفات ، ونزل حبيب المالكي في أهل الغرب وطليق والحلفاء بمدار الاضاف ، وانحصر الوداية بفاس الجديد والعبيد بقصبة شراقة ، والسلطان بدار الدبيبغ ، وضاق الخناق على السلطان وشيعته ، ومن الغد ركب حبيب في عربه وزحف الى السلطان بدار الدبيبغ والبربر على أثره ، ولما وصل الى حوزتها بلغه أن البربر قد نهبوا محلته فرجع منهزما وعبر الوادي وتوجه الى بلاده ، وأما البربر فانهم لما فرغوا من محلة أهل الغرب احتلوا

الى سايس ، ويقال : أن السلطان دس بالليل الى محمد واعزيز بمال على أن يخذل عنه هذه الجموع ويفرقها ، ففرقها بنهب محلة أهل الغرب وبجبهة العير يفدى حافر الفرس ، ولما انفضت هذه الجموع الى بلادها بقى أهل فاس في القتال والحصار ستين وزيادة كما سيأتى ، وبعثوا في أثنـه ذلك الى المولى المستضىء المقيم باحواز طنجة ليقدم عليهم فيبايعوه وتجتمع كلمتهم عليه فرد رسلهم بمخ العرقوب ووعد عرقوب .

ذكر السبب الذى هاج بعث السلطان المولى عبد الله الجيوش الى اهل الغرب ومراجعتهم طاعته

وفي سنة ستين ومائة وألف أثناء حرب الودايا لاهل فاس قدم جماعة من عرب بنى حسن على السلطان المولى عبد الله شاكين اليه عرب الغرب ، وانهم لما انقلبوا راجعين بجموعهم الى بلادهم مروا بحلة بنى حسن فأغاروا عليها وانتهبوها ، فحركوا من السلطان ما كان كامنا في صدره عليهم ، وبعث اليهم جيشا كثيفا من العبيد والودايا وأمرهم بالقتك بأهل الغرب ونهب أموالهم وأن لا يبقوا لهم على سبد ولا لبد ، فخرج الجيش يؤم بلاد الغرب فنذروا به وانجفلوا أمامه عن بلادهم وتبعهم طلق والخلط فأرزوا الى مدينة العرائش وتحصنوا بسورها ، فتبع الجيش آثارهم حتى نزل عليهم بها وحاصرهم ثلاثة أشهر هلكت فيها ماشيتهم جوعا ، وبعقب ذلك وردت عليهم جماعة من الودايا بأمان السلطان ومصحفه وسبحته ، فعاهدوهم على ذلك وأفرج الجيش عنهم وخرجوا مع الودايا فقدموا على السلطان بهديتهم فعفا عنهم ، وولى عليهم كبيرهم حبيبا المالكي وأضاف اليه قبائل الجبل كلها ، وأما الجيش الذى كان على العرائش فانهم لما قفلوا باتوا بقصر كتامة فضيفهم أهله بما قدروا عليه من الطعام والعلف ومن الغد

دخلوا القصر فاستباحوه ونهبوا وسبوا وقتلوا وفعلوا الافاعيل العظيمة ، واستمروا على ذلك ستة أيام ، وكان الحادث عظيما ، وعز ذلك على الناس كلهم وتأسفوا له وكان ذلك في محرم سنة احدى وستين ومائة وألف .

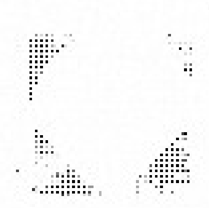
زحف البربر الى الودايا ومظاهرة اهل فاس لهم عليهم

لما كان جمادى الثانية من سنة احدى وستين ومائة وألف عزم السلطان المولى عبد الله على غزو البربر فخرج من فاس الجديد حتى اتى ابا فكران فعسكر به ظنا منه أن العساكر ستقدم عليه هنالك كما هي العادة فلم يأته احد ، فبعث الى العبيد يستنفرهم لغزو البربر فقالوا : « حتى يأتي الودايا والقبائل ونأتي نحن أيضا » ولما رأى تثاقل الناس عنه عاد الى منزله واعرض عما كان هم به ، ولما سمع البربر برجوعه عنهم طمعوا فيه وأجمعوا غزوهم فقال لهم محمد واعزيز : « الرأي ان ننزل بسايس ونحول بينه وبين العبيد حتى لا يصل اليهم ولا يصلوا اليه» فاقبلوا حتى نزلوا ببسيط سايس ، ثم تقدمت جموعهم حتى شارفوا مزارع فاس الجديد فأغاروا على الودايا ونهبوا ماشيتهم وزروعهم وضيقوا عليهم ثم وصلوا ايديهم باهل فاس فدخلوا مدينتهم وتسوقوا بها فباعوا واشتروا عشرة ايام وانقلبوا الى اهلهم فاكهين .

وفي أول رجب من السنة المذكورة ورد الخبر بأن ... الريف قد قبضوا على المولى المستضيء المقيم ببلادهم ونهبوا خيله وأثاثه وماله وتقصوه حتى يدفعوه لاخيه المولى عبد الله لانه كان قد اشتغل بظلم الناس بالقصر وطنجة ، وقبض على القائد عبد الكريم بن على الريفي وهو أخو أحمد بن علي المتقدم الذكر فأخذ ماله وسمل عينيه ، وأما أهل تطاوين فلم يبايعوه ولا عرجوا عليه ، وفي شعبان احرق الودايا باب المحروق ليلا فتطن لهم الحرس ودافعوهم عن الباب ومن الغد ركبوا به أبوابا جددا .

مراجعة أهل فاس طاعة السلطان المولى عبد الله
وانعقاد الصلح بينهم وبين الودايا

لما طال الحصار على أهل فاس وأضرت بهم معاداة جيرانهم من الودايا وسئموا الحرب راجعوا بصائرهم وجنحوا للسلم وطاعة السلطان فاتفق ان كان عندهم رجل من أشراف تافيلالت فأرسلوه الى السلطان واسطة بينهم وبينه ، وبعثوا معه كتابا بالاعتذار والتوبة فقبل السلطان ذلك وسر به ووقع منه الموقع ، وكتب اليهم ينفي ظنونهم ويسل سخائمهم ويقسم لهم أنه لم يأمر بحربهم ولا اضرارهم قط ، وانما فعل ذلك الودايا من قبل أنفسهم ، فلما وصل اليهم كتاب السلطان بذلك طابت نفوسهم وفرحوا وعينوا جماعة من فقهائهم وأشرافهم وأهل الخير منهم فأوفدوها على السلطان بمكناسة في شوال من السنة المذكورة ففرح بهم وأكرمهم ، وصرح لهم بالعفو والرضا عنهم ، فاغتبطوا بذلك ، وانقلبوا الى اهلهم فرحين مستبشرين. ثم كان الصلح بينهم وبين الودايا بضريح المولى ادريس رضي الله عنه وفتحت أبواب المدينة بعد الحصار سنتين وثلاثة أشهر ، وكان ذلك في ذي القعدة من سنة احدى وستين ومائة والف ، ولما حضر العيد قدموا على السلطان وهو بمكناسة بالجيش وعادوا به خوفا من البربر



١٨١

خروج العبيد على السلطان المولى عبد الله وبيعتهم لولده سيدي محمد والسبب في ذلك

لما راجع أهل فاس طاعة السلطان المولى عبد الله واصطلحوا مع الودايا وهدأت الفتنة ساء البربر ذلك وكرهوه ، وبلغهم مع ذلك أن السلطان قد استنفر العبيد لغزوهم فاحتالوا في تفريق الكلمة على السلطان بأن أخذوا في شن الغارات على العبيد بمكناسة والتضييق عليهم واختطاف أولادهم من الحدائق والجنات ، فراسل العبيد البربر في المسالمة والصلح فقالوا لهم : إن السلطان أمرنا بهذا . فلما سمع العبيد ذلك منهم لم يشكوا في صدقهم بسبب ما كانوا أسلفوه من التقاعد عن السلطان والتثاقل عن النهوض معه لغزو البربر حتى عاد إلى منزله بعد أن عسكر بأبي فكران كما مر ، ثم اتفق رأي العبيد على الفتك بالسلطان واغتياله ، ونما إليه ذلك منهم فخرج فارا من مكناسة إلى دار الدبيبغ فاستقر بها ، وكان ذلك في صفر سنة اثنتين وستين ومائة وألف .

ولما ضاق العبيد ذرعا بفعل البربر كاتبوهم في الصلح فأجابوهم إليه على شرط أن يبايعوا سيدي محمد بن عبد الله فبايعوه بمكناسة وبعثوا إليه ببيعتهم وهو بمراكش مع جماعة من أعيانهم ، وخطبوا به بمكناسة وزرهون والسلطان بدار الدبيبغ لا يملك من أمره شيئا ، ولما قدم وفد العبيد على سيدي محمد بن عبد الله ردهم وعاتبهم على ما ارتكبوه في حق والده وتألفهم بشيء من المال وأعرض عن الخوض في أمر البيعة ، إذ كان رحمه الله بارا بوالده ساعيا في مرضاته ، وبعث إليه في صفر من هذه السنة بهدية قدرها على ما قيل ثلاثون ألف مثقال ، فرجع وفد العبيد من عند سيدي محمد وقد أيسوا من إجابته إياهم ، ومع ذلك استمروا على الخطبة بمكناسة وزرهون .

ثم ان السلطان المولى عبد الله رحمه الله لما رأى أن القلوب قد نفرت عنه وان العبيد والبربر قد امتدت عيونهم الى ولده سيدي محمد وتعلقت آمالهم به تلافى أمره ، واخذ في استصلاح الرعية وتألفها ، فأمر في شعبان من السنة المذكورة بان ينادي باسواق فاس على العبيد الذين بها من لم يحضر الى دار الدبيغ لوقت كذا فلا يلومن الا نفسه ، فحضر العبيد الذين بفاس كلهم فاعطاهم خمسة دنانير لكل واحد ، وقال لهم : «ابعثوا الى اخوانكم الذين بمكناسة فمن اتى منهم الى فض مثل ما قبضتم تكتبوا اليهم فلم يزدهم ذلك الا نفورا ، وبعثوا الى البربر الذين بفاس يقولون لهم : «كل من صادفتموه منا متوجها الى فاس فاقتلوه» وأعلنوا بخلع السلطان .

ثم استدعى السلطان بعد ذلك ابنه محمدا واعزيز كبير البربر ووعده ومناه فقدم عليه في اخوانه في رمضان فأعطاهم عشرة آلاف دينار ، وحضر العبيد فقدموا عليه أيضا فأعطاهم عشرة آلاف اخرى ، واعطى الودايا عشرة آلاف أيضا ، واعطى أهل فاس مثل ذلك ، ولج العبيد في نفورهم وركبوا رأسهم في جماحهم عن السلطان والقرب منه .

مجيء سيدي محمد بن عبد الله من مراكش الى مكناسة وتوسطه للعبيد في الصلح مع والده رحمهما الله

ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة والف ففي اواخر جمادى الاولى منها قدم المولى محمد بن السلطان المولى عبد الله من مراكش الى مكناسة فوجد العبيد لا زالوا يخطبون به فعاتبهم على ذلك ، وقال لهم : «اني بريء منكم ومن فعلكم هذا وانما انا خديم والدي» فتركوا الخطبة وراجعوا

مطارهم وجددوا البيعة للسلطان وتلافوا أمرهم في طاعته ، وكانت هذه هي البيعة السابعة للعبيد مع السلطان المولى عبد الله لانهم خلعوه قبلها ست مرات حسبما مر الخبر عن ذلك مستوفى .

ولما تم لسيدي محمد مع العبيد ما أراد من مراجعتهم طاعة والده ارتحل من مكناسة في جيشه الذي قدم به من الحوز ، وكان نحو أربعة آلاف ، واستصحب معه جماعة من أعيان العبيد ، وقدم على والده بدار الدبيبغ فخرج الودايا وأهل فاس لملاقاته وفرحوا بمقدمه ، ولما دخل على والده أدى التحية وأهدى اليه هدية نفيسة وشفع للعبيد عنده فشفعه فيهم ، وقال له : «لا تبت هنا» فقال : «نعم ياسيدي» ولم يبت الا برأس الماء وأصبح غاديا الى مراكش ، ثم حضر العيد فقدم على السلطان جماعة من جروان وبني مطير فأعطاهم عشرين ألف مثقال ، وقدم عليه قواد العبيد من مكناسة فلم يعطهم شيئا .

وفي هذه السنة توفي المولى أحمد بن السلطان المولى عبد الله بفاس ودفن بقبور الاشراف رحمه الله .

انحراف العبيد ثانية عن السلطان المولى عبد الله والتجاؤهم الى ابنه سيدي محمد بمراكش والسبب في ذلك

لما أعطى السلطان المولى عبد الله بني مطير وجروان عشرين ألف مثقال وحرم العبيد قامت قيامتهم وقلبوا للسلطان ظهر المجن ، واتفقوا على الذهاب الى ابنه سيدي محمد بمراكش فقدموا عليه في ذي القعدة سنة أربع وستين ومائة وألف ، وقالوا له : «اما ان تكون سلطانا واما أن تبايع عمك المولى المستضيء» وشكوا اليه أعمال والده جانبهم وقالوا له : «انه أعطى البربر أعداء الدولة وحرمنا فرضخ لهم بشيء من المال طيب به

نفوسهم ، وكتب لهم كتابا الى والده يستعطفه لهم ، وانقلبوا من عنده مسرورين .

واما السلطان المولى عبد الله فانه لما سمع بذهاب عبيد مكناسة الى مراكش أعطى الودايا عشرة آلاف ريال ، واعطى العبيد الذين معه ثلاثة آلاف ريال ، ولما قدم عبيد مكناسة على السلطان بكتاب ابنه سامحها وأعطاهم عشرين الف ريال وتم الصلح بينهم وبينه وعادوا إلى مكناسة مغتبطين .

وفي هذه السنة بعث سيدى محمد من مراكش بهدية الى والده مع جماعة من اصحابه فاثنى عليه خيرا ودعا له به ، وفيها ورد الخبر بأن أهل تطاوين قتلوا عاملهم أبا عبد الله الحاج محمدا تميم ، ثم قدم جماعة منهم على السلطان معتذرين من قتله ، فقال لهم : «أنتم رأيتموه عليكم وأنتم قتلتموه فاختاروا لانفسكم» فوقع اختيارهم على أبي عبد الله الحاج محمد ابن عمر الوقاش فولاه عليهم وانصرفوا الى بلدهم .

ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة وألف فيها قدم أهل تطاوين على السلطان المولى عبد الله لحضور عيد المولد الكريم وبيدهم هدية مقدارها ثلاثون الف مثقال ، وقدم بصحبتهم باشدور الاصبنيول ومعه مائة الف ريال وما يناسبها من الحرير والملف والكتان وغير ذلك بقصد فكاك اسرى جنسه ، فقبض السلطان المال وقال للباشدور : «حتى تأتوا باسرى المسلمين» وأعطى العبيد من ذلك المال ريالين لكل واحد وأعطى نساءهم مثل ذلك ، وكانوا الفين ومائتين .

ثم دخلت سنة ست وستين ومائة والف فيها قدم عبيد مكناسة على السلطان لحضور العيد فأعطاهم عشرة آلاف ريال ، وفيها نهض أهل فاس لشراء الخيل والعدة والاكثار منها .

وفيها انعقدت الشروط بين السلطان وبين جنس الاصطادوس ، وهم سبع قبائل من الفلامنك ، وهي اثنان وعشرون شرطا مرجعها الى عقد الامان

والصلح بين الايالتين ، وان يجعل جنس الاصبانيول قنصلا أو أكثر بالبلد الذي يختاره من بلادنا ، ويكون يعطي خط يده المسمى بالباصبورط لمن يسافر من مراكبنا الى جهة بلادهم ، وكذلك هم ايضا الى غير ذلك .

وفي هذه السنة أو ما يقرب منها أغار نصارى الجديدة على آزمور واقتحموا ضريح الشيخ أبي شعيب ليلا وقتلوا به عددا كبيرا من أهل آزمور نحو الخمسين ، وكانت الليلة ليلة جمعة ، وعادة أهل آزمور أن يبيتوا ليلة الجمعة بضريح الشيخ المذكور ، فنما ذلك الى النصارى الذين بالجديدة فجاءوا مسعدين حتى اقتحموا عليهم على حين غفلة وأطفأوا المصابيح ووقع القتال حتى كان المسلمون يقتل بعضهم بعضا ورجع النصارى عودهم على بدئهم .

وذكره لويز مارية مؤرخ الجديدة فقال ما ملخصه : «وفي ليلة الثاني عشر من نونبر سنة اثنين وخمسين وسبع عشرة مائة مسيحية خرج عشرة من برتقال الجديدة وقصدوا آزمور حتى دخلوا ضريح الشيخ أبي شعيب ليلا وقتلوا عالك اربعين من المسلمين وقامت الهيعة بالبلد وتسابقوا اليهم على الصعب والذلول فرجع النصارى من حينهم وأدركهم المسلمون بالطريق فجرحوا بعضهم ونجوا بعد مشقة فادحة» هكذا زعم لويز وان النصارى كانوا عشرة فقط وأهل آزمور يزعمون أنهم كانوا أكثر من ذلك بكثير والله أعلم .

ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة والف فلم يكن فيها حدث في الدولة

ثم دخلت سنة ثمان وستين بعدها فيها توفي محمد واعزيز كبير آيت ادراسن ووازعها الذي كانت تقف عند اشارته وتجرى امورها على مقتضى ادارته .

فتنة آيت ادراسن وكروان مع الودايا والسبب في ذلك

لما مات محمد واعزيز ولم يبق بآيت ادراسن من يقوم فيها مقامه فهاجت الفتنة بينهم وبين جروان ، فزحفوا الى كروان واوقعوا بهم فانهزمت كروان أمامهم ولجأوا الى دار الدبيغ معتصمين بها ومستجيرين بالسلطان الذي بها ، وضاق بهم رحب الفضاء وعدموا المرعى فشرعوا في بيع مواشيهم فبلغت البقرة بسوق فاس خمس اواق والشاة أوقية ، فأمر السلطان المولى عبد الله الودايا بنصرتهم وآخى بينهم وبينهم ، وعقد لهم حلفا مؤكدا معهم فقاموا لحمايتهم والدفاع عنهم ، وانشبوا القتال فكانت الهزيمة على آيت ادراسن ، فقرت خيلهم ومقاتلتهم وانكسرت حلتهم وقتلوا في كل وجه ومن سلم منهم لجأ الى بلاد شراقة فاستجار بها ، فكان عدد من قتل منهم بتلك الوقعة نحو الخمسمائة ، وهذا سبب حلف الودايا مع جروان .

ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة والف فيها قدم على السلطان المولى عبد الله عبيد مكناسة ورغبوا اليه في الذهاب معهم اليها اذ هي دار ملكه وملك أبيه من قبله فقال لهم : «كيف أذهب معكم وفي وسطكم فلان وفلان» لجماعة سماهم منهم كانوا منحرفين عنه فرجع العبيد الى منازلهم ، ولما جن الليل طرقوا اولئك المسمين وأمثالهم في رحالهم فقتلوهم ارضاء للسلطان وطلبا لنفسه . وكان منهم القائد محمد السلاوي ، والقائد سليمان بن حسن العسري ، والقائد زعبول وغيرهم .

ولما بلغ السلطان ذلك بعث اليهم باربعين الف مثقال راتب وصرفهم الى مكناسة وقال لهم : «اذا فرغت من عمل أبيكم» .

وفي هذه السنة أيضا قدم عليه القائد أبو عبد الله محمد الوقاش قسي أهل تطاوين بهدية فيها الف ريال وبأسارى وسلع من سلع النصارى غنمتها قراصينهم ، فأكرمه السلطان وأعطاه جاريتين وانقلب الى اهله مسرورا .

وفيها قدم على السلطان أخوه المولى ابو الحسن المخلوع بدار الدبيغ

فأعطاه مالا واثاثا قيمته عشرة آلاف مثقال وخيره بين تافيلالت ومكناسة ، فاختار مكناسة فأعطاه مستفاد مكسها وجنات المخزن التي بها وارضا للحراثة فقدم المولى ابو الحسن مكناسة واستوطنها واغتبط بها ، ولما جاء وقت ابان الحرث وحرث وثب عليه العبيد فقبضوا عليه وقيدوه وبعثوا بـه الى السلطان مقيدا ، وقالوا له : ان هذا قد افسد علينا بلادنا فحل بيننا وبينـه فسرحه وبعث به الى سجلماسة .

وفي هذه السنة ايضا نهب البربر جميع ماشية الودايا وأفسدوا زروعهم وجنـائزهم .

ثم دخلت سنة سبعين ومائة وألف فيها كانت بين آيت ادراسن وكروان حرب عظيمة أعان فيها الودايا كروان فهزموا آيت ادراسن بسبب النخلة من سايس والله أعلـم .

وفاة أمير المومنين المولى عبدالله بن اسماعيل رحمه الله

كانت وفاة أمير المؤمنين المولى عبد الله بن اسمعيـل رحمه الله بدار الدبيبغ يوم الخميس في السابع والعشرين من صفر الخير سنـة احـدى وسبعين ومائة وألف ودفن بقبور الاشراف من فاس الجديد حيث دفن ولده المولى أحمد رحمهما الله .

قال صاحب « البستان » : كان أمير المؤمنين المولى عبد الله فيـه شدة وبطش وبسببهما نفرت قلوب الجند والرعية عنه وبقي مهملا بدار الدبيـغ سنين لا يأتيه أحد ويبعثه في أعناق الناس وهم فارون منه لكثرة ما سفـك من الدماء بغير سبب ظاهر . واستمرت حالته على ذلك مدة مـن اثنى عشرة سنة من سنة تسع وخمسين الى سنة احدى وسبعين ومائـة وألف رحمه الله وغفر لنا وله ولسائر المسلمين . ومما مدح به هذا السلطان قول بعضهم :

عليك سلام يا ضياء العوالم ... ويابهجة الاشراف من آل هاشم
ويامن سما عضبا على كل جاهل ... وأصبح مسرورا به كل عالم
وأصبح ظل الله في الارض ناظرا ... الى كل مسكين بمقلة راحم
ويامن كساه الله منه مهابة ... تذل لها رغما أنوف الاعاجم
ويامن له حزم وعزم وسطوة ... تفتت ارهابا قلوب الضراغم
كفاك افتخارا ان عزك ظاهر ... وجودك منسي به جود حاتم
وكون سجاياك التي فاح عرفها ... سجايا الملوك الشم أهل المكارم
لعمري لقد ألقت اليك زمامها ... ضروب العلا اذ كنت أحزم حازم
وقمت على الملك المشيد وكنه ... تذود لديه بالقنا والصوارم
وأغناك رب الناس عن جمع عسكر ... برأي مصيب للعساكر هازم
ونفس علت فوق السماكين همة ... وعقل غني عن هداية عالم
فجئت وسيل الحرب قد بلغ الزبى ... وأسواقه معمورة بالجرائم
ونار الشرور في الفجاج تأججت ... وطاب لأهل البغي هتك المحارم
فدوختها من بعدما استمرت به ... بغاة وقد طالت رعاة البهائم
فأمنتنا من كل طار وطارق ... وحصنتنا من كل داه وداهم

انعطاف الى سياقة الخبر عن آخر امر المولى المستضيء رحمه الله

قد تقدم لنا أن السلطان المولى عبد الله خرج سنة سبع وخمسين ومائة وألف في طلب أخيه المولى المستضيء ، وأنه دوخ بلاد الحوز لاجله وشرده عن جبال مسفيوة ، وجا الى مراكش فطرده أهلها ولما لم يجد بالحوز مستقرا رجع أدراجه يقتري البلاد والقرى ، ويصل حرارة التهجير بدوك السرى فاجتاز ببلاد دكالة ثم بتامسنا ثم بني حسن فزهدوا فيه فتقدم الى طنجة وأعمالها فاستقر بالفحص منها وطاب له المقام به ، وعسف اناسا في تلك

المدة الى ان عدا على القائد عبد الكريم الريفي فسجنه وسمله وأخذ ماله كما مر ، فوثب عليه أهل الريف وقبضوا عليه ونهبوا خيله ومضاربه وأثاثه وسلبوا أصحابه وامتحنوه واوثقوه حتى يبعثوا به الى أخيه المولى عبد الله ثم بدا لهم فسرحوه ، ولما خلص من المحنة كتب الى أخيه المولى عبد الله وهو بفاس يعتذر اليه عما سلف منه ويطلب منه محلا يستقر به فأجابه السلطان المولى عبد الله : « بأنك لم تأت الي ذنبا ولم ترتكب في حقي عيبا انما كنت تطلب ملك أبيك كما كنت أطلب ملك أبي والآن فان اردت الخمول لمثلي فأقم بآصيلا واسكن بها فهي أحسن من دار الدبيبغ التي أنا بها وارح نفسك كما أرحتها ، وان كنت انما تطلب الملك فشأنك وايساه فاني لا انازعك فيه والسلام » . فلما وصل اليه كتاب السلطان انتقل الى آصيلا واستوطنها واعتنى بها وأصلح ما يحتاج الى الاصلاح منها ، وأصلح دار الخضر غيلان التي بقصبتها وسكنها سنة أربع وستين ومائة وألف ، واجتمع عليه بعض أهل الطمع والشره ممن كان هنالك فدلوه على وسق الزرع للكفار وتوسطوا له في الكلام مع بعض تجار النصارى الذين بطنجة وتعاقدوا معه على وسقه ، فانتقل ذلك التاجر الى آصيلا ، ولما قدم عليه مركبه وسق الزرع وأدى صاكته أي واجبه فظهر للمولى المستضيء الربح في ذلك فشرهت نفسه ورغب في شراء الزرع وبيعه ممن يأتيه من التجار ، وتسامع النصارى بأن الزرع يوسق من مرسى آصيلا ، فلم تمض الا أيام قلائل حتى قدمت مراكبهم من كل وجه وعمرت المرسى وقصد الاعراب البلد بالقمح والشعير من كل فج ، والمولى المستضيء يشتري منهم ويبيع للنصارى ، والمراكب تسق ما قدرت عليه ، فكان يحصل له الربح في ذلك مضاعفا ربح الثمن وربح الصاكة فحسنت حاله وأثرى وكثر تابعوه ، وأخذ في شراء العدة من تطاوين وتسليح أصحابه وتقويتهم .

واتصل خبره بالسلطان المولى عبد الله فندم على اذنه له في المقام هنالك وكتب الى القائد أبي محمد عبد الله السفياني يأمره بالزحف الى المولى المستضيء وحصاره بآصيلا حتى ينفيه عنها ، وكتب الى ولده سيدي محمد

بمراكش يأمره أن يبعث اليه من يخرجه منها ويكون معه القائد عبد الله السفياني في خمسمائة من الخيل ، فبعث اليه سيدي محمد رفيقه وابن عمه المولى ادريس بن المنتصر في مائة فارس ، وأمره أن يستصحب معه في طريقه عبد الله السفياني في خمسمائة من الخيل كما رسم لهو الده ويضيقوا على المولى المستضيء بأصيلا حتى يخرجوه منها ، فمضى المولى ادريس والسفياني حتى نزلا عليه وحاصراه فخرج اليهما وراود ابن اخيه المولى ادريس على الافراج عنه وتركه وشأنه ، واعتذر اليه بأن السلطان اذن لـه في سكنى أصيلا وأعطاه مستفاد مرساها ينتفع به ، فلم يقبل المولى ادريس منه ولم يزل به حتى أخرجه ، واستولى على ما وجد بداره من مال وأثاث وسلاح وبارود وغير ذلك ، فساقه الى عمه السلطان المولى عبد الله .

وأما المولى المستضيء فانه لما خرج من آصيلا سار الى فـاس فنـزل بضريح الشيخ أبي بكر بن العربي رضي الله عنه ، وقدم ولده الى السلطان المولى عبد الله يشكو له ما فعل به ولده سيدي محمد من تجهيز العساكر اليه ونفيه عن آصيلا ، فكان من جواب السلطان أن قال له : « قل لابيـك ذاك لا سبيل لي عليه ، هو أعظم شوكة مني ومنك فسر الى بلاد أبيك وجدك وأرح نفسك من التعب والموت قريب مني ومنك » . فلما بلغه كلام السلطان لم يسعه الا التوجه الى مدينة صفرو بعد أن ترك عيالـه بدار الشريف المولى التهامي باجوطيين من فاس ، ونزل هو بدار الامارة من صفرو ، ولما قـدم المولى ادريس بن المنتصر على السلطان بمال المـولى المستضيء وأثاثـه وهب السلطان البارود والسلاح ورد الباقي ، وأرسل الى عامل فاس يأمـره أن يكتب الى المولى المستضيء ليبعث وكيلا يحوز اليه متاعه ، فكتب اليه فبعث من حاز ماله وأثاثه ودفعه الى عياله بدار المولى التهامي . وكان المولى المستضيء لما اطمأنت به الدار بصفرو بعث الى أعيان آيت يوسي على ما قيل فقدموا عليه فندبهم الى نصرته والقيام بدعوته فتخاذلوا عنه وقالوا لـه : « سر الى آيت ادراسن وكروان فان أجابوك فنحن معهم » ولما لم يتـم له أمر بصفرو بعث من حمل اليه عياله وأثاثه من فاس وذهب الى سجلماسة فاستوطنها وذلـك

سنة ست وستين ومائة وألف ، وأعرض عن الملك وأسبابه واستمر مقيما بها الى أن توفي سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف رحمه الله وغفر له .

انعطاف الى سياقة الخبر عن هؤلاء العبيد الذين جمعهم السلطان المولى اسماعيل من لدن وفاته الى دولة السلطان سيدى محمد بن عبدالله

قد تقدم لنا ان السلطان المولى اسمعيل كان قد اعتنى بجمع العبيد وترتيبهم وتهذيبهم الى أن بلغ عددهم مائة وخمسين ألفا ، وبلغوا فى أيامه من العز والرفاهية وتشييد الدور والقصور وارتباط الجياد وانتخاب السلاح واقتناء الأموال وحسن الشارة والزي مالم يبلغه غيرهم ، وكان بالمحلة من مشرع الرملة منهم سبعون ألفا ما بين خيل ورماة ، وكان عدد الكشارية منهم ، وهم أصحاب الباشا مساهل ، خمسة وعشرين ألفا كلهم رماة الا القواد منهم فانهم كانوا أصحاب خيل ، وكان بتاوت ووجه عروس منهم خمسة آلاف يدعون قواد رؤوسهم كلهم أصحاب خيل ، وباقي العدد وهو خمسون ألفا كانوا متفرقين فى قلاع المغرب لعمارتها وحراسة الطريق وحماية الثغور ، وكانوا في غاية من الكفاية والسعة لان كل قبيلة من قبائل المغرب كانت تدفع أعشارها في قلعتها المبنية بها لمؤنة جيشها وعلف خيلها ، واستمر ذلك الى أن توفي السلطان المولى اسمعيل رحمه الله فانقطع بوفاته عن جيش القلاع المدد الذى كان به قوامهم .

ولما ولى بنوه من بعده واتصلت الفتن بينهم أهملوا أمر هؤلاء العبيد ولم يلتفتوا اليهم فضعفت مادتهم وتلاشى أمرهم ، وانتشروا فى القبائل التى كانوا مجاورين لها للتكسب على أنفسهم وأولادهم ، ولما أعروا تلك القلاع التى كانوا مقيمين بها امتدت اليها أيدى القبائل من العرب والبربر بالنهب والتخريب واقتلعوا أبوابها وخشبها وما راق منها وتركوها خاوية على

عروشها لم يبق بها الا الجدرات قائمة ،وهكذا كان مآل محلة مشرع الرملة فانه لما ارتحل العبيد عنها الى مكناسة أيام السلطان المولى عبد الله خلفهم بنو حسن فيها بالنهب والتخريب ، وكل من عثروا عليه متأخرا بها نهبوه واستلبوا ما معه وأخذوا كل ما تركوه مما ثقل عليهم حتى يرجعوا اليه اذ كان العبيد يظنون انهم سيرجعون الى مشرع الرملة ، ثم تجاوزت بنو حسن ذلك الى تخريب الدور والقصور وحمل أبوابها وخشبها الى سلا فكانت تباع بها بالبخس ، فقد كان بهذه المحلة دور وقصور ليست بالحواضر ، وكان كل قائد منهم يفتخر على نظيره ببناء أعظم من بنائه وتشييد فوق تشييده وتنميق أحسن من تنميقه وتزويق أبدع من تزويقه فأتى بنو حسن على ذلك كله واستفوه ، وطمسوا أعلامه في أسرع من لحس الكلب أنفه ولم يتركوا الا الجدران قائمة الا أن خربوها بعد ذلك شيئا فشيئا ، بل صاروا يحفرون الارض على الدفائن التي بها فعثروا من ذلك على شيء كثير .

ثم أن العبيد الذين رحلوا الى مكناسة لم يصل منهم اليها الا دون النصف اذ تفرقوا في القبائل وقت رحيلهم فكل من كان أصله من قبيلة قصدها وكل من كان له مدشر عاد اليه . ثم الذين وصلوا الى مكناسة لم يستقر بهم قرار لقلة ذات اليد وغلاء الاسعار ، وكان الوقت وقت مجاعات وفتن ، فلم يبق بها الا القواد أهل اليسار وأهل الحرف الذين يعيشون بحرفهم ، ومع ذلك فقد ضاقت بهم السكنى بها من أجل غلبة البربر الذين كانوا يغيرون عليهم ويختطفون أولادهم من البحائر والجنات المرة بعد المرة ، فتسلل جلهم للمعاش بالقرى والقبائل ونسوا أمر الجندية والتمرس بالقنا والقنابل ، وتفرق منهم ذلك الجمهور . ولله عاقبة الامور .

ولما وقعت الزلزلة بمكناسة سنة تسع وستين ومائة وألف حسبما نذكره في الاحداث هلك من العبيد فحسب نحو خمسة آلاف وهكذا لم يزالوا في تلاش واضمحلال وتناثر واختلال الى أن كانت دولة السلطان الاعظم المولى محمد بن عبد الله رحمه الله فأدرك منهم صبابة يسيرة وعصابة حقيرة ، فاعتنى بهم وجمعهم من القبائل بعد الانتشار ، وأحيا رسمهم بعد

الاندثار ، وأظهرهم بعد الخمول ، وأركبهم المسومة من الخيول ، ورفع لهم الاعلام والبنود ، وصيرهم من أعز الجنود ، وهو الذي جدد هذه الدولة الاسماعيلية بعد تلاشيها ، وأحياها بعد خمود جمرتها وتمزيق حواشيها ، بحسن سيرته ويمن نقيبته رحمه الله تعالى ورضي عنه .

وهنا انتهى بنا الكلام على السادة الاشراف أولاد المولى اسمعيل رحم الله الجميع بمنه . قال أكنسوس : والحق الذي لاشك فيه أن كل من قام منهم بعد بيعة السلطان المولى عبد الله فانما هو ثائر عليه لا امامة له وانما يكون خبره مسوقا من جملة اخبار دولة المولى عبد الله .

قلت : ومثله يقال في السلطان المولى أحمد بن اسمعيل فهو الامام المعتبر والمولى عبد الملك خارج عليه وقد علم من مذهب الاشعرية أن طرو الفسق لا يعزل الامام . والله تعالى اعلم واحكم .

انعطاف الى سياقة الخبر عن خلافة سيدى محمد بن عبد الله بمراكش من مبتدئها الى منتهاها

قد تقدم لنا ان السلطان المولى عبد الله كان قد خرج سنة سبع وخمسين والف في طلب أخيه المولى المستضيء الى أن شرده عن بلاد مسفيوة وانه قدم عليه هنالك أهل مراكش ورغبوا اليه أن يدخل حضرتهم ولم يساعده الوقت ، فلما عزم على القفول الى بلاد الغرب بعث ولده الاكبر المولى احمد الى رباط الفتح نائبا عنه بها ، وأضاف اليه قبائل الشاوية وبني حسن ، وما بينهما ، وبعث ولده الاصغر سيدى محمدا مع اهل مراكش نائبا عنه فيها فكان ذلك اول انغراس شجرة الملك العلوى بمراكش واتخاذها كرسيا لهم ، ولما وصل سيدي محمد رحمه الله الى مراكش نزل بقصبتها وهي يومئذ خراب ليس بها الا آثار السعديين والموحدين قبلهم ، قد أخنى

عليها الدهر وعشش بها الصدا والبوم فضرب بها مضاربه ، ثم شرع رحمه الله في حفر أساس داره بالفضاء البعيد عن القصور الخربة بها من داخل السور ، ولما رأى عرب الرحامنة ذلك اتفقوا على منعه لانهم كانوا قد الفوا العبث في أطراف مراكش فأحبوا ان لا تكون بها دولة تكبحهم عن ذلك ، فاجتمع طائفة من غوغائهم وتقدموا الى الخليفة سيدى محمد وجبهوه بالمنع واخرجوه عن القصبة بعد ان شرع في العمل ، فانتقل سيدى محمد رحمه الله عن مراكش الى آسفى .

واما المولى احمد صاحب العدوتين فانه قدم رباط الفتح ونزل بالقصبة منها وانضاف اليه عبيد القصبة واستمر خليفة بها الى أن سمع أهل العدوتين ما عامل به الرحامنة خليفة مراكش فجرى هؤلاء على سننهم واتفقوا على طرد المولى أحمد بن عبد الله عن بلادهم فتقدموا اليه بالحرب وحاصروه بالقصبة ومعه عبيد فلان الذين كانوا فيها ادالة من عهد السلطان المولى اسمعيل ، وقطعوا الميرة والماء الى أن مسهم الجهد وعضهم الحصار فطلبوا الامان أن يخرجوا بأنفسهم فأمنوهم ، وخرج المولى أحمد فسار الى أخيه سيدى محمد باسفى فنزل عليه ثم كان آخر امره أن توفى بفاس كما مر سنة أربع وستين ومائة وألف .

ولما خرج المولى احمد الى آسفى عمد أهل رباط الفتح الى عبيد القصبة فانزلوهم منها وفرقوهم بالمدينة حتى لا تبقى لهم شوكة ولا عصبية . هذا ما كان من خلافة المولى احمد .

واما خلافة سيدى محمد فانه لما خرج من مراكش قاصدا الى آسفى اعترضه قبائل عبدة وأحمر وضيفوه ببلادهم وأهدوا اليه ، وتسابقوا على الخيل ولعبوا بالبارود سرورا بمقدمه وتنويها بشأنه ، وصحبوه الى آسفى فدخلها ونزل بقصبتها ففرح أهل آسفى بمقدمه واغتبطوا به وكان مبارك الناصية أينما توجه ولما اطمأنت به الدار رفع اليه أهل آسفى هداياهم ، وتبعهم على ذلك تجار النصارى واليهود وتباروا في ذلك وتنافسوا فيه وعمر سوقه عرب عبدة رجالاتهم وأعيانهم ، وبذلوا له أولادهم لخدمته واوصلوه

بكل ما قدروا عليه ، وسرح للتجار وسق السلع بالمرسى فاهرعت اليه المراكب من بر النصارى بانواع سلعها ، وقصدها التجار بالبضائع من كل جهة يبيعون بها ويشترون ، وكثرت الخيرات ونمت البركات ، فاشترك واستلحق وعلا امره وطار صيته في البلاد الحوزية ، ودخل الشياظمة وحاحة في طاعته وتباروا في خدمته ، فلم تمض عليه ستة اشهر حتى كان يركب في نحو الالف ، فلما سمع الرحامنة ما صار اليه أمر عبدة وأحمر اقتالهم من تشرفهم بولائه وتقدمهم في خدمته نفسوا ذلك عليهم وراجعوا بصائرهم فاجتمع طائفة من اعيانهم وقدموا عليه آسفي ، وقدموا بين يديهم هدية استرضوه بها . ولما دخلوا عليه اعتذروا اليه مما فرط منهم ونسبوا ذلك الى السفهاء وانهم لم يأمروا بشيء من ذلك ولا رضوه ، واقسموا له ان لا يبرحوا من بابه حتى يسير معهم الى مراكش ولو أقاموا هنالك سنة ، واسعفهم وسار معهم وصحبه من أعيان عبدة نحو ألف فارس ، وكان في موكبه من أصحابه وحاشيته نحو الخمسمائة كلهم بالخيول المسومة والشارة الحسنة والشكة التامة .

ولما انتهى الى مراكش نزل بالقصبة وجاءه أهل مراكش بهداياهم وكذا قبائل الحوز ، ثم تلاحم قبائل الدير كله بهداياهم أيضا وجاء الرحامنة باولادهم للخدمة السلطانية منافسة لعبدة وأحمر في ذلك ، وقفاهم في ذلك سائر أهل الحوز ، وقدم عليه عبيد دكالة الذين كانوا بسلا فاجتمعوا اليه وحسنت منزلتهم عنده . ولما سمع بذلك عبيد مكناسة تسللوا اليه فرادى وأزواجا فاستعملهم في خدمة البناء فبنوا بيوتهم واصلحوا شؤونهم ، واجتهد هذا الخليفة في بناء داره الكبرى بقصبة مراكش الى أن اكملها وسكنها ، ثم شرع في بناء ما تلاشى من اسوار القصبة وركب أبوابها وأفردها عن المدينة ، ثم غرس بستانا عظيما متصلا بداره الكبرى على جهة الغرب سماه النيل ، وأسس قصرا آخر متصلا بغربي هذا البستان سماه القصر الاخضر ، ويسمى أيضا المنصور ، وجعل لهذا البستان أربعة أبواب في زواياه الاربع كذا قيل والموجود اليوم ثلاثة أبواب فقط وجعل له بابين آخرين أحدهما للسدار

الكبرى شرقا والآخر للقصر الاخضر غربا ، وجعل في وسط هذا البستان قبة متخذة يتصل بها من جهاتها الاربع مماشى تمضى الى قباب أخر متخذة أيضا ، وطول هذا البستان ينيف على مائتي خطوة تقريبا وعرضه قريب من ذلك ، وهذا القدر هو مساحة ما بين القصرين أعني الدار الكبرى والقصر الاخضر ، ثم أصلح هذا الخليفة جامع المنصور الذي بالقصبة اذ كان متهدما يومئذ،ثم أسس مسجدا آخر للخطبة بجوار قصره وهوالمعروف اليوم بمسجد بريمة، وهو مسجد حافل بديع،وبنى مدرستين لطلبة العلم بالقصبة المذكورة، وبنى حماما ببريمة، وعمر مساجد غير ذلك للاحرار والعبيد ، وفرق الاموال على من انحاش اليه منهم لعمارة مساكنهم وبناء دورهم بعد أن كانت من المدن والقصب ، وكتب الكتائب وجند الاجناد فاجتمع لديه من العبيد ألف وخمسمائة كلهم فارس شاكي السلاح ، ومن عبده وأحمر مثل ذلك ، ومن الرحامنة وأهل الحوز ألف فارس كذلك .

ولما خرج العبيد بمكناسة على والده وقدموا عليه بمراكش مبايعين له عاتبهم وقدم مكناسة واصلح بينهم وبين والده كما مر .

ولما كانت سنة تسع وستين ومائة والف غزا بلاد السوس ودوخها ومهد أقطارها وجبى أموالها وفرق الحامية بتارودانت منها ، ثم سار الى آكادير فقبض على الطالب صالح الثائر به والمستبد بمال مرساه فسجنه واستصفى أمواله التي استفادها من المرسى ورتب الحامية في آكادير أيضا ، ثم ان الطالب صالحا المذكور ذبح نفسه في السجن وأفضى الى ما قدم بعد أن ترك في القطر السوسي صيتا وذكرا ، وهو الذي يوجد طابعه على السلاح السوسي من مكحلة وسكين وخنجر الى الآن وهو سلاح منتخب عندهم .

ووصل الخليفة سيدي محمد رحمه الله الى مراكش مؤيدا منصورا فمكث فيها اياما يسيرة ثم خرج غازيا بلاد الشاوية في السنة نفسها لما ظهر منهم من الفساد وقطع الطرقات ونهب المارة ، فقتل من أعيانهم عددا وبعث الباقي في السلاسل الى مراكش .

ثم تقدم الى أرض سلا فبات برباط الفتح وخرج اليه أهلها بالمؤن والهدايا واستبشروا بمقدمه . واما أهل سلا فلم يخرج اليه منهم احد بل أغلق صاحبها عبد الحق بن عبد العزيز فنيش أبوابها في وجهه ، فاعرض عنه سيدى محمد رحمه الله وتنكب المرور بسلا وعبر مشرع المجاز أسفل من العدوتين ، وسار الى قصر كتامة من بلاد الهبط ، فقدم عليه به عبيد مكناسة مع كبيرهم الباشا الزيانى ، وفي ذلك اليوم قتل العبيد باشاهم المذكور وقتلوا معه القائد يوسف السلاوى لانهما كانا يمنعانهم من القدوم عليه الى مراكش ، فولى عليهم القائد سعيد بن العياشى . ومن الغد ارتحل الى تطاوين فتلقاه أهلها مع قائدهم محمد بن عمر الوقاش فقبض عليه وتهدده ثم أطلقه . ثم مضى الى جهة سبتة حتى أشرف عليها ، ثم سار منها الى طنجة ثم كر راجعا فمر بالعرائش ثم بسلا فلم يحفل به عبد الحق أيضا ، فطوى له سيدى محمد رحمه الله على البت . ثم سار الى مراكش فاستقر بها مؤيدا منصورا الى ان وافته الخلافة الكبرى بها بعد وفاة والده رحمه الله .

تم الجزء السابع
ويليه الجزء الثامن وأوله

الخبر عن دولة امير المومنين سيدى محمد بن عبد الله رحمه الله

فهرس الموضوعات

فهرس الاعلام والقبائل

حرف « ب »

حرف «التاء»

حرف « ع »

حرف « غ »

حرف « ف »

حرف « ق »

حرف النون

حرف « ه »

حرف « و »

حرف « ى »

فهرس الاماكن

عبد اللطيف المغربي المراكشي
تلـــ ولبـــه